ليلى سليماني

رواية

أرض الآخرين

#918

المركز الثقافي العربي

مكتبة

مكتبة | سُر مَن قرأ

ليلى سليماني

أرضُ الآخرين

الجزء الأول

الحرب، الحرب، الحرب

الكتاب

أرضُ الآخرين

الجزء الأول

الحرب، الحرب، الحرب

تأليف

ليلى سليماني

ترجمة

مصطفى الورياغلي

الطبعة

الأولى، 2021

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-990-6

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للرواية:

Leïla Slimani

Les pays des autres

Première partie

La guerre, la guerre, la guerre

© Éditions Gallimard, Paris, 2020

All rights reserved

مكتبة

t.me/t_pdf

١٢ ٨ ٢٠٢٢

ليلى سليماني

مكتبة | سُر مَن قرأ

أرضُ الآخرين

الجزء الأول

الحرب، الحرب، الحرب

رواية

ترجمة: مصطفى الورياغلي

#918

المركز الثقافي العربي

في ذكرى آنْ وعاتقة
اللتين لم تفتأ حريَّتُهما تُلْهِمُني.

إلى أمي الحبيبة.

«لعنةُ هذه الكلمة: التهجين، لنكْتُبها بحروف كبيرة على الصفحة».

إدوار غليسان، **النية الشِّعرية**

«لم يكن دَمُهُ يريدُ أن يصمتَ، لا يريدُ أن يُنْقَذَ، لا يريد هذا ولا ذاك، ولا أن يسمحَ للجسد أن يُنقِذَ نفسَهُ بنفسه. دفَعَهُ دمُهُ الأسودُ، في البداية، إلى كوخ الزنجيِّ ثم أخرجَهُ منه دمُهُ الأبيضُ، ومن المرجَّح أنَّ دمَهُ الأسودَ دفعهُ إلى أن يأخذ المُسَدَّسَ، وأنَّ دَمَهُ الأبيضَ مَنَعَهُ من أن يستخدمَهُ».

ويليام فوكنر، **الضوء في أغسطس**

I

مكتبة
t.me/t_pdf

عندما زارتْ ماتيلد الضيعةَ أوَّلَ مرّةٍ، قالت في نفسها: «إنها شديدةُ البُعد». وكان ذلك البُعد يُقلقُها. لم تكن لديهما سيارة في تلك الفترة، من عام 1947، فقطَعا الخمسة وعشرين كيلومتراً التي كانت تفصلهما عن مكناس، على متن عربة قديمة، يقودُها قرويّ. ولم يكن أمين يحفل بالكرسيِّ الخشبيِّ غير المريح، ولا بالغبار الذي يثير سعالَ زوجته. كانت عيناهُ مأخوذتَين بمنظر الطبيعة، ويستعجلُ الوصولَ إلى الأرض التي ائتمنَهُ عليها والِدُهُ.

كان قدُّور بلحاج قد ابتاع، عامَ 1935، تلك الهكتارات من الأرض المكسوّة بالحجارة، بعد سنواتٍ من العمل مترجِماً في صفوف الجيش الفرنسي. وكان حدَّثَ ابنَهُ عن أمله في أن يجعل منها مزرعةً مزدهرةً من شأنها أن تُغذِّيَ أجيالاً من أولاد بلحاج. ويتذكَّرُ أمين نظرةَ أبيه، وصوتَهُ الذي لم يكن يتلجلجُ عندما يعرضُ مشاريعَهُ من أجل المزرعة. فدادين من الكروم، شرح له، وهكتارات مخصَّصَة بكاملها للحبوب. وينبغي إقامةُ بيتٍ، فوق جانب التلَّة الأكثر تعرُّضاً للشمس، تحيطُ به الأشجارُ المثمرةُ وبضعةُ ممرّاتٍ من أشجار اللَّوز. كان قدّور فخوراً بأن تكون تلك الأرضُ ملكاً له. «أرضُنا!» لم يكن يلفظُ بهذه العبارة بطريقة الوطنيين أو المعمِّرين، باسم مبادئ أخلاقية

أو باسم مثال، ولكن باعتباره مالكاً سعيداً بحقِّهِ في ما يمتلك. كان الشيخ بلحاج يريد أن يُدفَنَ في تلك الأرض وأن يُدفَنَ فيها أولادُهُ، أن تُغَذِّيَهُ وأن تكون مثواهُ الأخير. لكنه مات عام 1939، بينما كان ابنُهُ قد انخرطَ في صفوف كتيبة فرسان السباهية ويرفُلُ مفتخِراً بالبرنوس والسروال. فلما آن وقتُ الالتحاق بالجبهة، اختار أمين، الابنُ البكر، أن يُؤَجِّرَ الحقلَ لفرنسيٍّ أصلُهُ من الجزائر.

عندما استفسرتْ ماتيلد عن سبب موت ذلك الحَمْو الذي لم تعرفْهُ، لَمَسَ أمين معدَتَهُ وهزَّ رأسهُ بصمتٍ. علمتْ ماتيلد، فيما بعد، بما جرى. كان قدّور بلحاج يعاني، منذ عودته من فيردان، من آلام مزمنة في البطن، ولم يُفلح أيُّ معالجٍ مغربيٍّ أو فرنسيٍّ في التخفيف عنه. فاضطرَّ، وهو الذي كان يعتدُّ بكونه إنساناً يُحكِّمُ العقلَ، ويفخر بتعليمه وبموهبته في اللُّغات الأجنبية، إلى أن يُجرجر رجليه، خجِلاً ويائساً، إلى قبوٍ تسكنه شوّافة[1]. حاولت المشعوذةُ أن تُقنِعَهُ أنه مسحورٌ، وأنَّ هناك من يريد به شرّاً، وأن ذلك الألم إنما كان من عمل عدوٍّ رهيب. وسلَّمَتْهُ ورقةً مطوية أربع طيّاتٍ وتحوي مسحوقاً أصفر بلون الزعفران. شربَ ذلك الدواء في مساء اليوم نفسه بعد أن أذابه في الماء، ولم تمضِ سوى بضع ساعات حتى فارق الحياةَ في عذاب فظيع. ولم تكن الأسرةُ تحبُّ الحديث عن الأمر. كانوا يخجلون من سذاجة الأب ومن ظروف وفاته، لأنَّ الضابطَ الموقَّر أفرغَ أمعاءهُ وسط فناء الدار، وتبلّلَ جلبابُهُ الأبيضُ بالبراز.

في ذلك اليوم من أبريل 1947، ابتسم أمين لماتيلد واستعجل

---

(1) هكذا وردت الكلمة في النص الأصلي Chouafa، وهي كلمة بالدارجة المغربية تعني عرّافة. (المترجم)

السائسَ، الذي كان يحكُّ قدمَيه الوسختَين بعضهما ببعض. اشتدَّ القرويُّ في جَلْدِ البغل، فانتفضتْ ماتيلد. كان عنفُ القرويِّ يُغضِبُها. يُطقطِقُ لسانَهُ، «رّا»، وينزلُ بسوطِهِ على دُبر البهيمة النحيل. كان الوقت ربيعاً وماتيلد حاملاً في شهرها الثاني. وكانت الحقول مكسوة بأزهار الأذريون، ونباتات الخُبّاز، ولسان الثور. وتهبُّ رياحٌ منعشةٌ فتتمايلُ سيقانُ عبّاد الشمس. وعلى جانبَي الطريق توجد عقاراتُ المعمِّرين الفرنسيين، الذين استقرّوا هنا منذ عشرين أو ثلاثين عاماً، وتمتدُّ مزارعُهُم في انخفاضٍ خفيف إلى غاية الأُفُق. جاء أغلبُهم من الجزائر ومنحتهم السلطاتُ أخصبَ الأراضي وأرحبَها. مدَّ أمين ذراعَهُ ووضع يَدَهُ الثانية فوق جبهته ليحميَ عينيه من شمس الظهيرة ويتمكّنَ من تأمل المدى الواسع المترامي أمامه. أشار بسبّابته لزوجته إلى مَمَرٍّ يحُفُّهُ شجر السَّرو يحيطُ بملكية روجيه مارياني، الذي صنع ثروتَهُ من الخمر وتربية الخنازير. لم يكن في الإمكان رؤيةُ بيت المالك من الطريق، ولا حتى فدادين الكَرْم. غير أنَّ ماتيلد لم تكن تجد أيَّ صعوبة في أن تتخيَّلَ ثراءَ ذلك الفلّاح، ثراءً يملؤها أملاً في مستقبل أيامها. وكان المنظرُ، ذو الجمال الرائق، يُذَكِّرُها بصورةٍ معلَّقةٍ فوق البيانو، في بيت مُدَرِّسِ الموسيقى في ميلوز. تذكَّرت توضيحات هذا الأخير: «مشهد الصورة من توسكانا، آنستي، فقد تزورين إيطاليا ذات يوم».

توقف البغلُ وشرعَ في رعي العشب النَّابتِ على جانب الطريق. ولم يكن في نيّته بتاتاً أن يصعد المرتقى الذي كان يواجههم وتُغطِّيه أحجارٌ ضخمةٌ بيضاء. اشتدَّ غضبُ السائس فاستقامَ وأرهقَ البهيمةَ شتماً وضرباً. أحسَّتْ ماتيلد بالدموع تترقرقُ في عينيها، فحاولتْ أن تحبسها، والتصقتْ بزوجها الذي لم تُعجِبْهُ رقَّتُها.

«ماذا بكِ؟ سألها أمين.

- قلْ له أن يتوقف عن ضرب هذا البغل المسكين».

وضعتْ ماتيلد يدها على كتف القرويّ ونظرتْ إليه، مثل طفل يسعى إلى استرضاء قريبٍ غاضبٍ. غير أنَّ السّائسَ ضاعف من عنفه. بصق فوق الأرض، ورفع ذراعه قائلاً: «أترغبين في أن تُجرِّبي السوطَ أنتِ كذلك؟».

تغيَّر المزاجُ، والمنظَرُ كذلك. وصلوا إلى قمّةِ تلَّةٍ مكشوطةِ الجوانب. واختفت الورود، وأشجارُ السّرو. وحدها بعض أشجار الزيتون لا تزالُ تقاوم وسط الحجارة. كانت تلك التلة تبعَثُ إحساساً بالعُقم. لم نعد في توسكانا، قالت ماتيلد في نفسها، بل في الفارْ ويسْتْ[1]. ترجَّلا من العربة ومشيا إلى غاية بنايةٍ صغيرةٍ بيضاء عارية من كلِّ مسحة سحرٍ أو جمال، وليس لها من سقفٍ سوى قطعة صفيح خشنة. لم يكن بيتاً، بل مجرّد متتالية من حجرات صغيرة الحجم، مظلمةٍ ورطبة. لم تكن تسمحُ النافذةُ الوحيدةُ، الموجودةُ في أعلى الجدار منعاً لاقتحام الأشرار، بمرور سوى قدرٍ ضئيلٍ من النور. لاحظتْ ماتيلد بُقَعاً واسعةً خضراء فوق الجدران بسبب الأمطار الأخيرة. كان المستأجر السابق يعيش وحيداً؛ عادتْ زوجتُهُ إلى مدينة نيمْ عندما فقدتْ طفلاً، ولم يُفكِّرْ أبداً في أن يجعل من هذه البناية مكاناً دافئاً، يصلح لاحتضان أسرة. وأحسَّتْ ماتيلد بالتجمُّد، على الرغم من عذوبة الجوّ. وكانت المشاريعُ التي يعرضُها عليها أمين تملأها قلقاً.

*

(1) بالإنجليزية في النصّ الأصلي Far west. (المترجم)

كان قد استبدَّ بها الاضطرابُ نفسُهُ عندما حطَّتْ بها الطائرةُ في الرباط، فاتح مارس 1946، حيث انتابها الخوفُ، على الرغم من السماء الأبدية الزرقة، وابتهاجها بالالتحاق بزوجها، واعتزازها بانفلاتها من قَدَرها. استغرقَ سفرُها يومَين. من ستراسبورغ إلى باريس، ومن باريس إلى مارسيليا، ثم من مارسيليا إلى الجزائر، حيث امتطتْ طائرةَ يونكرز قديمة وظنَّتْ أنها ستموت. حبستْ صرخاتها بصعوبة، وهي تجلس على كرسيٍّ غير مريح، وسط رجالٍ ذوي نظراتٍ هَدَّتْها سنواتُ الحرب. بكتْ أثناء الرحلة، وتقيَّأَتْ، وتضرَّعَتْ إلى الله. وامتزج في فمها مذاقُ المرارة بمذاق الملح. إنَّ ما كان يُحزِنُها، ليس أن تموت فوق أفريقيا، بل فكرةُ أن تظهر فوق رصيف المطار، حيث ينتظرها رجلُ حياتها، وعليها فستانٌ مجعَّدٌ لطَّخَهُ القيء. وأخيراً حطَّتْ سالمةً، وكان أمين في انتظارها، كأجمل ما يكون، تحت تلك السماء العميقة الزرقة كأنها غُسِلَتْ بماء. قبَّلَها زوجُها على خدَّيها، محترِساً من نظرات المسافرين الآخرين. وأمسكَ بذراعها الأيمن بطريقة تجمع بين الشهوانية والتهديد، كأنه يريدُ أن يسيطر عليها.

ركبا سيارة أجرة والتصقتْ ماتيلد بجسد أمين، فلمستْ فيه جموحَ الرغبة، والظَّمأَ إليها. «سنقضي الليلةَ في الفندق هذا المساء»، قال موجِّهاً كلامه إلى السائق، ثم أضاف، كأنه يريد أن يُثبِتَ حسن أخلاقه: «هذه زوجتي. جاءتْ لتلتحق بي». كانت الرباطُ مدينةً صغيرةً، بيضاءَ ومُشمِسةً، أدهشَتْ أناقتُها ماتيلد. تأمَّلتْ بانتشاء واجهاتِ العمارات من طراز آرت ديكو، الموجودة في وسط المدينة، وألصقتْ أنفها بالنافذة كي تتملّى بشكل أفضل تلك النساء الجميلات اللواتي كنَّ ينزلن شارع ليوطي، وهنَّ يرتدين قفازاتٍ

تُشاكِلُ أحذيتَهُنَّ وقبّعاتِهِنَّ. تنتشرُ الأشغالُ، والعماراتُ في طور البناء، في كلِّ مكان، ويقفُ أمامها رجالٌ بأسمال بالية يطلبون العمل. وهناك تسيرُ راهباتٌ إلى جانب بدويّتَين، تحملان على ظهريهما حزمتَي حطب. وتضحكُ طفلةٌ صغيرةٌ، قُصَّ شعرُها مثل الأولاد، وهي تركبُ حماراً يجُرُّهُ رجلٌ أسود. استنشقت ماتيلد لأول مرة في حياتها ريحَ المحيط الأطلسيِّ المالحة. وانخفض الضوءُ، فمالَ إلى الورديِّ وإلى النعومة. وأحسَّتْ بالنعاس يغالبها، فهمَّتْ أن تضع رأسها على كتف زوجها، إذا به يُخبرُها أنهما قد وصلا إلى الفندق.

لم يغادرا الغرفةَ مدَّةَ يومَين. رفضتْ، وهي الولوعةُ بالآخرين وبالخارج، أن تُشرعَ النوافذ. لم تكِلَّ من يدَي أمين، ومن فمه، ومن رائحة بشرته، وهي تُدرِكُ اليومَ أنه أمرٌ يرتبط بجوِّ هذا البلد. كان يمارسُ عليها سحراً حقيقيّاً وكانت تتوسَّلُ إليه أن يضمّها أطول مدة ممكنة، حتى في أثناء النوم.

كانت أمُّ ماتيلد تقول إن المعاناة والخجل هما اللذان يؤجِّجان فينا ذكرى حيوانيّتنا. لكن لم يُحدِّثها أحدٌ من قبل عن هذه اللذّة. كانت ماتيلد، خلال الحرب، في أمسيات الكآبة والحزن، تنعزل لوحدها في غرفتها. فعندما كانت تنطلقُ صفّاراتُ الإنذار معلنةً القنابلَ، وعندما كان يصلُ أزيزُ طائرة، كانت ماتيلد تهرعُ ليس لإنقاذ حياتها، ولكن لتُشبعَ رغبتَها. كلما شعرت بالخوف، تصعدُ إلى غرفتها التي لم يكن بابُها يُقفَلُ، لكنها لم تكن تبالي بأن يُكتَشَفَ أمرُها. وفي كلِّ الأحوال، كان الآخرون يُفضِّلون البقاء مجتمعين داخل الحُفر أو في الدهاليز، يريدون أن يموتوا جماعةً، مثل الحيوانات. كانت تتمدَّدُ فوق سريرها المتجمّد وتُفكِّرُ، مستلقِيَةً فوق

أغطية وسخة، في أولئك الرجال الذين كانوا يذرعون السهولَ، مسلَّحين ببنادقهم، رجال محرومين من النساء مثلما هي محرومة من الرجل. كانت فكرةُ ذلك الفجور اللامتناهي تلقي بها في غمار حال انجذاب عميق. كان الخوف واللذة، بالنسبة إليها، يمتزجان، وكلما أحسّتْ بالخطر كانت تلك أول فكرة تخطر ببالها.

كاد أمين، بعد انصرام نهارَين وليلتَين، وقد غلبه الجوعُ والعطشُ، أن يجرَّها جرّاً من الفراش، كي تقبل بالجلوس إلى مائدة الطعام في شرفة الفندق. ولم تفتأ، حتى وهي ترشف من الخمر التي تدفئ قلبَها، تُفكِّرُ في أنَّ أميناً سيداعبها بعد قليل. غير أنَّ زوجَها كان قد اتَّخذَ مظهر الجِدِّ. افترسَ نصفَ دجاجة بيديه، وأرادَ أن يتحدث حول المستقبل. لم يصعد معها إلى الغرفة، واستاء عندما اقترحتْ عليه أن يناما القيلولة. غاب عنها مرّاتٍ عديدةً ليُجريَ مكالماتٍ هاتفية. وعندما سألتْهُ عمّن يكلِّمُ ومتى سيغادران الرباطَ والفندق، ظلَّ جوابُهُ مُبْهَماً. «كلُّ شيء سيكون على ما يُرام، كان يقول لها. سأُرَتِّبُ جميعَ الأمور».

انصرمَ أسبوعٌ، وبينما كانت ماتيلد قد قضتْ ما بعد الظهيرة وحيدةً، دخل أمين الغرفةَ، غاضباً، ممتعِضاً. غمرَتْهُ ماتيلد بمداعباتها، وجلستْ فوق ركبتيه. غمسَ شفتيه في كأس الجعّة التي قدَّمَتْها له، وقال: «لديَّ خبرٌ سيّئ. سيتوجّب علينا أن ننتظر بضعة شهور لنستقرَّ في بيتنا. تحدَّثْتُ إلى المستأجر وهو يرفضُ مغادرة الضيعة قبل انتهاء مدّة الإيجار. حاولتُ أن أجد شقّةً في مدينة مكناس، لكن لا يزال بها الكثير من اللّاجئين، ولا بيتَ للإيجار بثمن معقول». كانت ماتيلد ذاهلة.

«ماذا سنفعلُ إذاً؟

مكتبة
t.me/t_pdf

- سنذهبُ للعيش عند والدتي في انتظار أن يُفرج الأمر».

انتفضتْ ماتيلد واقفةً وأخذت تضحك.

«لستَ جاداً فيما تقول؟» فالظاهرُ أنَّ الوضعَ كان يبدو لها مضحكاً، وغاية في الهزل. كيف لرجلٍ مثل أمين، رجل قادر على أن يأخذها مثلما فعلَ هذه الليلة، أن يُقْنِعَها بأنهما سيعيشان في بيت والدته؟

لكن أمين لم يستطب المزحة. ظلَّ جالساً، حتى لا يتحمَّل فرقَ القامة بينه وبين زوجته. قال مؤكِّداً بصوتٍ جامدٍ، وعيناهُ لا تفارقان أرضية الغرانيت:

«هنا، هكذا تسيرُ الأمور».

تلك جملةٌ، ستسمعُها كثيراً. وفي تلك اللحظة بالذات، أدركَتْ أنها غريبةٌ، امرأةٌ، زوجةٌ، كائنٌ تحت تصرُّف الآخرين. كان أمين فوق أرضه الآن، كان هو من يُفسِّرُ القواعد، ومن يُحدِّدُ طريقَ السير، ومن يرسمُ حدودَ الحياء، والخجل، وحسن السلوك. في الألزاس، خلال الحرب، كان غريباً، رجلاً عابراً، ينبغي له أن يلتزم التكتُّمَ. عندما التقتْهُ أثناء خريف 1944 عملتْ معه مُرشِدَةً وحاميةً. كانت كتيبة أمين مستقرَّةً في قريتها بعيداً ببضع كيلومترات عن مدينة ميلوز، وكان عليهم أن ينتظروا أياماً وصولَ أوامر بالتقدُّمِ نحو الشرق. كانت ماتيلد أكبر الفتيات اللواتي أحطن بسيارة الجيب يوم وصولهم. ذات كتفَين واسعتَين وربلتَي شابٍّ صغير. ونظرتُها خضراء خضرةَ مياه سواقي مكناس، ولم تُزِحْ عينَيها عن أمين. رافقتهُ للتنزُّه، مدَّةَ الأسبوع الطويل الذي قضاه في القرية، وقدَّمتْ إليه أصدقاءها، وعلَّمَتْهُ ألعابَ الورق. كان بالتأكيد أقصر منها بحجم رأسٍ، ولديه بشرة داكنة اللون، كأشدِّ ما يمكن للمرء أن يتخيَّلَ بشرةً داكنة. وكان

فائق الجمال لدرجة أنها كانت تخشى أن يُخْطَفَ منها. وتخشى أن يكون مجرَّدَ وهمٍ. لم تشعر بهذا أبداً من قبل. لم تشعر به مع مدرِّس البيانو وهي في الرابعة عشرة، ولا مع ابن خالتها ألان الذي كان يسرقُ الكرزَ من أجلها على ضفة نهر الراين. غير أنها، وقد وصلتْ إلى هنا، تُحِسُّ أنها بلا حول ولا قوة.

*

بعد ثلاثة أيامٍ، صعدا على متن شاحنةٍ قَبِلَ سائقُها أن يقودهما إلى مكناس. كانت ماتيلد متضايقةً من رائحة السائق ومن حالة الطريق المزرية. واضطروا للتوقف مرّتين على جانب خندقٍ كي تتمكَّنَ من التقيُّؤ. غشيَتْها الكآبةُ، شاحبةً ومُرهَقَةً، وعيناها لا تفارقان منظراً طبيعياً لا تجدُ له لا معنى ولا جمالاً. «أرجو ألّا يُعاديني هذا البلد، قالت في نفسها. أيمكنُني أن أعتاد يوماً ما على هذا العالم؟». عندما وصلوا إلى مكناس، كان الليل قد نزل، ومطرٌ كثيفٌ وباردٌ يرتطِمُ بزجاج الشاحنة الأمامي. «الوقتُ متأخِّرٌ، لن أستطيع أن أُقدِّمكِ إلى أمّي، شرح لها أمين الوضعَ، سننامُ في الفندق».

بدتْ لها المدينةُ سوداء وعدائية. فَسَّرَ لها أمين طوبوغرافية المدينة التي كانت تستجيبُ للمبادئ التي أَرْساها المارشال ليوطي عند بداية عهد الحماية. فصلٌ صارمٌ بين المدينة العتيقة، التي كان ينبغي الحفاظُ على عاداتها المتوارَثة عن الأسلاف، والمدينة الأوروبية، التي كانت شوارعُها تحمل أسماء مدنٍ فرنسية ويُرادُ لها أن تكون مختبراً للحداثة. أنزلتْهما الشاحنةُ في الجهة السُّفلى، على الضفة اليسرى لوادي بوفكران، عند مدخل المدينة الأهلية حيث

تسكُنُ أسرةُ أمين، في حيٍّ برّيمة، أمام حيّ الملّاح تماماً. ركبا سيارة أجرة لينتقلا إلى الضفة الأخرى من النهر. سلكا طريقاً طويلاً صاعداً، ومرّا بجانب ملاعب رياضية، وعبرا ضرباً من منطقة عازلة، أرض خلاء تفصلُ المدينة إلى قسمَين ويُحظَر فيها البناءُ. دلَّها أمين على معسكر بوبلان، القاعدة العسكرية التي تُشرِفُ على المدينة العربية وتراقبُ أدنى خلجاتها.

أقاما في فندقٍ لائقٍ وتفحَّصَ المكلَّفُ بالاستقبال، بحرصِ الموظَّف، أوراقَهُما وعقدَ زواجهما. وكاد شجارٌ يشتعل في السُّلَّم الذي يُفضي إلى غرفتهما، لأنَّ خادم الطابق كان يُصِرُّ على أن يخاطِبَ أميناً بالعربية بينما كان هو يُكلِّمُهُ بالفرنسية. وألقى المراهِقُ على ماتيلد نظراتٍ مريبةً. كان يتوجَّبُ عليه أن يُدلِيَ للسلطات بورقة صغيرة ليُثبِتَ حقَّهُ في أن يسير ليلاً في شوارع المدينة الجديدة، ومع ذلك يحقد على أمين لأنه ينام مع العدوّة ويتنقَّلُ بحريّة. ما أن وضعا حقائبهما في غرفتهما حتى ارتدى أمين معطفه وقبّعتَهُ من جديد. «سأذهبُ للسلام على أسرتي. لن أتأخّر». لم يُمهِلها وقتاً لتجيبه، وصفقَ البابَ، وسمعَتْهُ ينزلُ جرياً أدراجَ السُّلَّم.

جلستْ ماتيلد فوق السرير، وقد جمعَتْ رجليها إلى جذعها. ما الذي تفعلُهُ هنا؟ لا تستطيعُ أن تلوم سوى نفسها وغرورها. هي التي أرادتْ أن تعيش المغامرةَ، وحشرتْ نفسَها، بتبجُّحٍ، في هذا الزواج الذي حسدَتْها صديقاتُ طفولتها على غرابته. والآن، يمكن أن تصير موضوعَ كلِّ سخرية، وكلِّ خيانة. قد يكون أمين ذهب ليلتحق بعشيقةٍ؟ بل قد يكون متزوّجاً، فقد أخبرها والدُها بنوع من الحرج أن الرجال هنا يتزوجون أكثر من امرأة؟ وقد يكون منهمكاً في لعبِ الورق في حانة صغيرة على بُعد خطواتٍ من هنا، مبتهِجاً أمام

أصدقائه بتخلُّصِهِ من صحبة زوجته الثقيلة. أجهشتْ بالبكاء. كانت تخجل من الاستسلام للذُّعر، غير أنَّ الليل قد أرخى سدولَهُ، ولم تكن تدري أين هي. إن لم يعدْ أمين، فستكون ضائعة تماماً، دون مالٍ، ولا صديق. لم تكن تعرفُ حتى اسم الشارع الذي يسكنون فيه.

عندما رجعَ أمين، قبل منتصف الليل بقليل، كانت تقفُ هناك، شعثاءَ، ووجهُها مُحْمَرٌّ ومتفسِّخٌ. تأخّرتْ في فتح الباب، وكانت ترتعد، فظنَّ أنَّ أمراً ما قد وقع. ارتمتْ بين ذراعَيه وحاولتْ أن تشرحَ لهُ خوفَها، وشوقَها، والقلقَ المجنونَ الذي استبدَّ بها. لم يفهم، وبدا له جسدُ زوجته المتعلِّقة به ثقيلاً بنحو مريع. جذبها نحو السرير، وجلسا جنباً إلى جنب. كان عنق أمين مُبَلَّلاً بالدموع. هدأتْ ماتيلد، واطمأنَّ تنفُّسُها، وشهقت بضعَ شهقاتٍ فمدَّ إليها أمين منديلاً كان يُخفيه في كمِّهِ. داعبَ ظهرها برفق وقال لها: «لا تتصرَّفي مثل طفلة صغيرة. أنتِ الآنَ زوجتي. وحياتُكِ هنا معي».

وبعد انصرام يومَين، استقرَّا في بيتٍ بريّمة. تعلَّقَتْ ماتيلد بذراع زوجها، وهما يسيران في أزقة المدينة الضيّقة، تخاف أن تضيعَ داخل تلك المتاهة حيث تزدحِمُ حشودُ التجّار، ويصيحُ بائعو الخضروات بنداءاتهم. كانت الأسرةُ في انتظارهما خلفَ بابِ البيت الثقيل المُسَمَّر. كانت الأمُّ، مِّي لالَّة، تقفُ وسطَ الفِناء. ترتدي قفطاناً أنيقاً من حرير، وقد غطَّتْ شَعرها بوشاح أخضر بلون الزمرُّد. وكانت قد أخرجت، خصّيصاً لتلك المناسبة، حليَها الذهبيَّ القديم، من صندوق عتيق مصنوع من الأرز؛ خلاخيل، ومشبكاً منقوشاً، وعقداً يرزحُ جسدُها النحيلُ من ثقله. وعندما دخل الزوجان ارتمتْ على ابنها وباركَتْهُ. وابتسَمَتْ لماتيلد التي أمسكَتْها من يديها وتأمَّلَتْ

ذلك الوجهَ الجميل الأسمر، وذَيْنِ الخدَّين المشربين بالحمرة. «تقولُ مرحباً بكِ»، ترجمتْ سلمى، الشقيقةُ الصغرى التي احتفلتْ مؤخَّراً بعامها التاسع. كانت تقفُ أمام عمر، مراهق نحيل وصموت، ظلَّ محتفِظاً بيديه خلف ظهره وعيناه مغضوضتان.

اضطرَّتْ ماتيلد إلى أن تتعوَّد على العيش المشتَرَك في ذلك البيت، حيث اللُّحُفُ يغزوها البَقُّ والهوامُّ، وحيث لا يستطيعُ المرءُ أن يتفادى أصواتَ الجسد والشخير. كانت شقيقةُ زوجها تقتحم عليها غرفتَها دون استئذان وتستلقي فوق سريرها وهي تُرَدِّدُ الكلمات الفرنسيةَ القليلةَ التي تعلَّمَتْها في المدرسة. وكانت ماتيلد تسمع، في الليل، صرخات جليل، الشقيق الأصغر، الذي كان يعيش محبوساً في الطابق العُلويِّ، لا رفيق له سوى مرآةٍ لا تغيبُ أبداً عن ناظريه. كان يُدمِنُ تدخين السّبسي، فتنتشرُ رائحةُ الكِيف في الممرِّ وتُدَوِّخُها. وكانت جحافلُ القِطط تظلُّ طوال النهار تَجُرُّ ظلالَها النحيلةَ في الحديقة الداخلية، حيث كانت شجرةُ موز، يغطِّيها الغبارُ، تُقاوِمُ من أجل البقاء. وفي وسط الفِناء حُفِرَت بئرٌ تستقي منها الخادمةُ، وهي أَمَةٌ سابقة، الماءَ من أجل أشغال البيت. أخبرها أمين أنَّ ياسمين أصلُها من أفريقيا، ربما من غانا، اشتراها قدُّور بلحاج لزوجته من سوق مراكش.

كانت ماتيلد تكذبُ في الرسائل التي تكتبها لشقيقتها. كانت تدَّعي أنَّ حياتَها تُشبِهُ روايات كارين بليكسن، وألكسندرا ديفيد-نيل، وبيرل باك. كانت تختلق، في كل رسالة، مغامراتٍ تُصوِّرُ علاقاتها بالسكّان الأهليين اللطفاء والمؤمنين بالخرافات. تصفُ نفسَها، وهي تنتعلُ حذاء طويلاً وتعتمرُ قبَّعةً، وتمتطي بجلالٍ متنَ جوادٍ عربيٍّ أصيل. تريد بذلك أن تثير غيرةَ إيرين، وأن تُعَذِّبَها كلُّ كلمةٍ، وأن تموتَ حسداً، وأن يُصيبَها السُّعار. كانت ماتيلد تثأرُ من تلك الشقيقة الكبرى السلطوية والصارمة، التي عاملتْها طوال حياتها معاملة طفلة، وكانت تستلذُّ إهانتَها علانية. «ماتيلد الحمقاء»، «ماتيلد الطائشة»، كانت تقول إيرين بلا حنان ولا رأفة. اعتقدت ماتيلد دائماً أنَّ شقيقتها فشلتْ في فهمها واعتقَلَتْها حبيسةَ عاطفة مستبِدَّةٍ.

عندما سافرتْ نحو المغرب، وهجرتْ قريتهم، وجيرانهم، والمستقبلَ الذي كان ينتظرها هناك، شعرتْ ماتيلد في البداية بزهو النَّصر، وكتبتْ رسائلَ ملؤها الحماسُ، تصفُ فيها حياتَها في بيتِ المدينة العتيقة. تُطيلُ الحديثَ عن لُغز أزقّةِ برّيمة، وتبالِغُ في وصف وسخ الشوارع، وأصوات الحمير وروائحها وهي تنقلُ الناسَ والسِّلَعَ. وعثرتْ، بفضل إحدى راهبات المدرسة الداخلية، على

كتابٍ صغيرٍ حول مكناس توجدُ به رسوماتٌ لديلاكروا. وضعت الكتابَ، المصفرَّة أوراقُهُ، فوق منضدة الليل، عازمةً على أن تستوحيَ ما فيه. حفظتْ عن ظهر قلب مقاطعَ من كلام بيير لوتي، كانت تجدُها بالغةَ الشاعرية، ويغلبُها الانبهارُ عندما تفكِّرُ في أنَّ الكاتبَ قد نامَ على بعد كيلومتراتٍ معدودة ووضعَ نظرهُ على الأسوار وحوض أكدال.

حكتْ عن الطرّازين، والنحّاسين، وخرّاطي الخشب الجالسين القرفصاء داخل محلّاتهم المحفورة تحت سطح الأرض. وحكت عن مواكب الزوايا في ساحة الهديم، ومعرض قارئات الفأل والمعالجين الشعبيين. ووصفتْ، في رسالة من رسائلها، على مدى يقاربُ الصفحةَ، مَحَلَّ مجَبِّر العظام الذي يبيعُ جماجمَ الضِّباعِ، والغربانَ المتيبِّسة، وأقدام القنافذ، وسُمَّ الثعبان. فكَّرتْ في أنَّ ذلك سيكون له الأثرُ البليغُ على إيرين وعلى أبيها جورج، وأنهما سيحسدانها، وهما متدثِّران في فراشهما، في الطابق العلويِّ من بيتهم البورجوازي، على أنها ضحَّتْ بحياة المَلل من أجل المغامرة، وبالرفاهية من أجل حياة الرومانسية.

كان المنظرُ كلُّهُ غيرَ متوقَّع، مخالفاً لما عرفَتْهُ من قبل. كانت تحتاج إلى كلماتٍ جديدة، إلى معجمٍ مُحَرَّرٍ من الماضي للتعبير عن المشاعر، وعن الضوء الشديد الذي يُلزِمُ المرءَ أن يعيش مُضَيِّقاً عينيه، ولتصِفَ الذهولَ الذي كان يعتريها، يوماً بعد يوم، أمام كلِّ تلك الغرابة وذلك الجمال. لا شيء كان معهوداً لديها، لا لون الأشجار، ولا لون السماء، ولا حتى المذاق الذي كانت الريح تُخلِّفُهُ فوق اللِّسان والشفتَين. كلُّ شيء كان قد تغيَّر.

قضتْ ماتيلد، في الشهور الأولى، وقتاً طويلاً خلف المكتب

الصغير الذي وضعَتْهُ حماتُها في غرفتهما. وكانت العجوزُ تخصُّها بإكرامٍ مُؤَثِّرٍ، فقد كانت مِّي لالَّة، لأول مرة في حياتها، تُشاركُها في بيتها امرأةٌ متعلِّمةٌ، وكانت تشعرُ بعظيم الإعجاب نحو كَنَّتِها إذ تراها مُكِبَّةً على ورق رسائلها البُنِيِّ. ومن ثَمَّ حظرَتْ على الجميع إصدارَ أيِّ ضوضاء في المَمَرّات، وأرغمتْ سلمى على ألّا تَعْدُوَ بين الطابقَين. وكانت ترفضُ أيضاً أن تقضيَ ماتيلد نهارَها في المطبخ، لاعتقادها أنَّه ليس بالمكان الملائم لأوروبيةٍ قادرةٍ على قراءة الجرائد وتصفُّحِ رواية. فكانت ماتيلد تغلق عليها بابَ غرفتها وتشرع في الكتابة. ولم تكن تجد في ذلك كبيرَ متعةٍ، لأنها كلما رامتْ وصفَ منظرٍ أو الحديثَ عن مشهدٍ معيشٍ، ألفَتْ معجَمَها مقصِّراً. لا تفتأ تصطدِمُ بالكلمات نفسها، ثقيلة ومُضجِرة، فكانت تُدرِكُ، بنوع من الغموض، أنَّ اللغة حقلٌ هائلٌ، وملعبٌ بلا حدود، يصيبُها بالخوف والذهول. ما أكثر ما كان يمكن قولُهُ، ووِدَّتْ لو أنها موباسان لتصفَ اللونَ الأصفر الذي يغطّي جدرانَ المدينة العتيقة، ولتُضفيَ الحياةَ على شغب الأولاد الصِّغار الذين كانوا يلعبون في الشوارع حيث تمرقُ النساءُ كالأشباح، متلفِّعاتٍ بالحايِكِ الأبيض. فكانت تستدعي معجماً غريباً، لم تكن تشكُّ في أنه سيُعجِبُ والدَها، فتتحدَّثُ عن «الغزوة» و«الفلاح» و«الجِنّ» و«الزليج»[1] بمختلف ألوانه.

غير أنَّها إنما كانت تودُّ ألا يُعرقِلَ تعبيرَها حاجزٌ أو قيدٌ، أن تتمكن من أن تقول الأشياءَ مثلما تراها. أن تصف الصِّبْيانَ ذوي

(1) تردُ هذه الكلمات العربية في النصّ الأصلي مكتوبة بالحروف اللاتينية: Razzia، Fellah، Djinn، Zellige. (المترجم)

الرؤوس الحليقة بسبب داء السعفة، كلّ أولئك الأولاد الذين يذرعون الشوارعَ جرياً، وهم يصيحون ويلعبون، فإذا مَرَّتْ بهم تلفَّتوا إليها، وتوقَّفوا، وتفحَّصوها بنظرةٍ قاتمة، أكبر من سِنِّهم. وارتكبتْ، ذات يوم، حماقةَ أنْ دسَّتْ قطعةَ نقدٍ في يد طفل يرتدي سروالاً قصيراً، لمّا يبلغ الخامسة من عمره، ويعتمرُ طربوشاً أوسعَ من رأسه. لم يكن أكبر من أكياس الخيش المليئة بالعدس أو بدقيق السميد التي كان يضعها البقّالُ أمام بابه وكانت ماتيلد دائماً تحلُمُ بأن تغوصَ فيها بيديها. «ابتعْ لنفسكَ كُرَةً»، قالت له، وأحسّتْ بذاتها تمتلئُ اعتزازاً وسروراً. غير أنَّ الصغير أرسلَ صيحةً، فإذا بأطفال يطلعون من جميع الأزقة المتاخمة وارتموا على ماتيلد مثل سربِ حشرات. كانوا يتوسلون باسم الله، ويقولون كلمات بالفرنسية، لكنها لم تكن تفهم عنهم شيئاً، واضطرّتْ إلى أن تجريَ تحت أنظار المارَّة الساخرة الذين كانوا يقولون في أنفسهم: «سيُعَلِّمُها هذا ألّا ترتكب حماقة التصدّق مرة أخرى». كانت تَوَدُّ أن تراقب تلك الحياةَ العظيمةَ عن بُعد، وأن تظلَّ هي غير مرئية. كانت قامتُها الكبيرة، وبياضُ بشرتها، ووضعُها باعتبارها غريبة، يُبقيها معزولةً عن قلب الأمور، وعن ذلك الصمت الذي يجعل المرء يشعُرُ أنه في بلده. كانت تذوقُ رائحةَ الجلد داخل ضيق الأزقة، ورائحة نار الحطب واللَّحم الطريّ، ورائحة امتزاج الماء الآسن بالكمّثرى البالغ النضج، وروث الحمير، ونشارة الخشب. لكنها لم تكن تجد كلماتٍ من أجل ذلك.

وكانت ماتيلد، عندما تكلُّ من الكتابة أو من إعادة قراءة رواياتٍ تعرفُها عن ظهر قلب، تتمدَّدُ فوق السطح حيث كانت تُغسَلُ الملابسُ ويُنشَرُ اللحمُ ليجفَّ. تُنصتُ لمحاورات الشارع، وأغاني النساء في تلك الكواليس المخصَّصة لهنّ. كانت تَراهُنَّ، وهنّ يقفزنَ

أحياناً كالبهلوان من سطحٍ إلى آخر تكادُ تُدَقُّ أعناقُهُنَّ. كانت الفتياتُ، والخادماتُ، والزوجاتُ، يصحن، ويرقصن، ويتناقلن أسرارهنَّ فوق تلك السطوح التي لم يكنَّ يغادرنها إلّا عند الليل أو عند منتصف النهار، لمّا يشتدُّ وقعُ أشعة الشمس. كانت ماتليد تُردِّدُ، محتَجِبَةً خلفَ سورٍ قصيرٍ، ما حفِظَتْهُ من شتائم قليلة، لتُحسِّنَ من نطقها، فيردُّ عليها المارّةُ شتائمَها وهم يتطلَّعون جهتها. «الله يعطيك التّيفوس!»، لا بدَّ أنهم كانوا يحسبونها ولداً صغيراً يسخر منهم، عفريتاً سئمَ من ملازمة أُمِّهِ. كان سمعُها في حالة استنفارٍ دائمة، فاستوعبتْ المعجمَ بسرعة أذهلتِ الجميعَ. «حتى البارحة لم تكن تفهم شيئاً!» هكذا عبَّرتْ مِّي لالَّة عن دهشتها، ومنذئذ أخذ الجميع ينتبهون إلى ما يقولونه في حضورها.

إنما تعلّمتْ ماتيلد العربيةَ في المطبخ، حيث تمكَّنَتْ، بمرور الوقت، من أن تفرضَ حضورَها، وقبلتْ مِّي لالَّة أن تسمح لها بالجلوس لتشاهد. كنَّ يغمزنها بأعينهنّ، ويبتسمن لها، ويغنّين. تعلَّمتْ في البداية أن تقول طماطم، زيت، ماء، خبز. وتعلّمتِ الحارّ والبارد، ومعجم البهارات، ثم جاء دورُ معجم المناخ: جفاف، مطر، صقيع، رياح دافئة، وحتى عاصفة رمالٍ. وبهذا المعجم استطاعت أن تقول الجسدَ كذلك، وأن تتحدَّثَ عن الحُبّ. وكانت سلمى، التي تتعلم الفرنسية في المدرسة، تقومُ منها مقامَ المترجِمة. وكانت ماتيلد، كلما نزلتْ من غرفتها لتناول الفطور، وجدتْ سلمى نائمةً فوق كرسيٍّ من كراسي الصّالة، فكانت تُؤنِّبُ مِّي لالَّة التي لم يكن يهمُّها تعلُّمُ ابنتها، ولا حصولُها على علامات جيّدة، ولا مثابرتُها واجتهادُها في التحصيل. تتركُ الصغيرةَ تنامُ مثل

دُبٌّ ولا يطاوِعُها قلبُها في أن توقظَها باكراً لتذهب إلى المدرسة. حاولَتْ ماتيلد أن تُقنِعَ مِّي لالَّة بأنَّ سلمى يمكن أن تغنمَ بفضل التعليم استقلالَها وحريَّتَها. غير أنَّ العجوز عقدت حاجبَيها، وتجهَّمَ وجهُها الودودُ في العادة، واغتاظتْ من النصرانية[1] التي توجَّهَتْ إليها بالنصيحة. «لماذا تسمحين لها بعدم الذهاب إلى المدرسة؟ إنكِ تُعرِّضين مستقبلها للخطر»؟ عن أيِّ مستقبل يمكن أن تتحدَّثَ هذه النصرانية؟ تساءلتْ مِّي لالَّة. ما الضرر في أن تقضيَ سلمى نهارَها في البيت، تتعلَّمُ حشوَ الأمعاء ثم ترتقها بدل تسويد صفحات دفتر؟ كانت مِّي لالَّة قد رُزِقَتْ بأطفال كثيرين، وعانتْ معهم هموماً كثيرة. دفنتْ زوجَها والعديدَ من المواليد. وكانت سلمى هديَّتَها، وراحتَها، والفرصةَ الأخيرة التي تمنحها الحياةُ لتكون حنوناً ورحيمة.

وعندما حلَّ بهم أوَّلُ رمضان وهي في البيت، قررت ماتيلد أن تصوم هي كذلك، فشكرها زوجُها على انصياعها لتقاليدهم. وهكذا كانت تشرب، كلَّ مساء، الحريرةَ التي لم تكن تحبُّ طعمَها، وتستيقظُ قبل طلوع الشمس لتأكل تمراً وتشرب لبناً رائباً. لم تغادر مِّي لالَّة المطبخَ طوال الشهر المُعَظَّم، ولم تكن ماتيلد، وهي الأكولةُ الشَّرِهَةُ، تفهمُ كيف يستطيع المرءُ أن يَحرم نفسَهُ من الأكل وهو يقضي سحابة يومه بين روائح الطاجين والخبز. كانت النساء، من الفجر إلى نزول الليل، يلففن عجائن اللوز، ويغمسن الحلويات المقلية في العسل. ويدلكن العجينة المدهونة بالشحم ويُمَدِّدْنها إلى أن تصير في دقة ورق الرسائل. لا تخشى أيديهنّ لا البرودة ولا

(1) وردت الكلمة بالعربية في النصّ الأصلي مكتوبة بالحروف اللاتينية: Nassrania. (المترجم)

الحرارة، ويضعنَ أكُفَّهُنَّ مباشرة على الصفائح الحارقة. كان الصّومُ يجعلهنَّ شاحبات، فتتساءل ماتيلد عن سِرِّ قدرتهنّ على المقاومة، داخل ذلك المطبخ الشديد الحرِّ، حيث تتصاعد رائحةُ الحساء بكثافة تُدوِّخُ من تصلُ إليه. أما هي، فلم تكن تستطيع، أثناء فترة الحرمان في النهار، أن تفكِّر في أمرٍ آخر عدا ما ستأكُلُهُ عند غروب الشمس. كانت تلوكُ اللُّعاب في فمها، مغمضة العينَين، مستلقيةً فوق أرائك الصالة الرطبة. وتتخيَّلُ، لتقاوِمَ الصُّداعَ، قطعَ الخبز السخن، والبيضَ المقليَّ مع اللحم المقدَّد، وحلويات كعب الغزال المغموسةَ في الشاي.

فإذا ما أذَّنَ المؤذِّنُ وضعت النساءُ، فوق المائدة، غِرافاً من لبن، وبيضاً مسلوقاً، وسلطانيةَ الحساء الساخن، والتمرَ الذي كنَّ يُشَقِّقْنَهُ بأظفارهنَّ. وكانت مِّي لالَّة تهتمُّ بكلِّ واحد؛ فتحشو الرغائف باللَّحم وتُضيف الفلفلَ الحرّيفَ في تلك التي يتناولها ابنُها الأصغر الذي يحبُّ أن يشتعلَ لسانُهُ. وتعصر البرتقالَ لأمين الذي كانت صحّتُهُ تُقلِقُها. وتقفُ، عند عتبة الصالة، تنتظر أن يكسر الرجالُ، الذين لا تزال على وجوههم آثارُ القيلولة، الخبزَ، ويقشروا بيضة مسلوقة، ويتّكئوا على وسادة، لتنتقل أخيراً إلى المطبخ لتُفطر. لم تكن ماتيلد تفقهُ شيئاً في كلِّ ذلك. كانت تقول: «هذه عبودية! إنها تطبخ طوال النهار ويتوجبُ عليها فوق ذلك أن تنتظر إلى أن تأكلوا! لا أستطيع تصديق الأمر». كانت تحتجُّ أمام سلمى التي كانت تضحكُ جالسةً على حافة النافذة في المطبخ.

أطلقتْ صرخةَ غضبها في وجه أمين، وكرَّرَتْها بعد العيد الكبير، وهو العيد الذي أثار شِجاراً رهيباً. في المرة الأولى، ظلتْ ماتيلد صامتةً، كأنها قد تحجَّرَتْ بفعل مشهد الجزّارين بوزراتهم الملطخة

بالدماء. ظلت تتأمَّلُ، من فوق سطح البيت، أزقَّةَ المدينةِ العتيقةِ الصامتةَ حيث كانت تتنقَّلُ ظلالُ أولئك الجلّادين، ثم تلاهم الأولاد الصِّغارُ الذين كانوا يراوحون بين البيوت والفرن ذهاباً وإياباً. وتسيل جداولُ الدماء الساخنة والفوّارة من بيت إلى بيت. وتنتشر في الجوِّ رائحةُ اللحم الطريِّ، وتُنشَرُ لبدةُ الخروف، بواسطة خطّاف من حديد، على أبواب المساكن. «هذا يومٌ مناسبٌ لارتكاب جريمة قتل» قالت ماتيلد في نفسها. وكانت النسوة يعملن دون كلل فوق السطوح الأخرى، مجالهنّ المخصوص. يقطعن، ويُفرغن، ويسلخن، ويفصلن. وكنَّ يُغلقن عليهنّ بابَ المطبخ لتنظيف الأحشاء، وتخليص الأمعاء من رائحة الرّوث قبل أن يحشينها، ويخطنها، وينقعنها طويلاً في صلصة حارة. كان ينبغي فصل الشحم عن اللَّحم، وطهو رأس الخروف لأنَّ حتى عينيه سيأكلهما الابنُ البكرُ الذي سيغرسُ سبّابتَهُ في الجمجمة ويستخرج منها الكُرتَيْن اللامعتين. وعندما وقفتْ أمام أمين، معلنةً أنَّ هذا «عيد متوحّشين»، و«طقس أناسٍ قُساة»، وأنَّ اللحمَ الطَّريَّ والدَّمَ يصيبانها بالغثيان، رفعَ نحو السماء يَدَيْنِ مرتعدَتين وما أمسكَ نفسَهُ عن أن يهويَ بهما على فَمِ زوجته، إلّا لأنَّ ذلك اليوم كان يوماً مقدَّساً، من حقِّ الله عليه أن يكون فيه هادئاً ورحيماً.

*

كانت ماتيلد تطلبُ من إيرين، في ذيل كلِّ رسالة، أن تُرسِلَ إليها كتباً. روايات مغامرات، ومجموعات قصصية تجري أحداثُها في بلدان باردة ونائية. لم تعترف بأنها لم تعد تذهبُ إلى المكتبة، في قلب المدينة الأوروبية. كانت تمقتُ ذلك الحيَّ المليء بالثرثارات

من نساء المُعَمِّرين والعسكريين، وكانت تشعر أنها مستعدةٌ للقتل في تلك الشوارع حيث تحتفظُ بذكرياتٍ سيِّئة. ذات يومٍ من سبتمبر 1947، وقد مرَّ على حملها سبعةُ أشهر، وجدتْ نفسَها في بولڤار الجمهورية، والذي كان أغلب المكناسيين يكتفون بتسميته «البولڤار». كان الجوُّ حارّاً، ورجلاها متورِّمتين. كانت قد فكَّرتْ في الذهاب إلى سينما أَمبير أو أن تطلب بعض الانتعاش فوق شرفة مقهى «ملك الجعَّة». ودفعَتْها حينئذ شابّتان، وشرعتْ أكثرُهما سمرةً تضحكُ قائلة: «انظري إلى هذه. حبَّلَها عربيٌّ». استدارت ماتيلد وأمسكتْ بكمِّ الفتاة، غير أنها انتفضَتْ وتخلَّصتْ من قبضتها. لو لم يكن ذلك البطن، ولو لم تكن الحرارةُ شديدةَ الوطء، لكانت ماتيلد قد لحقتْ بها، ولكانت قد قضتْ عليها. كانت ستردُّ كلَّ ما تلَقَّتْهُ من ضرباتٍ أثناء حياتها. تحمَّلَتْ الصفعاتِ والعقوبات، فتاةً صغيرةً وقحةً، ومراهِقَةً شهوانيةً، وزوجةً غير مطيعةٍ، وعانتْ من سُعار أولئك الذين كانوا يريدون أن يصنعوا منها امرأةً محتَرَمَة. كانت تلكما الغريبتان ستدفعان ثمن ما كانت تعانيه ماتيلد من تدجين.

ولم يخطر ببال ماتيلد أبداً أنَّ إيرين أو جورج يمكنهما ألّا يصدّقا كلامها، أو أن يُقرِّرا المجيء لزيارتها. عندما استقرَّ بها المقامُ في المزرعة، في ربيع 1949، شعرت أنَّ في وسعها أن تختلقَ ما تشاء من أكاذيب حول حياة مالكة الأرض التي تدَّعي أنها تعيشها هناك. لم تعترف أنها صارت تحنُّ إلى حركة المدينة العتيقة، وأنَّ الاختلاط عن قرب، الذي طالما لعنَتْهُ، يبدو لها الآن معيشاً يُحسَدُ عليه. كثيراً ما كانت تكتبُ «وددتُ لو أنك تراني» ولم تكن تُدرِكُ أنَّ في تلك العبارة إقراراً بوحدتها الشديدة. كانت تحزنُ لكلِّ تلك المرّات الأولى التي لا تهمُّ أحداً سواها، ولذلك العيش الذي

لا يشهده أحد. ما جدوى الحياة، كانت تقول في نفسها، إن لم يشاهدها الآخرون؟

كانت تختمُ رسائلها بعبارة «أُحبُّكم»، أو «أشتاقُ إليكم»، لكنها لم تُعبِّر أبداً عن حنينها إلى بلدها. لم تستسلم لغواية الاعتراف بأنَّ تحليق طيور اللقلاق، التي تصل إلى مكناس عند بداية الشتاء، كان يُلقي بها في كآبة شديدة. لم يكن يشاركُها حُبَّ الحيوانات لا أمين ولا سكان المزرعة، وعندما استحضرتْ، ذات يوم، أمام زوجها، ذكرياتِها مع مينيه، هِرَّة طفولتها، رفعَ هذا الأخيرُ عينيه استغراباً لكلِّ ذلك التصنُّع. آوَتْ قططاً، استألفَتْها بالخبز المغموس في اللبن، وعندما كانت النساء البربريّاتُ ينظرن إليها، وهنّ يجدن أنَّ ذلك الخبز الذي تُقَدِّمُهُ للقطط إنما هو تبذيرٌ للطعام، فكانت تقول في نفسها: «ينبغي استدراك ما فاتَها من حُبٍّ، فقد ضاع منها الكثيرُ».

أيُّ نفعٍ كانت ستجني من قولها الحقيقةَ لإيرين؟ من أن تحكيَ لها كيف تقضي أيامَها في العمل، مثل مجنونة، أو مجذوبة، وهي تحملُ فوق ظهرها طفلَها ذا السنتَين؟ أيُّ شِعْرٍ يمكن أن تستخلصه من لياليها الطويلة التي كانت تقضيها وهي تُبلي إبهامَها بإبرةٍ كي تخيطَ لعائشة ثياباً تبدو قشيبةً؟ كانت تُفصِّلُ، على ضوء الشمعة، وهي تحسُّ بالغثيان من جرّاء رائحة الشمع الرخيص، سراويلَ قصيرةً من صوف، انطلاقاً من مجلّاتٍ قديمة. واقتعدتْ، أثناء شهر أغسطس الحارق، أرضيةَ الإسمنت، وليس عليها إلا ملابسها الداخلية، لتخيط لابنتها فستاناً من ثوب صوفيٍّ جميل. لم يرَ أحدٌ مدى جمال الفستان، ولم ينتبه أحدٌ إلى التفصيل الصغير في طيِّ الثوب، والعقدة فوق الجيبَين، والبطانة الحمراء التي ترفع الكلَّ. كانت لا مبالاةُ الناس تجاه جمال الأشياء تصيبُها في مقتل.

كان أمين لا يَظهر في حكاياتها إلّا لماماً. كان زوجُها شخصيةً ثانويةً يحوم حولها جوٌّ معتِمٌ. كانت تريد أن تخلق لدى إيرين الانطباعَ بأنَّ قصة حبِّهما بلغتْ أوجاً يستحيلُ عليها أن تشاركه الآخرين أو أن تُعبِّرَ عنه بكلمات. وكان صمتُها حافلاً بالإيماءات الشهوانية، وتوحي أنَّ ما تُغفِلُ ذِكْرَهُ مجرّدُ حياء، بل نوع من الكياسة. ذلك أنَّ إيرين، التي كانت وقعتْ في حُبِّ ألمانيٍّ مصاب بمرض الجنف، وتزوَّجَتْهُ قبيل الحرب، ترمَّلَتْ بعد ثلاثة أشهر فحسب. وعندما حلَّ أمين بالقرية، نظرتْ إيرين بعيون تطفح حسداً إلى شقيقتها التي ترتعش بين يدَي الأفريقي. ماتيلد الصغرى، التي كانت آثارُ القُبل السوداء تُغطّي عنقها.

كيف كان لها أن تعترف أنَّ الرجل الذي لقِيَتْهُ أثناء الحرب لم يعد هو الرجل نفسه؟ كان أمين قد تغيَّر وصار متجهِّماً. كم مرةً أحسَّتْ بنظرات المارة الثقيلة، وهي تسير إلى جانبه ممسكةً بذراعه؟ كانت ملامستُها بَشَرتَهُ تبدو لها حارقةً، وكريهةً، ولم تكن تستطيع أن تمتنع عن أن تُدرِكَ، بنوع من الاشمئزاز، مدى غرابَةِ زوجها. كانت تقول في نفسها إنها تحتاج إلى قدرٍ عظيمٍ من الحبِّ، أكثر ممّا يمكن أن تُطيق، لتتحمَّلَ احتقارَ الناس. كانت تحتاج إلى حُبٍّ متينٍ، وهائلٍ، وراسِخٍ لتستحمل الخجلَ عندما يخاطِبُهُ الفرنسيون دون احترامٍ، ويطلب منه رجالُ الشرطة وثائقَهُ، وعندما كانوا يعتذرون لمّا ينتبهون إلى ميدالياته الحربية أو إلى فرنسيته الرفيعة. «لكن الأمر يختلفُ بالنسبة إليكَ، يا عزيزي». فيبتسمُ أمين. كان يزعمُ، في العلن، أنه ليس لديه مشكل مع فرنسا بما أنه كاد أن يموت من أجلها. لكن ما أن يخلوا إلى بعضهما، حتى كان أمين ينغلق على نفسه في صمت، ويشرعُ في اجترار خجله من جبنه ومن خيانته

شعبه. كان يدخل إلى البيت، ويفتح الخزانات ويُلقي على الأرض بكل ما تقعُ عليه يدُهُ. وماتيلد بدورها كانت عصبيةً، فبينما كان، ذات يوم، وسطَ شِجارٍ، يصيحُ بها «اخرسي! أنتِ تجلبين لي العار!»، فتحت الثلاجةَ وأخذتْ إناءً مليئاً بالخوخ النّاضج، الذي كانت تعتزم أن تصنع منه مربّى، ورَمَتْ أميناً في وجهه بتلك الفواكه، دون أن تنتبه إلى أن عائشة كانت تراقبهما، غير مُصدِّقةٍ أن ترى أباها على تلك الحال، يسيلُ العصيرُ من شعره وعنقه.

لم يكن أمين يحدِّثها إلّا عن العمل. عن العمّال، والمشاكل، وثمن القمح، وتوقعات الأحوال الجويّة. وعندما كان يزورهم في البيت أفرادٌ من الأسرة، كانوا يجلسون في الصالة الصغيرة، وبعد أن يسألوا ثلاث أو أربع مرّاتٍ عن صحَّتها، يصمتون ويشربون الشاي. كانت ماتيلد تجدهم جميعاً في قمة الوضاعة، ويتّصفون بابتذال يوجِعُها أكثر من الحنين إلى الوطن ومن الوحدة. كانت تودُّ أن تتحدَّثَ عن مشاعرها، وعن آمالها، وعن القلق الذي يعتريها والذي لم يكن ذا معنى، مثل كلِّ قلق. «ألا يملكُ حياةً داخليةً؟» تتساءلُ وهي تراقب أميناً المنهمِكَ في الأكل، في صمتٍ، وهو لا يرفع عينَيه عن طاجين الحمّص الذي طبختْهُ الخادمةُ، والذي كان مرقُهُ شديد الدّسم يثيرُ غثيانَ ماتيلد. لم يكن أمين يهتمُّ سوى بالمزرعة وبالعمل. لا ضحك أبداً، ولا رقص، ولا وقت للجلوس دون عمل، للحديث. لا يتحدَّثون هنا. كان زوجُها لا يقلُّ تزمُّتاً عن أفراد جماعة الكْويكْر الدينية. يخاطبها مثلما تُخاطَبُ فتاةٌ صغيرةٌ تحتاج إلى التربية. كانت تتعلَّمُ السلوكَ اللّائقَ مثلما تتعلَّمُهُ عائشة، وكان عليها أن تُؤَمِّنَ على كلام أمين عندما يشرح «هذا أمرٌ لا يليق» أو «لا نملكُ الإمكانات اللازمة». عندما وصلتْ إلى المغرب كانت لا تزال

تشبه طفلة، فكان عليها أن تتعلَّمَ، في أشهر معدودة، كيف تتحمّل الوحدة والحياة الزوجية، وأن تُعانيَ عنفَ زوج وغرابةَ بلد. انتقلتْ من بيت والدها إلى بيت زوجها، لكن دون أن تشعر أنها غنمتْ بذلك استقلالاً ولا سلطةً. تتحكَّمُ، بالكاد، في طامو، الخادمة الصغيرة. لكن يِطُّو، والدة هذه الأخيرة، كانت تراقب كلَّ شيء، ولم تكن ماتيلد تجرؤ أبداً أن ترفع صوتها أمامها. ولم تكن تعرف كيف تُعامِلَ ابنتَها بالصبر وحسن التربية. تنتقل من أشدِّ الحنان افتراساً إلى أكثر الغضب هستيرية. تنظر أحياناً إلى صغيرتها، فتبدو لها تلك الأمومةُ قاسيةً، ولا إنسانية. كيف لطفلةٍ أن تُربِّيَ أطفالاً آخرين؟ مزَّقوا هذا الجسم الصغير السّن، واستخرجوا منه ضحيَّةً بريئةً لا تعرف هي كيف تدافع عنها.

عندما تزوَّجَها أمين، لم يكن عمر ماتيلد يتجاوز العشرين، وعندئذ لم يُقْلِقْهُ الأمرُ. بل كان يجد أنَّ حداثة سنّ زوجته يحمل كثيراً من السِّحر، بعينيها البهيجتين والمندهشتين من كل شيء، وبصوتها الهَشِّ، ولسانِها الدافئ العذب مثل لسان فتاة صغيرة. كان في الثامنة والعشرين، فهو لم يكن يكبرها كثيراً، لكن كان ينبغي أن يعترف أنَّ سنَّ زوجته لم يكن له علاقة بذلك الانزعاج الذي كانت تُسبِّبُهُ له أحياناً. كان رجلاً وكان قد شاركَ في الحرب. أصلُهُ من بلدٍ يتماهى فيه الرَّبُّ مع الشرف وكان أبوهُ قد ماتَ، الأمر الذي كان يفرضُ عليه نوعاً من الصرامة. ما كان يسحرُهُ منها في أوروبا صار يُثقِلُ كاهلَهُ ويُخْنِقُهُ. كانت ماتيلد متقلِّبَةَ المزاج وطائشة. يؤاخذ عليها أمين عدمَ قدرتها على أن تُظهِرَ قسوةً أكبر، وألّا تكون شديدة التحمّل والصبر. لم يكن لديه لا الوقت ولا الموهبة لمواساتها. دموعها! كم دمعة أهرقت منذ أن وصلت إلى المغرب! كانت تبكي

لأتفه أمر يضايقها، وتنفجر باكيةً باستمرار، وكان ذلك يُسْخِطُهُ كثيراً. «توقَّفي عن البكاء. والدتي التي فقدتْ أولاداً، وترمَّلتْ في الأربعين، لم تبكِ في حياتها ما بكيتِهِ أنتِ في الأسبوع الأخير. توقَّفي، توقَّفي!». تلك نزعة النساء الأوروبيات، كان يقول في نفسه، أنْ يرفضن الواقعَ.

كانت تبالغُ في البكاء، وتبالغ في الضحك أو تضحك بصورة لا تليق. عندما تعارفا، كانا يقضيان أمسياتٍ متمدِّدَيْن فوق العشب، على ضفة نهر الراين. كانت ماتيلد تقصُّ عليه أحلامها، وكان يُشَجِّعُها، دون تفكير في العواقب، ولا فيما يكتنف تلك الأحلامَ من غرور. كانت تُسلِّيهِ، هو الذي لم يكن يعرف الضحكَ بأسنانه، ويضع دائماً يديه أمام فمه كأنما يرى أن البهجةَ أشدُّ العواطف وقاحةً ومدعاةً للخجل. ثم تغيَّرَ كلُّ شيء في مكناس، وفي المرات النادرة التي رافقها فيها إلى سينما أمبير، خرج من العرض سيّئ المزاج، غاضباً من زوجته التي كانت تقهقه وحاولت أن تغمر وجهه بالقبلات.

كانت ماتيلد ترغبُ في الذهاب إلى المسرح، والاستماع إلى الموسيقى الصاخبة، وأن ترقص في الصالة. تحلم بفساتين جميلة، وبحفلات استقبال، وحفلاتِ شايٍ راقصةٍ، واحتفالاتٍ تحت النخيل. تَوَدُّ الذهابَ إلى سهرة الرقص يوم السبت في مقهى فرنسا، وإلى الوادي السعيد يومَ الأحد، وأن تدعوَ الأصدقاء لتناول الشاي. كانت تتذكَّرُ، بكثير من الحنين، حفلاتِ الاستقبال التي كان يُقيمها والداها. كانت تخشى أن يمرَّ الوقتُ سريعاً، وأن يستغرقَ البؤسُ والكدحُ دهراً، وإذا ما حلَّ أوانُ الراحة وجدتْ نفسها عجوزاً لا تناسبها الفساتينُ وظلُّ النخيل.

ذات مساء، بُعَيْدَ إقامتها في المزرعة، عَبَرَ أمين المطبَخ، مرتدياً لباسَ الأحد، ووقفَ أمامَ ماتيلد المنهمكة في تقديم طعام العشاء لعائشة. رفعتْ عينيها نحو زوجها، مندهِشةً، متردِّدَةً بين الابتهاج أو الغضب. «أنا خارجٌ، قال. حضر إلى المدينة بعضُ رفاقي القدامى في المعسكر». مالَ فوق عائشة ليضع قبلةً على جبهتها، وإذا بماتيلد تنهضُ، ونادتْ على طامو، التي كانت تُنظِّفُ الفِناءَ، ووضعت الطفلةَ بين ذراعيها. وسألتهُ بنبرةٍ واثقةٍ: «أينبغي لي أن أرتديَ ملابس أخرى، أم أنَّ ذلك ليس ضرورياً؟».

بُهِتَ أمين. غمغمَ كلماتٍ حول أن الأمر كان سهرةً بين رفاقٍ، وأنه لا يليقُ بامرأة. «إذا كان الأمرُ لا يليقُ بي، فإنني لا أرى كيف سيكون لائقاً بك». ودون أن يُدرِكَ أمين ما يحدث له، سمحَ لماتيلد أن تتبعَهُ، بعد أن ألقت وزرتَها فوق كرسيٍّ من كراسي المطبخ، وشرعتْ تقرصُ خدَّيها لتُبرِزَ لونَ بشرتها.

لم ينبس أمين في السيارة ببنت شفة، وظلَّ وجهه مكفهِرّاً، عيناهُ على الطريق، غاضباً من ماتيلد ومن ضعفه. كانت تتكلَّمُ، وتبتسمُ، وتتصرَّفُ كأنها لا تُدرِكُ أنَّ حضورَها زائدٌ، ليس في محلِّه. أقنعتْ نفسَها أنها قادرةٌ على استرضائه وتهدئته بخفَّتها، فأظهرت اللطفَ، والجموحَ، والمرح. ووصلا إلى المدينة دون أن يحرِّكَ شفتيه مرة واحدة. ركنَ أمين السيارةَ وأسرعَ بالنزول منها، ومشى بخطواتٍ سريعة نحو شرفة المقهى، كأنه كان يطمعُ، عبثاً، في أن يُفلِتَ منها في شوارع المدينة الأوروبية، أو لأنه لم يكن يريد أن يتحمَّلَ إهانةَ الوصول ممسكاً بذراع زوجته فحسب.

لحقتْ به سريعاً بحيث لم يجد الوقتَ ليشرح الموقفَ للضيوف الذين كانوا في انتظاره. نهضَ الرجالُ وحَيَّوْا ماتيلد بخجل واحترام.

قدَّمَ لها عمرُ، حَمْوُها، كرسياً إلى جانبه. كان جميع الرجال متأنِّقين في مظهرهم، ارتدوا ستراتٍ، ودهنوا شعرهم. طلبوا الشرابَ من اليونانيِّ البهيج، الذي كان يدير ذلك المقهى منذ عشرين عاماً. إحدى المقاهي النادرة التي لم يكن يسودها أيُّ نوع من التمييز العنصريِّ، حيث يشربُ العربُ الكحولَ على مائدة الأوروبيين، وحيث تحضرُ نساءٌ لسن مومساتٍ ليُنَشِّطْنَ السهرات. كانت شرفةُ المقهى، الواقعة عند زاوية شارعين، تحجبُها عن العيون أشجارُ نارنج كثيفة. يشعرُ المرءُ فيها أنه وحيدٌ في العالم وفي مأمن. شربَ أمين وأصدقاؤه الأنخاب لكنهم لم يتحدَّثوا إلّا قليلاً. توالت فتراتُ صمتٍ تقطعها ضحكاتٌ مكتومةٌ أو حكاية نادرة. كانت سهراتُهم دائماً تكون على المنوال نفسه، لكن ماتيلد كانت تجهل ذلك. لم تكن تُصدِّقُ أنَّ تلك سيرة سهرات الرجال التي يختلف إليها أمين، تلك السهرات التي طالما أثارتْ غيرتَها وشغلَتْ تفكيرَها. اعتقدتْ أنَّ حضورها مسؤولٌ عن إفساد الحفلة. ودَّتْ أن تحكيَ أمراً. واستمدَّت الجرأةَ من النبيذ، فاستحضرتْ، بصوتٍ خجول، إحدى ذكرياتها في الألزاس، مسقطِ رأسها. ارتعدتْ قليلاً، وتمنَّعَتْ عليها الكلماتُ، وكانت حكايتُها تافهةً ولم تُضحِكْ أحداً. نظر إليها أمين بازدراءٍ هَشَّمَ قلبَها، وشعرتْ أنها دخيلة، متطفِّلةٌ، كما لم تشعر بذلك من قبل.

أخذ ضوءُ مصباح الرصيف المقابلِ يومِضُ ثم انطفأ، فاكتسبتْ شرفةُ المقهى، المضاءة ببعض الشموع، سحراً جديداً، وارتاحتْ ماتيلد للظلام الذي منحها الانطباعَ بأنَّ الآخرين قد نسوْها ولم يعودوا ينتبهون إلى وجودها. كانت تخشى وصول اللَّحظة التي سيرغبُ فيها أمين أن يختصرَ السهرةَ، ويضعَ حدّاً لذلك الانزعاج، حيث سيقول لها: «هيّا بنا». سيُعَرِّضُها، بلا شك، لشِجارٍ،

وصياحٍ، وصفعةٍ، وهو يسحقُ وجهها على زجاج النافذة. عندئذ، استمتعتْ بأصوات المدينة الخافتة، وأنصتَتْ إلى أحاديث المائدة المجاورة، وأغمَضَتْ عينيها لتُحسِنَ الإنصاتَ إلى الموسيقى المنبعِثةِ من عمق المقهى. كانت تَوَدُّ لو يدوم الأمرُ أطول قليلاً، ولم تكن لديها رغبة في العودة.

استرخى الرجالُ، وعمل الكحولُ عملَهُ فشرعوا يتحدَّثون بالعربية. ربما لاعتقادهم أنها لا تستطيع أن تفهم كلامهم. حملَ إليهم نادلٌ شابٌّ، يغطّي وجهَهُ حَبُّ الشباب، طبقاً كبيراً من الفواكه، ووضعه فوق المائدة. قضَمَتْ ماتيلد قطعةَ خَوْخٍ، ثم شريحة بطيخ أحمر سالَ عصيرُهُ على فستانها فوسَّخَهُ. أمسكتْ ببذرة سوداء بين الإبهام والسبّابة، وضغطَتْ عليها لتنزلق. طارتِ البذرةُ وحطَّتْ فوق وجه رجل سمين، يعتمرُ طربوشاً ويتعرَّقُ في جلبابه. حرَّكَ الرجلُ يدهُ كأنه يريد أن يصيدَ ذبابةً. أمسكتْ ماتيلد ببذرة أخرى، وحاولت هذه المرة أن تُصيبَ رجلاً ضخماً شديد الشُّقرة، كان قد مَدَّ رجليه على الجانب ويتحدَّثُ بانفعال. لكنها أفلتت الهدفَ، وأصابتْ رقبةَ نادلٍ فكاد أن يقلب طبقَهُ. قهقهت ماتيلد، وقضت الساعة المواليةَ ترمي الحضورَ كأنها تحمل رشّاشاً، فاعترتْهُم تشنُّجاتٌ. كأنَّما أصابهم مرضٌ غريبٌ، من قبيل تلك الحمّى المدارية التي تدفع الناسَ إلى الرقص وممارسة الجنس. اشتكى الزبائن، فأوقَدَ صاحبُ المقهى أعواد البخور لمجابهة غزوات الذباب. غير أنَّ الهجمات لم تتوقف، وسرعان ما أُصيبَ الشَّرْبُ بالصُّداع من فرط استنشاق البخور والشراب. خلتِ الشُّرفةُ، وودَّعت ماتيلد الأصدقاء، وعندما صفعها أمين بعد وصولهما إلى البيت، قالت في نفسها إنها على الرغم من كل شيء قد ضحكت كثيراً.

كان أمين، في أثناء الحرب، بينما تتقدَّمُ كتيبتُهُ نحو الشرق، يُفكِّرُ في مزرعته مثلما كان غيرُهُ يحلمون بامرأة أو أمٍّ خلَّفوها في البلد. كان يخشى أن يموتَ دون أن يتمكَّنَ من الوفاء بالوعد الذي قطعه بتخصيب تلك الأرض. كان الرجالُ، أثناء فترات الملل الطويلة التي تتخلَّلُ الحربَ، يُخرجون ألعابَ الورقِ، وأكوامَ الرسائل المُبَقَّعَةِ، والرواياتِ. أما أمين، فقد كان يغوصُ في قراءة كتاب حول علم النبات أو في مجلة متخصِّصةٍ تتناول طُرُقَ الرّيِّ الجديدة. قرأ أنَّ المغرب سيُصبح مثل كاليفورنيا، تلك الولاية الأميركية المليئة بالشمس وأشجار البرتقال، وحيث الفلاحون تُعَدُّ ثرواتُهم بالملايين. كان يؤكِّدُ لمُراد، معاوِنِهِ في المعسكر، أن المملكةَ كانت تتهيَّأُ كي تعيشَ ثورة، بانسلاخها من تلك العصور المظلمة حيث كان الفلاحون يخشون الغزوات، وحيث كانوا يُفضِّلون تربية الخراف على فلاحة الأرض، لأنَّ الخروف ذو أربعة قوائم ويستطيع أن يعدُوَ أسرعَ من المعتدي. كان أمين عاقداً العزمَ على أن يُديرَ ظهره للطُّرُق العتيقة، وأن يجعل من مزرعته نموذجاً للحداثة. قرأ بحماس حكايةَ أحدهم يُدعى هـ. ميناجيه، عسكريّ بدوره، غرسَ أشجارَ الأوكاليبتوس، منذ نهاية الحرب العالمية

الأولى، في سهل الغرب الفقير. استوحى الرجلُ تقريراً أصدرتْهُ بعثةٌ أسترالية، بعثَها ليوطي عام 1917، وقارنَ بين خصائص أرضه ومقاييس الأمطار في المنطقة، وخصائص ومقاييس أمطار تلك القارة البعيدة. وبطبيعة الحال، سخر الجميعُ من ذلك الرّائد، ضحكَ الفرنسيون والمغاربة من ذلك الرجل الذي يريد أن يغرس على مدى البصر أشجاراً غير مثمرة، تُضفي جذوعُها الرمادية قُبحاً على المنظر. غير أنَّ هـ. ميناجيه أفلحَ في إقناع إدارة «المياه والغابات»، وسرعان ما اضطرّوا إلى الاعتراف بأنه قد ربح رهانه: كان الأوكاليبتوس يصُدُّ الرياحَ الرمليةَ، ويسمحُ بتطهير الأعماق حيث تتكاثر الطفيلياتُ، وتصلُ جذورُهُ العميقةُ إلى طبقة المياه الجوفية، المتمنِّعة عن الفلّاح البسيط، لتستقيَ منها الماءَ. كان أمين يريد أن يُعَدَّ من بين أولئكَ الرُّوّاد الذين كانت الفلاحةُ بالنسبة إليهم مسلكاً صوفياً، ومغامرة. يريد أن يقتفيَ خطوات أولئك الصابرين والحكماء، الذين أجروا تجاربَ في أراضٍ قاحلة. كل أولئك البدويين الذين قيل عنهم مجانين، غرسوا بصبرٍ أشجارَ البرتقال، من مراكش إلى الدار البيضاء، وصنعوا من ذلك البلد القاحل والقاسي جنَّةَ أحلام.

عاد أمين إلى المغرب عام 1945، وعمره ثمانية وعشرون عاماً، ظافِراً ومتزوِّجاً بامرأة أجنبية. قاتَلَ من أجل استرجاع ملكية مزرعته، وتكوين عُمَّالِهِ، وليزرع، ويحصدَ، وليكون نظرُهُ رحباً وإلى الأمام، مثلما قال المارشال ليوطي ذات مرة. وعند أواخر عام 1948، وبعد شهور من المفاوضات، استرجع أمين أراضيه. كان يتعيَّنُ عليه أولاً إنجاز أشغال في البيت، وفتح نوافذ جديدة، وإنشاء حديقة صغيرة للزينة، وترصيف فِناء خلف المطبخ من أجل غسيل

الملابس ونشرها. وكان الطريق جهةَ الشَّمال منحدِراً، فبنى درجاً جميلاً من حجر، وأقامَ باباً زجاجياً ينفتحُ على حجرة الطعام. من هناك، كان في إمكانهم أن يتأمّلوا هيئةَ جبل زرهون الباذخ وامتدادات الأراضي البريّة التي تُشكِّلُ منذ قرون أرضَ عبور للحيوانات.

ستمُرُّ عليهما، أثناء الأعوام الأربعة الأولى في المزرعة، جميعُ ضروبِ المُثبِّطات، وستعبُرُ حياتُهُم مساراتٍ مأساويةً. كان المُعَمِّرُ، الذي استأجر المزرعةَ أثناء الحرب، قد اكتفى بالعيش في قطعةِ أرضٍ صغيرةٍ صالحة للزراعة، تقع خلف البيت، وتركَ ما عدا ذلك مُهْمَلاً، فآلَ إليهما فِعْلُ كلِّ شيء. كان ينبغي أوّلاً استصلاحُ الأرض، وتخليصُها من نبات الدُّوم، تلك النبتة الخبيثة والعنيدة، التي تتطلَّبُ من الرجال جهداً مرهِقاً. ولم يكن في إمكان أمين أن يعتمد، مثل المعمِّرين، على مساعدة جرّارٍ، فكان على الرجال أن يقتلعوا الدُّومَ بالفأس، فاستغرق منهم ذلك شهوراً عديدة. ثم توجَّبَ بعد ذلك تخصيصُ أسابيع لإزاحة الأحجار، وبعد أن تخلَّصت الأرضُ من الحجارة، خضعتْ أخيراً للحرث. زرعوا فيها العدسَ، والبازلاء، والفولَ، وفدادينَ كاملةً من الشعير والقمح. وعندئذ تعرَّضتِ المزرعةُ لهجوم سربٍ من الجراد. التهمتْ سحابةٌ تميل إلى الحمرة، طالعةٌ من كابوس، المحاصيلَ والثِّمارَ على الأشجار. واستشاطَ أمين غضباً في وجه العمّال الذين كانوا يكتفون، لطرد الجراد، بالقرع على عُلَبِ المصبَّرات. «يا عصابة الجهلة! ألا تجدون ما تصنعون غير هذا؟» كان يصيح بأولئك الرجال الذين كان ينعتُهُم بالمتخلِّفين، وعلَّمَهُم كيف يحفرون خنادقَ يضعون فيها نُخالَةً مسمومةً.

وفي السنة الموالية، كان دورُ الجفاف وأحزان الحصاد، لأنَّ سنابل القمح كانت فارغةً فراغَ بطن الفلاحين في الشهور اللاحقة. أقامَ العمّالُ في الدواوير صلاةَ الاستسقاء التي تعلَّموها منذ قرون، والتي لم تُبرهِنْ أبداً على نجاعتها. لكنهم كانوا مع ذلك يُصلُّون، تحت شمس أكتوبر الحارقة، ولم يكن صممُ السماء يدفعهم إلى التمرُّد. أمَرَ أمين بحفر بئرٍ تطلَّبَ منه عملاً هائلاً واستنزف قسطاً من ميراثه. غير أنَّ المساربَ كانت تغمرها الرمالُ بلا هوادة ولا يتمكَّنُ الفلاحون من أن يمتحوا الماءَ لسقي الأرض.

كانت ماتيلد فخورة بزوجها. وعلى الرغم من غضبها الشديد من غياباته، وعلى الرغم من أنها كانت لا ترضى عندما يتركها وحيدة في البيت، فقد كانت تعرف أنه مجتهدٌ في عمله وشريفٌ. وكانت تُفكِّرُ أحياناً في أن ما ينقصُ زوجَها إنما هو الحظُّ وقدرٌ معيَّنٌ من الحدس. ذاك ما كان يتمتَّعُ به أبوها. كان جورج أقلَّ جِدِّيَةً من أمين، وأقلَّ مثابرةً. يشربُ إلى أن ينسى اسمه وقواعدَ الحياءِ والاحترامِ الأوليّةَ. ويلعبُ الورقَ إلى طلوع الفجر، وينام بين ذراعي أيِّ امرأة ثدياء يضوعُ عنقها الأبيضُ السمينُ برائحة الزبدة. يطردُ محاسِبَهُ بسبب نزوة طارئة، ولا يتذكَّرُ أن يوظِّفَ محاسباً بدلاً منه، ويتركُ البريدَ يتراكمُ فوق مكتبه الخشبيِّ القديم. كان يدعو محضري المحكمة إلى أن يرافقوه في كأس شراب، وينتهون يحكُّون بطونهم وهم يغنُّون أغاني قديمة. كان جورج يملك حدساً استثنائياً، لم يخذلهُ أبداً. كان الأمرُ كذلك، ولم يكن يجد لهُ تفسيراً. يفهمُ الناسَ، ويُكِنُّ للإنسان، وإذاً لنفسه، شفقةً عطوفاً، وحناناً يجلب له تعاطُفَ الغرباء. لم يكن جورج ليُفاوِضَ أبداً من باب الطمع، ولكنه يفعل ذلك لعباً، ولو صادف أن خدعَ أحداً، لم يكن ليفعل ذلك عمداً.

لم يدر بخلد ماتيلد، على الرغم من تعدُّدِ الفشل، وعلى الرغم من المشاجرات والفقر، أنَّ زوجها غير كفؤ أو كسول. كانت تشاهدُ أميناً وهو يستيقظُ في فجر كلِّ يوم، ويغادر البيتَ كلُّهُ عزيمةٌ، ويعود في المساء، يُغطّي التُّرابُ حذاءَهُ الطويل. يقطع أمين الكيلومترات، ولا يتعبُ أبداً. كان رجال الدوار يعجبون بقدرته على التحمُّل، على الرغم من امتعاضهم أحياناً من احتقار ابن بلدهم لطرائق الفلاحة التقليدية. كانوا يشاهدونه ينحني، يجسُّ الأرض بأصابعه، ويُطبِقُ يدَهُ على لحاء شجرة كأنه يأمل أن تُفشِيَ له الطبيعةُ أسرارَها. كان يريد أن تسير الأمور بسرعة. كان يريد أن ينجح.

في بداية الخمسينيات تلك، اشتعلتْ حمَّى الوطنية، وصار المعمِّرون موضوعَ حقدٍ عنيفٍ. حدثت اختطافاتٌ، واعتداءاتٌ، وأُحْرِقَتْ مزارعُ. والتأمَ المُعَمِّرون بدورهم في مجموعات دفاعٍ، وكان أمين يعلمُ أنَّ جارهم، روجيه مارياني، كان واحداً منهم. «الطبيعةُ لا تهتمُّ بالسياسة»، قال ذات يوم لماتيلد لتبرير الزيارة التي كان ينوي القيام بها لجاره المثير للجدل. كان يريد أن يفهم سِرَّ ازدهار مزرعة مارياني، أن يعرفَ نوع الجرارات التي يستخدمها، وأيّ نظامِ ريٍّ ينبغي إقامتُهُ. وكان يتصوَّرُ أيضاً أنه يمكنه أن يمنحه حبوباً من أجل علف الخنازير. أما ما عدا ذلك فلم يكن يأبهُ له.

وذات ظهيرة، عبرَ أمين الطريقَ الذي كان يفصلُ بين المزرعتَين. مَرَّ أمامَ مخازن كبيرة تأوي جرّاراتٍ عصريةً، وأمامَ إسطبلاتٍ مليئةٍ بالخنازير السمينة والسليمة، وأمامَ قبوٍ يُعالَجُ فيه العنبُ بنفس الطرائق التي يُعالَجُ بها في أوروبا. كلُّ شيء هنا يتنفَّسُ

الأملَ، والثراء. كان مارياني واقفاً عند عتبة بيته، ممسِكاً بلجام كلبَين أصفرَين ومتوحِّشَين. كان جسمُهُ، بين الفينة والأخرى، يندفعُ نحو الأمام، فيفقد التوازنَ ولا يعلمُ المرءُ إن كان في ذلك يخضعُ لقوّة جذب الكلبَين الضخمَين أم أنه يفتعل الأمرَ، ليُدرِكَ الزائرُ الدخيلُ جيّداً مدى الخطر الذي يتهدَّدُهُ. قدَّمَ أمين نفسَهُ مرتبكاً. أشارَ إلى ناحية مزرعته، ثم قال له: «أحتاجُ إلى نصائح»، استنار وجهُ مارياني، وهو ينظر، من عَلٍ، إلى ذلك العربيِّ الخجول.

«لنشرب نخبَ جوارنا! ولدينا الوقت الكافي للحديث عن الأعمال».

عَبَرا الحديقةَ الباذخةَ وجلسا في الظلِّ، فوق شرفة تُطِلُّ على جبل زرهون. وضع رجلٌ نحيلٌ، ذو بشرة سوداء، فوق المائدة أقداحاً وقنّيناتٍ. وقدَّمَ مارياني كأساً من شراب اليانسون لجاره، وعندما لاحظَ أنَّ أميناً يتردَّدُ بسبب الحرارةِ والعملِ الذي كان في انتظاره، انفجر ضاحكاً. «أنتَ لا تشربُ، أليس كذلك؟» لكن أميناً ابتسمَ وغمسَ شفتيه في السائل الأبيض. رنَّ الهاتفُ داخل البيت، غير أنَّ مارياني لم ينشغل بالأمر.

لم يَدَعْ له المعمِّرُ الوقتَ للكلام. بدا لأمين أنَّ جارَهُ إنسانٌ شديد الوحدة، وجدَ في حضوره فرصةً نادرةً ليُسِرَّ بمكنونه. اشتكى مارياني، رافعاً الكلفةَ بينهما بشكل ضايقَ أميناً، من عمّاله الذين كَوَّنَ منهم جيلَين، لكنهم يُظهرون دائماً قدراً هائلاً من الكسل والوسخ. «كل ذلك الوسخ، يا إلهي!». وكان، بين الفينة والأخرى، يرفع عينيه الرَّمْصاوَيْن نحو وجه ضيفه الجميل، ويضيفُ وهو يضحكُ: «لا أقصدُكَ أنتَ بهذا الكلام، بالطبع». ودون أن يسمح له بالردِّ، كان يستأنفُ حديثه: «في وسعهم أن يقولوا ما

يشاؤون، لكن كم سيكون منظرُ هذا البلد جميلاً عندما لن نكون نحن هنا كي نجعلَ الأشجارَ تُزهِرُ، ونحرُثَ الأرضَ، ونزرَعَها بإصرارنا. ما الذي كان يوجد هنا قبل وصولنا؟ أطرحُ السؤالَ عليك! لا شيء. لم يكن هنا أيُّ شيء. انظُرْ من حولكَ. مرَّتْ قرونٌ من حيواتٍ إنسانيةٍ وليس من بينهم واحدٌ قادرٌ على أن يحرث هذه الهكتارات. منشغلون دائماً بالحرب. لقد جعنا. ودفنَّا هنا، وزرعنا، وحفرنا قبوراً، وصنعنا المُهودَ. مات أبي من التيفوس في هذا البلد. وأنا كَلَّ مَتْني من الجلوس أيّاماً كاملةً فوق صهوة حصاني، أخوضُ السَّهْلَ، وأُفاوِضُ القبائلَ. لم أكن أستطيعُ أن أتمدَّدَ فوق السرير دون أن أصرخَ من شدة الآلام في عظامي. لكنني سأقولُ لكَ أمراً، إني أَدينُ بالكثير لهذا البلد. لقد أعادني إلى جوهر الأشياء، ووصلني من جديد باندفاع الحياة، بالوحشية». عَلَتِ الحُمرةُ وجهَ مارياني وتباطأ إيقاعُ حديثه تحت وطأة الكحول. «كان مصيري في فرنسا أن أصيرَ لوطِياً، أن أعيشَ حياةً بئيسةً، بلا مدى، ولا فتوحاتٍ، ولا فضاء. قدَّمَ لي هذا البلدُ فرصةَ أن أعيش حياتي رجلاً».

نادى ماريانى على الخادم الذي وصلَ إلى الشرفة مهروِلاً. وبَّخَهُ بالعربية على بطئه وضربَ بقبضته المائدَةَ بقوةٍ شديدةٍ قَلَبَتْ كأسَ أمين. حاكى المُعمِّرُ فعلَ البصق، ناظِراً إلى ظهر الخادم الشيخ الذي كان يختفي داخل البيت. «انظُرْ وتعلَّمْ! أنا أعرفُ هؤلاء العرب! العمّال جهلةٌ؛ كيف تريد للمرء ألّا يرغب في أن يُبرحَهُم ضرباً؟ أتحدَّثُ لغتَهم، وأعرفُ عيوبهم. أعلمُ جيّداً ما يُقالُ عن الاستقلال، لكنني لن أسمح لعصبةٍ متمرِّدين أن يحرموني من سنواتٍ من العرق والكَدِّ». ثم كرَّرَ ضاحكاً، وهو يتناول سندويشات صغيرةً أحضرَها الخادمُ أخيراً: «لا أقصدُكَ أنتَ بهذا الكلام!». كاد أمين

أن ينهضَ ويتراجعَ عن محاولته أن يتَّخِذَ من هذا الجار القويِّ حليفاً له. غير أنَّ مارياني، الذي يشبهُ وجهُهُ وجهَ كلبَيه بشكل غريب، التفت نحوهُ، وقال له، كأنه أحسَّ أنَّ كلامه جرحَ أميناً: «تريدُ جرَّاراً، أليس كذلك؟ يمكننا أن نتفق حول الأمر».

II

كان الجوُّ شديدَ الحرارة في الصيف الذي سبقَ التحاق عائشة بالقسم التحضيري. كانت ماتيلد تتحرَّكُ داخل البيت مرتديةً لباساً داخلياً باهتاً، تتدلّى حمّالةُ البنطلون على كتفيها العريضتين، وشعرُها ملتصِقٌ بصدغيها وجبهتِها من العرق. تحملُ سليماً، الرضيعَ، على ذراعٍ، وتمسكُ بيدها الأخرى جريدةً أو قطعةَ ورقٍ مُقَوَّى تُلَوِّحُ بها. تمشي دائماً حافيةَ القدمَين على الرغم من نُواح طامو التي كانت تقول إنَّ ذلك يجلبُ الشُّؤمَ. كانت ماتيلد تضطلعُ بأشغالها اليومية، لكن جميع حركاتها تبدو أكثر ثقلاً وأشدَّ إرهاقاً. وكانت عائشة وشقيقها سليم، الذي احتُفِلَ مؤخَّراً بعيد ميلاده الثاني، طفلين جِدَّ هادئين. لا يشعران بالجوع، ولا يرغبان في اللعب، ويقضيان النَّهار كلَّهُ حافيين، متمدِّدَيْن فوق الأرضية المُبلَّطة، عاجزين عن الكلام أو اختراع ألعابٍ. عند بداية شهر أغسطس، هبّتْ رياحُ الشرقي فابيَضَّت السماءُ. ومُنِعَ الأطفالُ من الخروج لأن تلك الرياح الصحراوية كانت تُرعبُ الأمّهات. كم مرةً حكتْ مِّي لالَّة لماتيلد قصصَ الأطفال الذين أهلَكَتْهُمْ الحُمّى التي ينقلُها الشرقي معه. كانت حماتُها تقول لا ينبغي استنشاقُ ذلك الهواء الفاسد، لأنَّ من يبتلعهُ يخاطر بأن يحترق جوفُهُ، وييبسَ مثل نبتة تذبل دفعةً واحدة.

وبسبب تلك الرياح اللعينة، كان الليل ينزل، لكن من غير أن يحمل معه السكينة. يضعفُ الضوءُ، ويُغلِّفُ السوادُ الباديةَ ويُخفي الأشجارَ، لكن الحرارةَ تواصِلُ الضَّغطَ بكلِّ قوّتها، كأنَّ الطبيعةَ ادَّخرت الشمسَ ادِّخاراً. ينقلِبُ الطفلان عصبيَّيْن، ويشرعُ سليم في الصراخ. كان يبكي من الغضب فتأخذهُ أمُّهُ بين ذراعيها لتُسَلِّيَهُ. تحضُنُهُ ساعاتٍ متواصلةً، وقد ابتلَّ جسداهُما بالعرق، وهَدَّهُما الإرهاقُ. كان صيفاً لا آخر له، وشعرتْ ماتيلد بوحدةٍ مرعبة. كان زوجُها، على الرغم من الحرارة القاهرة، يقضي النهارَ في الحقول. يرافقُ العمّالَ في عملياتِ حصادٍ تنجلي عن خيبة كاملة، فالسنابلُ كانت فارغةً، ويوميات العمل تتوالى، والجميعُ يخشى أن يموت جوعاً في شهر سبتمبر.

ذات مساء، وجدتْ طامو عقرباً سوداء تحت ركامٍ من الأواني. وأطلقَتْ صرخةً مُدَوِّيةً أعجلتْ ماتيلد والطفلَين إلى المطبخ. كانت الحُجرة تؤدي إلى فِناء صغيرٍ حيث يُجَفَّفُ الغسيلُ واللحمُ، وتتراكمُ فيه أحواضٌ وسخةٌ، وتتجوَّلُ قططُ ماتيلد المدلَّلة. كانت ماتيلد تُؤكِّدُ عليهم دائماً أن يُقفلوا البابَ المفضي إلى الخارج. تخشى الحيّاتِ، والفئران، والخفافيش، وحتى الثعالب، التي ائتلفتْ جماعةٌ منها قرب فرن الجير. لكن طامو كانت كثيرة الشرود، ولعلَّها غفلت عن الأمر. لم تكن ابنةُ يِطُّو قد استكملت عامَها السابع عشر. كانت ضَحوكاً وخَدوماً، تُحِبُّ العيش في الخارج، والاهتمام بالطفلَين، تُلقِّنُهما أسماء الحيوانات بالأمازيغية. لكنها لم تكن تُعجِبُها معاملةُ ماتيلد. كانت الألزاسيةُ قاسيةً، وسلطويةً، وصارمةً. وكانت قد اعتزمتْ أنْ تُعلِّمَ طامو آداب السلوك، لكنها لم تكن صبوراً. وعندما حاولتْ أن تُلَقِّنَها مبادئ المطبخ الغربيِّ، اضطرَّتْ إلى أن تستسلم

للواقع: كانت طامو لا تأبَهُ للأمر، ولا تُنصِتُ إليها، وتمسكُ بيدٍ رخوةٍ بالملعقة التي ينبغي أن تُحرِّكَ بها قشدةَ الحلويات.

عندما ولجَتْ ماتيلد المطبخَ، شرعت الأمازيغيةُ في الترتيل وأخْفَتْ وجهَها في يديها. لم تُدرِكْ ماتيلد للتوِّ ما الذي أفزَعَها إلى تلك الدرجة. ثم رأت ملاقطَ العقرب تُطِلُّ من مقلاةٍ اشترتْها من ميلوز بُعيد زواجها. رفعتْ عائشةَ التي كانت تمشي حافيةً، مثلها. وأمرتْ طامو، بالعربية، أن تهدأ. «توقَّفي عن البكاء، كانت تردِّدُ، والتقطي تلك الحشرة». عبرت الممرَّ الطويلَ المفضي إلى حجرتها وقالت: «هذا المساء، ستنامان معي، يا حبيبيَّ».

كانت تعلمُ أنَّ زوجها سيُوَبِّخُها. لا يُحِبُّ طريقتَها في تربية الطفلَين، وتعاطُفَها مع أحزانهما ومشاعرهما. كان يتَّهِمُها بأنها تجعلُ منهما كائنين ضعيفَين، بكَّاءين، خصوصاً ابنه. «لا يُرَبَّى الرجلُ بهذه الطريقة، وليس هكذا نمنحُهُ الوسائلَ لمواجهة الحياة». كانت ماتيلد، في ذلك البيت البعيد عن كل شيء، تشعر بالخوف، وتحنُّ إلى سنواتها الأولى في المغرب، حين كانا يعيشان في المدينة العتيقة بمكناس، وسط النّاس، والضوضاء، وحركة الناس. وعندما كانت تُفصِحُ عن ذلك لزوجها، كان يسخر منها. «أنتِ أكثر أماناً هنا، صدقيني». بل إنه منعها في أواخر شهر أغسطس 1953، من الذهاب إلى المدينة، لأنه كان يخشى تحرّكاتِ الحشود أو حصولَ تمرُّد. فبعد إعلان نفي السلطان سيدي محمد بن يوسف إلى جزيرة كورسيكا، اشتعلَ غضبُ الشعب. وفي مكناس، مثل باقي مدن المملكة، كانت الأجواءُ قابلةً للاشتعال، وحركاتُ النّاس متوتِّرةً، حيث يمكن أن يتطوَّر أيُّ حادثٍ إلى اضطرابات. كانت النساء في المدينة العتيقة يتجوَّلن متَّشِحاتٍ السَّوادَ، وقد احمرَّتْ عيونُهُنَّ من الحقد والدموع.

«يا لطيف، يا لطيف!» يتضرَّعُ المسلمون إلى الله، في جميع مساجد المملكة، من أجل عودة العاهل. وتشكَّلَتْ منظَّماتٌ سِريَّةٌ تدافِعُ عن المقاومة المسلَّحة ضدَّ المضطَهِدِ المسيحيّ. وكان يرتفع، في الشوارع، من الفجر إلى الليل، صياحُ: «يحيا الملك!» لكن عائشة لم تكن تفقهُ شيئاً في السياسة. لم تكن تدري حتى أنها في سنة 1953، وأنَّ رجالاً يشحذون أسلحتهم للحصول على الاستقلال، وآخرين يشحذونها ليحرموهم منه. لم تأبَهْ عائشة لكلِّ ذلك. لم يشغلْ تفكيرَها، الصيفَ كلَّهُ، سوى المدرسة، وذاك أمرٌ كان يُرعِبُها.

وضعتْ ماتيلد طفليها في الفراش ومنعَتْهُما من الحركة. عادتْ بعد بضع دقائق، وهي تحمل بين ذراعَيها غطاءين أبيضَين بلَّلَتْهُما بالماء المثلَّج. تمدَّدَ الطفلان فوق الغطاءين المُبَلَّلَين، المنعِشَين، فاستسلمَ سليم للنوم بعد دقائق قليلة. وبينما ماتيلد تُؤرجِحُ رجليها المنفوختين خارج السرير، وتُداعبُ شعر ابنتها الكَثّ، إذ همستْ هذه الأخيرةُ: «لا أريدُ الذهابَ إلى المدرسة. أريد أن أبقى معكِ. مِّي لالَّة لا تعرف القراءة، ويِطُّو وطامو كلتاهما لا تعرفان كذلك. فماذا سأفعلُ بها؟» خرجتْ ماتيلد فجأةً من خمولها. رفعتْ رأسها واقتربت بوجهها من وجه عائشة. «لا جَدَّتُكِ، ولا يِطُّو اختارتا ذلك». ما كان للطفلة أن تستطيع، في الظلمة، تبيُّنَ ملامح وجه أمِّها، لكنها أدركَتْ أنَّ ماتيلد تتكلَّمُ بجِدِّيَّةٍ غير معهودة فأقلقَها الأمرُ. «لا أريد أن أسمع منكِ أبداً مثل هذه التفاهات. أتفهمين؟» في الخارج، كانت تتعاركُ قططٌ مُطْلِقَةً صيحاتٍ مرعبةً. «أحسُدُكِ، أتعلمين، استأنفتْ ماتيلد كلامها. أَوَدُّ لو أستطيعُ أن أعودَ إلى المدرسة. أن أتعلَّم آلاف الأمور، وأن يكون لي أصدقاء إلى الأبد. إنها الحياة الحقيقية التي تبدأ الآن. أنتِ الآن فتاة كبيرة».

يبسَ الغطاءُ وعائشة لا يزال يجافيها النومُ، فأخذتْ تحلُمُ، مفتَّحةَ العينين، بحياتها الجديدة. تخيَّلَتْ نفسَها في ساحةٍ ظليلةٍ ومنعشة، ممسكةً بِيَدِ طفلةٍ ستكون شقيقةَ روحها. الحياةُ الحقيقيّةُ، قالت أمُّها، أليست الحياةُ الحقيقيةُ هنا، في هذا البيت الأبيض المنعزل فوق التلَّة؟ أليست الحياة الحقيقية أن تجوبَ الوقتَ كلَّهُ تتعقَّبُ العاملات؟ ألا يملكُ كلُّ هؤلاء، الذين يعملون في حقول أبيها، وجوداً حقيقيّاً؟ أليس من قيمة لطريقتهم في الغناء، ولذلك الحنان الذي يستقبلون به عائشة عندما يجلسون لتناول الطعام تحت ظلال أشجار الزيتون؟ نصف خبزة مطبوخة فوق الكانون في الصباح نفسه، حيث تظلُّ النساءُ جالساتٍ ساعاتٍ، يستنشقن الدخان الأسودَ الذي سيودي بهنّ إلى الهلاك.

حتى ذلك الحين، لم تفكِّر عائشة أبداً في تلك الحياة المحصورة بين قوسَين. ربما باستثناء تلك المرات التي كانوا يذهبون فيها إلى المرتفعات، حيث المدينة الأوروبية، وتجد نفسَها في خضمٍّ ضوضاء السيارات، والبائعين المسلمين، وطلّاب الثانوية الشباب الذين يهرعون إلى دور السينما. عندما كانت تسمع الموسيقى المنبثقة من المقاهي، وفرقعات الكعوب فوق الأسمنت. عندما كانت أُمُّها تسحبُها، فوق الرصيف، بانزعاج وهي تعتذر للمارّة. أجل، كانت تُدرِكُ عندئذ أنَّ حياة أخرى توجد هناك، أكثر كثافةً، وأكثر سرعة، حياة كان يبدو أنها كلّها تسعى إلى غاية واحدة. كانت عائشة ترتابُ في أن حياتهم لم تكن سوى ظلٍّ، كدحٍ قاسٍ بعيداً عن النظرات. حياةٌ كلُّها ولاءٌ، وخضوع.

وحلَّ يومُ الدخول إلى المدرسة. كانت عائشة تجلس مشلولة

من الخوف في خلفية السيارة. لا مجال للشكِّ الآن، يمكنهم أن يقولوا ما يشاؤون، إنهم تخلَّوا عنها. تخلٍّ جبان ورهيب. سيتركونها هناك، في ذلك الشارع المجهول، هي، المتوحشة التي لا تعرف سوى رحابةِ الحقول، وصمتِ التَّلَّة. كانت ماتيلد تُذكي الحديثَ، وتضحكُ ببلاهة، وكانت عائشة تُدرِكُ أنَّ أُمَّها بدورها لم تكن مطمئنَّةً. كم كانت تلك الكوميديا تبدو زائفةً. ظهرت أبواب المدرسة الداخلية فركنَ أبوها السيّارة. كانت أمّهاتٌ، يقفن فوق الرصيف يمكسن بأيدي بناتهنَّ المرتديات لباس الأحد. كنّ يرتدين فساتين جديدة، بارعة التفصيل، ذات ألوان خفيفة. فتيات من المدينة اعْتَدْنَ الاختيال. تتحدَّثُ الأُمَّهاتُ ذواتُ القبّعات، بينما يتعانقُ الأطفال. إنهنّ يتلاقين من جديد، قالت عائشة في نفسها، هذا استمرارٌ لعالمِهنَّ. أخذت عائشة تنتفضُ مرتعشةً: «لا أريد، شرعتْ تصرُخُ، لا أريد النزول!» جذب صياحُها الحادُّ نظراتِ التلميذات وأوليائهنَّ. وعلى الرغم من أنها كانت في طبعها هادئةً ورعديدةً، فإنها لم تقفْ عند حَدٍّ في تمرُّدِها. تكوَّمَتْ على نفسها مثل كرة وسط الكرسيِّ الخلفيِّ، وتشبَّثَتْ، وأطلقتْ صرخاتٍ تُمَزِّقُ نياطَ القلب وطبلة الأذن. فتحت ماتيلد البابَ: «تعالي حبيبتي، تعالي، لا تقلقي». نظرت إليها نظرةً متوسِّلَةً تعرفُها عائشة جيّداً. بتلك الطريقة يُلاطِفُ العمّالُ الحيوانات قبل أن يقتلوها، «تعالي إلى هنا يا صغيرة، تعالي»، ثم يأتي السّياجُ، والضرباتُ، والمسلخ. فتح أمين البابَ الآخر وحاول كلٌّ منهما أن يُمسكَ بالطفلة. تمكَّنَ والدُها من إخراجها فتعلَّقَتْ بالباب بإصرار، بقوة مدهشة.

تشكَّلَ تجمُّعٌ صغيرٌ حولهم. رثى البعضُ لحال ماتيلد التي، من طول عيشها في أقاصي البلد، بين الأهالي، صنعتْ من طفليها

متوحِّشَين. فتلك الصرخات، وتلك الهستيريا، من خصائص أهل البلد. «أتعرفون أنَّ نساءهم يخدشنَ وجوههنَّ إلى أن يُدمينَها ليُعبِّرنَ عن يأسِهِنَّ؟». لا أحد هنا يُخالِطُ أسرةَ بلحاج، لكن الجميع يعلمون تاريخ تلك الأسرة التي تعيش في طريق مدينة الحاجب، بعيداً عن وسط المدينة بخمسة وعشرين كيلومتراً، في مزرعة معزولة. فمكناس مدينة بالغة الصِّغر، شديدة الملل، فكان ذانك الزوجان الغريبان وقوداً مناسباً لأحاديث ساعات الظهيرة الحارقة.

*

في قصر الجمال، حيث كانت النسوةُ يذهبن لوضع عواقِصِ الشعر فوق رؤوسهنّ، والطِّلاءِ فوق أظفار أقدامهنّ، كان أوجين الحلاق يسخر من ماتيلد، الشقراء الطويلة، ذات العينين الخضراوين، التي تتجاوزُ قامةَ زوجها، المُغَيْربي، بعشرة سنتيمترات على الأقل. كان أوجين يُضحِكُ زبائنَهُ بإلحاحه على أوجه الاختلاف بينهما: أمين، بشعره الأسود المتدلّي فوق جبهته لدرجة تمنح نظرتَهُ قسوةً. وهي، بعصبية فتيات العشرين، وبمسحة من الذكورة، والعنف، وجلافةٍ دفعتْ أوجين إلى أن يمتنع عن استقبالها. كان الحلّاقُ يصفُ، بألفاظٍ منتقاةٍ، ساقيها الطويلتَين والصلبتَين، وفكَّها القويَّ، ويديها اللتين لم تكن تُضفي عليهما أيّ عناية، ثم رجليها الهائلتين، الطويلتين والمنتفختين، لدرجة أنها لم تكن تستطيع أن تنتعلَ سوى أحذية الرجال. البيضاء، والأسمر. العملاقة والضابط المكتنز. وكانت النساء يُقهقهن تحت خوذة نشّافة الشعر. لكن عندما يخطر على بال الجمهور أنَّ أميناً قد شاركَ في حرب التحرير، وأنَّهُ قد جُرِحَ ونالَ ميداليةً، فإنَّ الضحكات كانت تخِفُّ. وكانت النسوةُ

يشعرنَ أنَّ عليهنَّ أن يصمتن، وكان ذلك يجعلهنَّ أكثر لذعاً. كنَّ يقلن في أنفسهنَّ إنَّ ماتيلد غنيمة حرب غريبة. كيف تمكَّنَ ذلك الجنديُّ أن يُقنِعَ تلكَ الألزاسية القوية بأن تتبعه إلى غاية هذه الأرض؟ ما الذي كانت تَوَدُّ الفرارَ منه ليصل بها الحالُ إلى هذا المآل؟

*

تحلَّقَ الحاضرون حول الطفلة، وشرعوا يمحضون النصائح. وأزاحَ أحدُهُمْ ماتيلد وحاول أن يُعَقِّلَ عائشة. رفع ذراعيه في الهواء، مُذَكِّراً بالأب في السماء وبالمبادئ الأساس لكلِّ تربية حسنة. كانت ماتيلد تتعرَّضُ للدَّفع وهي تحاول أن تحميَ طفلتها. «لا تلمسوها، لا تقتربوا من ابنتي!». دمَّرَها الموقفُ، وعذَّبَتْها رؤيةُ بكاء ابنتها. أرادتْ أن تأخذها بين ذراعَيها، أن تُهدهدها وتعترف لها بأكاذيبها. أجل، لم تكن تلك الذكرياتُ المثاليةُ حول الصداقات الخالدة والمدرِّسين المخلصين سوى اختلاقاتٍ اخترعَتْها اختراعاً. في الحقيقة لم يكن مدرِّسوها لطفاء، وتحتفظ من المدرسة بذكرى ماء مثلّج كان عليها أن تغسل به وجهها في الفجر الأسود، وبالضربات التي كانت تتهاطل عليها، وبالطعام الرهيب، والأصائل التي كانت تقضيها موجوعةَ البطن من شدة الجوع، والخوف، والرغبة في التِفَاتَةِ حنان. كانت ترغب في أن تصيحَ بابنتها هيَّا لنعُدْ إلى بيتنا. لننْسَ هذا الأمرَ كلَّه. لنرجعْ إلى بيتنا وستكون الأمورُ كلُّها على ما يُرام، سأعرفُ كيف أتصرَّفُ، سأعرفُ كيف أُعَلِّمُها. غير أنَّ أميناً رماها بنظرة سوداء. إنها توهِنُ الصغيرةَ، بكثرة إدلالها، ومداعباتها السخيفة. ثم، أليست هي التي أرادت أن تُسجِّلها هنا، في مدرسة

الفرنسيين هذه، حيث يُطِلُّ جرسُ كنيسةٍ، وحيث تُقامُ الصلواتُ من أجل إله غريب. وأخيراً ابتلعت ماتيلد دموعها، ومدَّتْ ذراعيها، دون اقتناع، نحو ابنتها. «تعالي، تعالي حبيبتي، تعالي يا صغيرتي».

كانت منشغلةً بطفلتها، فلم تنتبه إلى أنهم يسخرون منها، وإلى تلك العيون التي تَخفِضُ نظراتِها لتفحص حذاءيها الغليظين من جلد ذابل. كانت الأمهاتُ يتهامسن خلف أصابعهنَّ الملفوفة في القفازات. يستنكرنَ ويضحكن. غير أنهنّ تذكَّرن أمام قضبان سياج المدرسة الداخلية نوتردام، أنهنّ يتوجب عليهنّ أن يتَّصِفن بالرحمة، لأنَّ المولى ينظر إليهنَّ.

كان أمين يمسكُ بابنته من وسطها، غاضباً. «ما هذا السيرك؟ أطلقي هذا الباب! لا تتشبَّثي به هكذا! عليكِ أن تكوني مهذَّبة. إنكِ تُخجلينا أمام الناس». ارتفع فستانُ ابنته إلى غاية الحزام فبرزَ سروالُها الصغير. وكان حارسُ المدرسة يراقبُهم بقلق، لكنه لم يجرؤ على التدخُّل. إبراهيم شيخٌ مغربيٌّ ذو وجه مستدير وودود. يعتمرُ، فوق رأسه الأصلع، قبعةً صوفيةً صغيرة. وكانت سترتُهُ الزرقاء، أكبر منه، ومكويّةً بعناية. كان الوالدان لا يُفلِحان في تهدئة تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تبدو كأن بها مسّاً من الجن. كان حفل الدخول المدرسيِّ سيؤولُ إلى الفشل، وستغضبُ الراهبةُ الأُمُّ الرئيسةُ عندما ستعلمُ بتلك الملهاة التي دارتْ أطوارُها أمامَ سياج باب مؤسَّستها الموقَّرة. ستحاسبُهُ على ذلك، وستُعاقبه.

اقتربَ الحارسُ الشيخُ من السيارة، وحاول، بكلِّ لطفٍ ممكن، أن يحرِّرَ الأصابعَ الصغيرة التي كانت تتشبَّثُ بالباب. خاطبَ أميناً بالعربية: «أنا أمسكُ بها، وأنتَ تنطلقُ بالسيارة. مفهوم؟» هَزَّ أمين رأسه. أشار بذقنه إلى ماتيلد التي صعدت إلى مكانها في السيارة. لم

يشكر الشيخَ. ما أن أرخَتْ عائشة قبضَتَها حتى تحرّكت السيارةُ، وابتعدتْ، ولم تعرف عائشة هل نظرتْ إليها أمُّها نظرةً أخيرة. وهكذا تخلَّيا عنها.

وجدتْ نفسَها فوق الرصيف، وقد انفرطَ فستانُها الذي ضاع منه زِرٌّ من أزراره. كانت عيناها محمرَّتين من البكاء، والرجلُ الذي يمسكُ بيدها ليس والدَها. «لا أستطيعُ أن أرافقكِ داخل الساحة. يجب أن أبقى هنا، عند السياج. هذا عملي». وضعَ يدَهُ على ظهر الطفلة ودفعَها إلى الداخل. هزَّتْ عائشة رأسها مطيعَةً. وشعرتْ بالخجل. هي التي كانت تريد أن تظلَّ غير مرئية مثل يعسوب صغير، ها هي قد أثارتْ إليها انتباهَ الجميع. تقدَّمَتْ في المَمَرِّ الذي كانت تنتظرها عند آخره الأخواتُ، مصطفّاتٍ أمامَ حجرة الفصل، وقد ارتدين عباءات سوداء طويلة.

ولجَتْ حجرةَ الفصل. كانت التلميذاتُ قد سبقْنَها إلى أماكنهنَّ ويتفحَّصْنَها باسماتٍ. انتاب عائشةَ هلعٌ شديدٌ جلبَ لها الرغبةَ في النوم، حيث امتلأ رأسُها بالطنين، وكانت على يقين أنها لو أغمضتْ عينيها فستهوي تَوّاً في نومٍ عميق. أمسكتْ بها أُختٌ من كتفها. كانت تحمل ورقةً في يدها. سألتْها: «ما اسمكِ؟»، رفعتْ عائشة عينيها، دون أن تُدرِكَ ما يُطلَبُ منها. كانت الراهبةُ شابّةً، وأُعْجِبَتِ الطفلةُ بوجهها الجميل، ذي البشرة الشديدة الشحوب. كرّرت الأختُ سؤالَها، وانحنَتْ إلى مستوى عائشة التي همستْ أخيراً: «اسمي مْشيشَة».

عقدتِ الأختُ حاجبيها. وعدّلت النظارتَين اللتين كانتا قد انزلقتا فوق أنفها، وأَكَبَّتْ مرّةً أخرى على قائمة التلاميذ. «آنسة بلحاج. آنسة عائشة بلحاج، تاريخ الميلاد 16 نوفمبر 1947».

التفتت الطفلةُ. نظرتْ خلفها، كأنها لم تُدرِك إلى مَنْ كانت الراهبةُ تُوجِّهُ خطابَها. لم تكن تدري مَنْ هم أولئك الناس، وحبَسَتْ نشيجاً في صدرها. أخذَ ذقنُها يرتعش، وأنشبَتْ أظفارَها في لحم ذراعيها. ما الذي حدث؟ ما الذي اقترفَتْهُ لتستحقَّ أن تُحْبَسَ هنا؟ متى ستعود ماما؟ وجدت الأختُ صعوبةً في تصديق الأمر، لكن كان عليها أن تُسَلِّمَ بأنَّ هذه الطفلة لا تعرفُ اسمَها.

«آنسة بلحاج، اجلسي هناك، قرب النافذة».

لا تعقلُ أنها سمعتْ، طوال حياتها، سوى ذلك الاسم، «مْشيشَة». فهذا هو الاسم الذي تصيح به أمُّها من درج مدخل البيت عندما تريد أن تعود ابنتُها من أجل العشاء. هذا هو الاسم الذي كان يتطاير بين الأشجار، ويتدحرجُ من التلَّةِ على لسان البدويّين الذين يبحثون عنها وينتهون إلى العثور عليها وقد تكوَّمتْ على نفسها، نائمةً، إلى جذع شجرة. «مْشيشَة»، كانت تسمع هذا الاسم، وما كان ليوجد اسمٌ آخر، بما أنَّ هذا هو الاسم الذي كان يهُبُّ مع الرياح، ويُضحِكُ النساءَ الأمازيغيات اللواتي كُنَّ يحتضِنَّها كأنها إحدى أطفالهنّ. هذا الاسم، هو الاسم الذي كانت أمُّها تتغنّى به ليلاً وهي تروي لهما ما تختلقُهُ من حكاياتٍ من أجلهما. إنه آخر صوتٍ كانت تسمعُهُ قبل أن تنام ويسكُنُ أحلامَها منذ ولادتها. «مْشيشَة»، الهُرَيْرَةُ. كانت يِطُّو العجوزُ حاضرةً يومَ ولادتها، وقالت لماتيلد إنَّ صرخات الوليدة تُشبِهُ المُواءَ، وأطلقتْ عليها ذلك الاسم. وعلَّمَتْ ماتيلد كيف تُعلِّقُ الطفلةَ على ظهرها بواسطة ثوب كبير. «هكذا تنامُ هي وأنتِ تعملين». وجدتْ ماتيلد الأمر مُسلِّياً، فكانت تقضي النهار على تلك الحال، وقد التصقَ فَمُ طفلتها برقبتها، فيغمُرُها ذلك الحنان.

جلستْ عائشة في المكان الذي أشارتْ إليه المعلِّمةُ، قرب النافذة، خلفَ الجميلة بلانش كوليني. التفتَت التلميذاتُ بنظراتهنَّ نحو عائشة، فشعرتْ أنَّ ذلك الاهتمامَ المفاجئ يُهدِّدُها. أخرجَتْ لها بْلانْشْ لسانَها، وقهقَهَتْ وهي تغرسُ مرفَقَها في بطن جليستها. وقلَّدَت الطريقةَ التي تحُكُّ بها عائشة جسمَها بسبب الصوف الرخيص الذي تستعملُهُ أمُّها في خياطة سراويلها القصيرة. استدارتْ عائشة نحو النافذة، وأخْفَتْ وجهَها في مرفقها. واقتربتْ منها الأختُ ماري-سولانج.

«ماذا بكِ، آنسة، أتبكينَ؟

- لا، لستُ أبكي. أنامُ القيلولة».

مكتبة
t.me/t_pdf

كانت عائشة تجرُّ معها حِمْلاً ثقيلاً من الخزي. خزيٌ من ملابسها، التي كانت أُمُّها تخيطها من أجلها. ومن وزرتها الباهتة التي كانت أمُّها تضيف إليها أحياناً تزويقاً، وروداً فوق الكمَّين، وحاشيةً زرقاء في مستوى العنق. لكن لا شيء من ذلك كان يبدو جديداً، ويبدو كأنه ليس لباسَها، وتجده بالياً. وكانت تخجلُ من شَعرها. تُثقِلُ كاهلَها تلكَ الكُتلةُ الفوضويةُ والمجعَّدةُ، التي يستحيلُ مشطُها، وما أن تصل إلى المدرسة حتى تنفلتَ من المشابك التي تعبتْ ماتيلد في تثبيتها. لا تدري ماتيلد ما تصنعُهُ بشعر ابنتها. لم يسبق لها أن رَوَّضَتْ مثل ذلك العُرف النّافر. يتكسَّر الشعرُ الشديد الدِّقّة تحت ضغط المشابك، ويحترقُ تحت المكواة، ويصمُدُ أمام المشط. طلبت النصيحة من مِّي لالَّة، حماتها، لكن هذه هزَّت كتفيها. لم يسبق لامرأة من عائلتها أن عانت من شعر مجعَّد بهذا الشكل. ورثت عائشة الشَّعر عن أبيها، لكن أميناً كان يقصُّهُ قصيراً جدّاً مثل العسكر. وتسبَّبت كثرةُ ذهابه إلى الحمَّام البلدي، حيث يصبُّ الماءَ الحارقَ على رأسه، في ضمور البصيلات وتوقف الشَّعر عن النموّ.

كانت عائشة تتعرَّضُ، بسبب شعرها، لأكثر السخريات إذلالاً.

كانت جميعُ العيون تتوجَّهُ إليها في ساحة المدرسة. خيال ضئيل، ووجه عفريتة، وشعر كثيف، انفجار من الخصلات الشقراء الشعثاء التي تصنع لها، عند تعرُّضها للشمس، إكليلاً مذهَّباً. كم مرة حلمت بشعر بلانش؟ كانت تقف أمام المرآة، في حجرة أمِّها، وتُخفي شعرها بيديها، وتحاولُ أن تتخيَّلَ صورتَها لو كانت تملكُ خصلات شعر بلانش الطويلة والحريرية. أو لو كانت لديها ضفائر سوداء مثل سيلڤي. أو جدائل نيكول الهادئة. كان عمُّها عمر يُمازحها، ويقول لها إنها ستجد صعوبة في العثور على عريس، وإنها تُشبِهُ فزَّاعةً. أجل، كان رأس عائشة يبدو كأنه تغطّيه حزمةُ تبن. كانت تشعر أنها سخيفةٌ في مظهرها، وفي كامل شخصها.

كانت الأسابيعُ تنصرمُ متماثلة. تستيقظ عائشة، كلَّ صباح، عند الفجر، وتركع على ركبتَيها في الظلام، عند طرف سريرها، تتوسَّلُ إلى المولى ألَّا يحدث طارئٌ يؤخِّرها عن المدرسة. لكن دائماً يحدث شيءٌ ما. مشكل في موقد المطبخ الذي ينبعثُ منه دخانٌ أسود. مشاجرة مع أبيها. الصيحات في الممرِّ. وأمها التي تصل أخيراً، وتُسوِّي شعرها ووشاحَها. وتمسحُ دمعةً بظاهر يدها. تريد أن تحتفظ بوقارها، ثم ينفد صبرُها، فترجعُ، وتشرعُ في الصراخ بأنها تريد أن ترحل من هنا، وأنها ارتكبت خطأ حياتها، وأنها غريبة. وأنَّ أباها لو علم بالأمر لهَشَّمَ فَمَ هذا الزوج الكثير الصياح. كان أبوها بعيداً. فتستسلم ماتيلد. تنادي على ابنتها التي تنتظرها بهدوء عند الباب. كانت ابنتُها تودُّ أن تقول لها: «ألا يمكننا أن نُسرِعَ؟ أريد أن أصل، ولو مرة، غير متأخرة إلى المدرسة».

كانت عائشة تلعنُ السيارة التي ابتاعها والدُها من الجيش الأميركي بثمن معقول. حاول أمين أن يكشط العلمَ المرسومَ على

غطاء محرِّك السيارة، لكنه خشيَ أن يُتْلِفَ الصفيحة، فكانت آثارُ النجمات المقشورة وقطعة من خط أزرق لا تزال ظاهرة على هيكل السيّارة. لم تكن شاحنةً صغيرةً قبيحةَ المنظر فحسب، بل كانت متقلِّبةَ المزاج كذلك. عندما كانت ترتفع درجة الحرارة، ينبعثُ دخانٌ رماديٌّ من غطاء المحرِّك، فيتوجَّبُ انتظار عودة البرودة إلى المحرِّك. وفي الشتاء، لا يشتغل المحرِّكُ. «يجب أن تسخن»، كانت تُرَدِّدُ ماتيلد. وكانت عائشة تنسب إليها مسؤوليةَ جميع مآسيها وتلعنُ من أجل ذلك أميركا، التي كان الكلُّ يُمجِّدُها. «ليسوا سوى لصوص، عاجزين، وتافهين»، كانت تُردِّد عائشة ذلك، بغضبٍ، في كل حين. فقد كانت هدفاً لسخرية رفيقاتها بسبب تلك السيارة القديمة -«يتوجب على والديكِ أن يشتريا لكِ حماراً! بذلك تستطيعين أن تَصِلي في الوقت!»- ولتوبيخ الأمِّ الرئيسة.

كان أمين قد أفلحَ في تثبيت مقعد صغير في الخلف، بمساعدةٍ من أحد العمّال. وتجلس عائشة وسطَ الأدوات، وسلال الفواكه والخضروات، التي كانت أمُّها تبيعها في سوق مكناس. ذات صباح، أحسّت الطفلةُ، وهي لا تزال نصف نائمة، بشيء ما يتحرَّكُ عند ربلة ساقها الصغيرة، فأطلقتْ صرخةً، وكادت ماتيلد تنزاح بالسيارة عن الطريق. «أحسستُ بشيء ما»، بَرَّرَت الطفلةُ صيحتَها، لكن ماتيلد لم تشأ أن تتوقَّفَ والمخاطرةَ بألّا تتحرّكَ السيارةُ من جديد. «ما ذاك إلا من أوهام خيالكِ مرة أخرى»، وبَّخَتْها أُمُّها وهي تُمَرِّرُ يديها تحت إبطيها المبلولين. وعندما ركنت السيارة قرب سياج المدرسة الداخلية وقفزت عائشة إلى الرصيف، أطلقتْ عشراتُ الفتيات، اللواتي كنَّ يتزاحمن حول الباب، صرخاتٍ عاليةً. وتعلَّقْنَ بسيقان أمّهاتهنَّ، بينما شرعت أخرياتٍ في الجري في اتجاه الساحة.

وأُغْمِيَ على إحداهنَّ، أو افتعلَتْ ذلك. نظرتْ ماتيلد وعائشة بعضهما إلى بعض، دون أن تفهما شيئاً، ثم أبصرتَا إبراهيم يشيرُ إلى شيء بإصبعه ضاحكاً. «انظُرا ما جلبتُما معكُما»، كان يقول متسلِّياً. كانت أفعى طويلة قد طلعت من خلفية السيارة وتزحفُ، على مهل، خلفَ عائشة، مثل كلبٍ وفيٍّ يتبع صاحبَهُ في نزهة.

وعندما حلَّ الشتاءُ في شهر نوفمبر، كان عليهما أن تواجها الصباحات السوداء. تُمسكُ ماتيلد بيد ابنتها، وتجرُّها في الممَرِّ، بين أشجار اللوز المغطّاة بالصقيع، وعائشة ترتعش. لا تسمعان في الفجر المظلم سوى صوت أنفاسهما. لا صوتَ حيوان، ولا صوتَ آدميٍّ يكسرُ الصمتَ. تركبان السيارةَ البليلَةَ، وتُشَغِّلُ ماتيلد المحرِّكَ، لكنه يبصُقُ. «يجبُ أن تسخن، هذا لا شيء». وتظلُّ السيّارةُ المتجمِّدَةُ تسعلُ مثل من أصابهُ السُّلُّ. وتستبدُّ أحياناً بعائشة نوبةُ سعار، فتبكي، وتركُلُ العجلات، وتلعنُ المزرعةَ، ووالديها، والمدرسة. وتنطلقُ صفعةٌ. تخرج ماتيلد من السيارة وتدفعها في المنحدر، إلى أن تصل إلى البوابة عند طرف الحديقة. يكاد عِرْقٌ ينفجر وسط جبهتها. فيُخيفُ وجهُها المحتقِنُ عائشةَ ويروعُها. وتنطلقُ أخيراً السيارةُ، لكن يكون عليها بعد ذلك أن تصعد عقبةً كأداءَ، فيتعالى شخيرُ السيارة العجوز، وتنتهي في الغالب إلى التوقُّف.

ذات يوم، أخذتْ ماتيلد تضحكُ، على الرغم من الإنهاكِ والخجل من الاضطرار إلى قرع جرس سياج المدرسة الداخلية. كان صباحاً من شهر ديسمبر، بارداً لكن مشمساً. كانت السماء بالغة الصفاء بحيث كان في الإمكان رؤية جبال الأطلس مثل لوحة مائية معلَّقَةٍ في السماء. صاحت ماتيلد بصوت جهوريٍّ: «أعزائي الرُّكّاب،

اربطوا أحزمتكم، سننطلِقُ بعد قليل!» ضحكتْ عائشة واستندتْ بظهرها إلى المقعد. أصدرت ماتيلد أصواتاً عالية بفمها وتعلَّقَتْ عائشة بالباب، مستعدَّةً للطيران. أدارت ماتيلد المفتاحَ، وضغطَتْ على دوَّاسَةِ السرعة، فغمغمَ المحرِّكُ قبل أن يُصفِّرَ مثل مريض مصابٍ بالرَّبو. وأعلنتْ ماتيلد استسلامَها. «نرجو أن تعذرونا، أعزاءنا الركّاب، لكن يبدو أنَّ قوة المحرِّكات ليست كافيةً، ويحتاج الجناحان إلى إصلاح صغير. لا نستطيعُ الطّيران اليوم، وسيكون علينا أن نكمل السير في الطريق. لكن اعتمِدوا على رُبَّانِكُم العزيز: بعد أيام قليلة سنطير!» كانت عائشة تُدركُ جيّداً أنَّ السيارة لا تستطيع أن تطير، وعلى الرغم من ذلك، ظلتْ لسنواتٍ لا تقتربُ من تلك الطريق الصاعدة، إلا وخفق قلبُها بقوة وهي تقول في نفسها: «سيحدثُ ذلك اليومَ!». لم تكن تستطيع أن تمتنع، وإنْ كان الأمر مستحيلاً، من أن تأملَ في أن تتوغَّلَ الشاحنةُ الصغيرةُ في السحاب، وأن تحملهما إلى أماكن جديدة، حيث يمكنهما أن تضحكا مثل مجنونتَين، وحيث ستنظران من زاوية أخرى إلى هذه التَّلَّةِ البعيدة عن كلِّ شيء.

كانت عائشة تكرهُ ذلك البيت. ورثتْ حساسيةَ أُمِّها، واستنتج أمين من ذلك أنَّ النساء جميعهنَّ متماثلات، هلوعاتٍ ومُرهَفاتٍ. كانت عائشة تخاف من كل شيء. من البومة فوق شجرة الأفوكادو، والتي يُنذِرُ حضورُها، وفق العمَّال، بموتٍ وشيكٍ. ومن الثعالب، التي كان عواؤها يمنعها من النوم، ومن الكلاب التي كانت تهيمُ، بارزةَ الضُّلوع، موبوءةَ الصدور. كان أبوها قد حذَّرَها: «إذا خرجتِ للتجوُّلِ، خُذي معكِ حجارة». وكانت تشكُّ في قدرتها على الدفاع عن نفسها، وأن تستطيع إبعادَ تلك الحيوانات المتوحشة، لكنها تملأُ مع ذلك جيوبَها بالحجارة التي تتصادمُ عندما تسير.

وكانت عائشة تخاف، كلَّ الخوف، من الظلام. من الظلمة العميقة، الكثيفة، اللانهائية، التي تحيط بمزرعة والديها. كانت سيارةُ أُمِّها، بعد أن تغادر المدرسةَ مساءً، تسلك طُرُقَ البادية، وتبتعد أضواءُ المدينة، فتلجانِ عالَماً معتِماً وخطيراً. تتقدَّمُ السيارةُ داخل الظلمة مثل من يلجُ كهفاً أو يتوغَّلُ في الرمال المتحرِّكة. في الليالي التي يغيب فيها ضوءُ القمر، يتعذَّرُ تمييزُ حتى شبح شجر السَّرو العظيم أو ظلّ أكوام التِّبن. تبتلعُ الظُّلماتُ كلَّ شيء. تحبسُ عائشة أنفاسَها. وتُرَتِّلُ صلواتٍ ربّانيةً وأدعيةً ملائكيةً. وتُفكِّرُ في

يسوع الذي عانى عذاباتٍ رهيبةً، وتُكَرِّرُ لنفسها: «أنا لن أستطيع ذلك».

كانت الإنارةُ تومِضُ في البيت، ضعيفةً وكئيبةً، فتظلُّ عائشة تحيا في قلقٍ دائمٍ خشيةَ انقطاع الكهرباء. كثيراً ما كان عليها أن تعبر المَمَرَّ مثل عمياء، وقد أطبَقَتْ يديها على الجدران، وامتلأ خدَّاها بالدموع، وهي تصيح «ماما! أين أنتِ؟». وكانت ماتيلد بدورها تحلمُ بالنُّور، وتحُثُّ زوجَها باستمرار. كيف ستُنجِزُ عائشة واجباتها إن تكن مضطرّةً لتستنزفَ عينيها في دفاترها؟ كيف يستطيع سليم أن يجريَ ويلعب عندما يرتعش من الخوف؟ كان أمين قد اقتنى مُوَلِّدَ كهرباء يسمح بشحن البطاريات، ويستعمله أيضاً، في الطرف الآخر من المزرعة، لِضَخِّ ماء الحيوانات وسقي الحقول. وعندما يغيبُ، تفرُغُ البطارياتُ سريعاً ويصير لمعانُ المصابيح بئيساً. فكانت ماتيلد، حينئذ، تُوقِدُ الشموعَ وتدَّعي أنها تجد تلك الإضاءةَ جميلةً ورومانسية. كانت تحكي لعائشة قصص دوقاتٍ وماركيزاتٍ من النبلاء، والحفلات الراقصة في قصور رائعة. كانت تضحكُ، غير أنّها كانت في الحقيقة، تُفَكِّرُ في الحرب، في إطفاء الأنوار أثناء الغارات الجوية التي لعَنَتْ في أثنائها قومَها، وفي التضحيات وضياع أعوامها السبعة عشر. وبسبب الفحم، الذي كان يُستخدَمُ في الطبخ، وتسخين البيت، كانت ملابسُ عائشة تضوعُ منها رائحةُ سُخام تصيبُها بالغثيان وتثير ضحكَ رفيقاتها. «عائشة تفوحُ منها رائحةُ اللحم المُقَدَّد»، تصيحُ التلميذاتُ داخل الساحة. «عائشة تعيش مثل البربريّات، داخل أكواخ البادية».

أقامَ أمين مكتبَهُ في الجناح الغربيِّ من البيت. وعلَّقَ على جدران تلك الحجرة، التي كان يُسمِّيها «مختبري»، صوراً تحفظُ

عائشة عناوينَها عن ظهر قلب. «عن زراعة الحمضيات»، «حجم الكَرْمة»، «علم النبات التطبيقي في الزراعة المدارية». لم يكن لتلك اللَّوحات بالأبيض والأسود أيّ معنى في نظرها، وكانت تعتقد أنَّ أباها هو نوعاً ما ساحرٌ، قادر على التأثير في قوانين الطبيعة، والحديث إلى النباتات والحيوانات. وذات يوم، وبينما هي تصرخُ بسبب خوفها من الظلام، رفعها أمين فوق كتفيه وخرجا إلى الحديقة. لم تكن تستطيع أن تُمَيِّزَ حتى طرف حذاء أبيها من شدة الدجى. رفعتْ ريحٌ باردةٌ قميصَ نومها، وأخرجَ أمين شيئاً من جيبه وقدَّمَهُ لعائشة. «هذا مصباح كهربائي. حَرِّكيهِ نحو السماء ووجِّهي الضوءَ إلى عيون الطيور. إن تمكَّنْتِ من ذلك، فستخافُ خوفاً شديداً يُصيبُها بالشَّلل ويمكنكِ عندئذ أن تُمسكي بها بيديك».

في مرة أخرى، طلب من ابنته أن ترافقه في حديقة الزينة الصغيرة التي كان قد تخيَّلها من أجل ماتيلد. كان يوجد بها شُجيرةُ لَيْلَكٍ، وخميلةُ ورديات، وشجرةُ جَكَرَنْدا لم تُزْهِرْ أبداً. وتحت نافذة الصالة كانت تنمو شجرةٌ ترزحُ غصونُها المعوجَّةُ تحت ثقل البرتقال. أظْهَرَ أمين لعائشة غصنَ الليمون الذي كان يحملُهُ في يده، وأشار بأنملة سبّابته، التي كان أُظفُرُها دائماً معفَّراً بالتراب، إلى البُرعمَين الغليظَين الأبيضَين النابتَين على الغصن. وشَقَّ بواسطة سكّينٍ جذعَ شجرةِ البرتقال شقّاً عميقاً. «انظري الآنَ جيِّداً». أدرجَ أمين باحتراس طرفَ غصن الليمون، المقطوع على شكل ترسٍ، داخل الشَّقِّ الذي خلَّفه على الشجرة. «سأطلُبُ من عامِلٍ أن يضعَ عليه معجوناً وأن يربطه. ومن جهتكِ أنتِ، عليكِ أن تجدي اسماً لهذه الشجرة العجيبة».

كانت الأخت ماري-سولانج تحبُّ عائشة. كانت شديدة الافتتان بتلك الطفلة، وتتنبَّأُ لها بطموحاتٍ عظيمة، فالصغيرة تملكُ روحاً صوفيةً، وإذا كانت الأمُّ الرئيسةُ تُشَخِّصُ في ذلك ضرباً من الهيستيريا، فإنَّ الأخت ماري-سولانج، ترى في الأمر نداءً ربَّانياً. تذهب الفتياتُ، كلَّ صباح، قبل بداية الفصل، إلى الكنيسة الصغيرة الموجودة عند نهاية طريقٍ حَصَوِيٍّ. وتصل عائشة دائماً متأخِّرةً، لكنها ما أن تجتاز سياجَ المدرسة الداخلية حتى يتعلَّقَ نظرُها كلُّهُ ببيت الرَّبِّ. تقصدُهُ بعزْمٍ ورزانة يفارقان سِنَّها. كان يحدث أن تركع على ركبتيها، بضعةَ أمتارٍ قبل الباب، وأن تتقدَّمَ على ذلك النحو، مصلوبةَ الذراعين، مطمئنَّةَ الوجه، تخترقُ الحصى لحمَها. فإذا رأتْها الأمُّ الرئيسةُ على تلك الحال، أنهضتْها بعنف. «لا أستحِبُّ هذا المشهد الودود، يا آنسة. إنَّ الرَّبَّ مُطَّلِعٌ على القلوب الصادقة».
كانت عائشة تحبُّ الرَّبَّ وقالت ذلك للأخت ماري-سولانج. تحبُّ يسوع الذي يحتضنُها، عارياً، في الصباحات المتجمِّدة. قيلَ لها إنَّ المعاناةَ تُدني من السماء. وكانت تؤمنُ بذلك.

ذات صباح، عند نهاية القُدَّاس، فقدتْ عائشة وعيَها. لم تستطع أن تنطق بكلمات الصلاة الأخيرة. وكانت ترتعد داخل

الكنيسة الصغيرة المتجمِّدة، وقد غطَّتْ كتفَيها النحيفتَين بسترةٍ بالية. لم تُدَفِّئها الأناشيدُ، ورائحةُ البخور، وصوتُ الأخت ماري-سولانج القويُّ. ابيضَّ وجهُها، وأغمضتْ عينَيها، وتهاوَتْ على الأرض الحجرية. واضطرَّتِ الأختُ ماري-سولانج إلى أن تحملها على ذراعَيها. تضايقت التلميذاتُ من ذلك المشهد. وكُنَّ يقلْنَ إنَّ عائشة، ما هي إلا ضفدع جُرْنِ الماء المقدَّس، وقدّيسة زائفة، ومعتوهة في المستقبل.

مَدَّدْنَها في الصالة الصغيرة التي كانت تُستخدَمُ مستوصَفاً. وقبَّلَتْ الأختُ ماري-سولانج خدَّيها وجبهتَها، فهي لم تكن، في الحقيقة، قلقةً على صحَّةِ الصغيرة. ففقدانُها الوعي دليل على أنَّ حواراً قد نشأ بين ذلك الجسد النحيل وجسد الرَّبِّ، غير أنَّ عائشة لم تكن قادرةً بعدُ على إدراكِ عمق ذلك الحوار وجماله. سَفَّت عائشة الماءَ وأبعدتِ السُّكَّر الذي كانت الأخت ماري-سولانج تدعوها إلى مَصِّهِ. ادَّعتْ أنَّها لا تستحقُّ تلك الحلوى. غير أنَّ الأخت ماري-سولانج ألحَّتْ عليها، فأخرجت عائشة لسانَها المدَبَّبَ وقضمت السكَّر بضِرسِها.

طلبتْ أن تعودَ إلى الفصل. قالت إنها تشعُرُ أنها بخير، وإنها لا تريد أن تتأخَّرَ في دروسها. اتَّخذتْ مجلسها المعتادَ خلف بلانش كولينيي، ومَرَّ الصباحُ هادئاً مطمئنّاً. لم تنقل عينيها عن رقبة بلانش، كانت متورِّدَةً وسمينةً، يغطّيها شعر أشقر خفيف. كانت الفتاةُ الصغيرةُ لديها شعرٌ معقوصٌ بكعكةٍ، فوق قمة رأسها، مثل راقصة باليه. كانت عائشة تقضي، كلَّ يوم، الساعاتِ تتأمَّلُ ذلك العنق. كانت تعرفُهُ عن ظهر قلب. تعرفُ أنَّ انتفاخاً صغيراً يتشكَّلُ فوق كتفَي بلانش عندما تنحني من أجل الكتابة. وأثناء فترة ارتفاع

الحرارة في شهر سبتمبر، امتلأتْ بشرةُ بلانش ببقعٍ حمراء تستحِكُّها. فجعلت عائشة تتفحَّصُ أظفارَها الملطَّخَة بالمداد التي كانت تحكُّ الجلدَ حدَّ الدَّم. كانت قطراتُ العرق تسيلُ من جذور شعرها إلى غاية ظهرها، فتتبلَّلُ أطواقُ فساتينها ويصفَرُّ لونُها. وكان عنقُها، داخل حجرة الفصل الشديدة الحرارة، يتلوّى مثل عنق إوزَّة كلما ضعفَ الانتباهُ، وازداد الإحساسُ بالتعب، فيحدثُ أن تغفو بلانش في أثناء ما بعد الظهيرة. لم تكن عائشة تلمسُ أبداً بشرةَ زميلتها. كانت تشعر أحياناً برغبة في أن تمدَّ يدَها، وأن تتحَسَّسَ بأناملها تضاريسَ الفقرات، وتداعبَ الخصلات الشقراء النافرة التي تُذَكِّرُها بريش فرخٍ. كانت تحبسُ نفسَها من أن تُدْنِيَ أنفَها من ذلك العنق الذي كانت تودُّ لو تستنشق رائحته، وتكتشفَ طعمهُ بطرف لسانها.

في ذلك اليوم، رأت عائشة رعشةً تعبُرُ القفا، ووقفَ الشَّعَرُ الأشقرُ مثل شعر هِرٍّ مستعدٍّ للقتال. تساءلتْ عن سبب تلك الإثارة، أم أنها الريح الباردة التي هَبَّتْ من النافذة التي فتحتْها الأختُ ماري-سولانج؟ لم تكن عائشة تسمعُ صوتَ المعلِّمة، ولا احتكاك الطبشور بالسبورة. كانت قطعةُ اللحم تلك تُجَنِّنُها. لم تعد قادرة على الصبر. أمسكت بالبركار، وبحركةٍ سريعة، أغمدت النَّصْلَ في بشرة بلانش البيضاء. استلَّتْهُ منها في الوقت نفسه تقريباً ومسحتْ، بين السبّابة والإبهام، قطرةَ دمٍ.

أطلقتْ بلانش صرخةً، فالتفتَتْ الأختُ ماري-سولانج وكادت تسقطُ من المصطبة. «آنسة كولينيي! ما الذي دهاكِ لتصرخي بهذه الطريقة؟».

انقضَّتْ بلانش على عائشة، وشَدَّتْها من شعرها بكلِّ ما تملكُ من قوة. كان وجهها ممتقعاً من الغضب. «إنها هي، هذه السَّعفة!

شكَّتْني في عنقي!» لم تتحرّك عائشة. خفضتْ رأسَها، أمام الهجوم، وكوَّرَتْ ظهرها، ولم تنبس ببنت شفة. أمسكتْ الأختُ ماري-سولانج بذراع بلانش، وسحبتْها نحو مكتبها بخشونةٍ لم تعهدْها التلميذاتُ منها.

«كيف تجرئين على اتِّهامِ الآنسة بلحاج؟ من في إمكانه أن يتصوَّر أنَّ عائشة قادرةٌ على إتيانِ مثل هذا الأمر؟ إني أُخَمِّنُ وجودَ مشاعر لئيمة من وراء هذا كلِّه.

- لكنني أُقسِمُ لكِ على ذلك!» صاحت بلانش التي وضعتْ يدها على قفاها وفحصتْ كفَّها لعلَّها تعثُرُ على أثر للاعتداء. لكنها لم تكن تنزفُ، وأمرَتْها الأختُ ماري-سولانج بأن تنقل بخطٍّ مضبوطٍ: «لن أتَّهِمَ زملائي بإساءاتٍ مختَلَقة».

في فترة الفسحة، وجَّهتْ بلانش نظراتٍ مسمومةً إلى عائشة، كأنها تقول لها: «انتظري انتقامي، فلن يتأخَّر». تأسَّفتْ عائشة لكون الهجوم لم تكن له النتيجة التي كانت تتوخّاها. كانت تتوقعُ أن يفرغَ جسدُ زميلتها مثل كرةٍ عندما تُثقَبُ بإبرة، ويصير مجرَّدَ غلافٍ مترهِّلٍ وغير مُؤْذٍ. لكن بلانش كانت لا تزال حيَّةً، وتقفزُ وسط الساحة، وتُضْحِكُ زميلاتها. تستندُ عائشة بظهرها إلى جدار حجرة الفصل، مديرةً وجهها صوبَ شمس الشِّتاء التي تدفئُ عظامَها، وتراقبُ الفتيات الصغيرات اللواتي يلعبن في الساحة حيث غُرست أشجارُ الموز. تُخفي المغربياتُ أفواههنَّ بأيديهنَّ ويتهامسن بالأسرار. كانت عائشة تجدهنَّ جميلاتٍ بشعرهنَّ الأسود الطويل المضفور، تحبسُهُ عصابةٌ رقيقة بيضاء فوق الجبهة. كنَّ، في الغالب، داخليّاتٍ وينمنَ في المدرسة. ويوم الجمعة يلتحقن بأُسَرِهِنَّ في الدار البيضاء، أو فاس، أو الرباط. مدن لم تزرها عائشة أبداً، وتبدو لها بعيدةً بُعْدَ

الألزاس مسقط رأس ماتيلد، أمّها. ذلك أنَّ عائشة لم تكن فتاةً من الأهالي خالصةً، ولا من تلك الأوروبيات، بنات البدويين، والمغامرين، وموظفي الإدارة الاستعمارية اللواتي يقفزن، وقد جمعن أرجلهنَّ، في لعبة الحجلة. لم تكن تدري ما هي، فكانت تبقى منعزلةً وحدَها، مستندةً إلى جدار حجرة الفصل الحارق. «ما أطول هذا، قالت عائشة في نفسها. ما أطول هذا. متى سأرى أمي من جديد؟».

في المساء، هرعت الفتياتُ صائحاتٍ إلى سياج المدرسة الداخلية. كانت عطلة أعياد رأس السنة. صَرَّ الحصى تحت الأحذية اللامعة، وغطّى الغبارُ الأبيضُ المعاطفَ الصوفيةَ. ودهمتِ التلميذاتُ عائشةَ وهنَّ يجرين مثل سرب نحلٍ طنّان وعصبيٍّ. تجاوزت السياجَ، وأشارت بيدها للأخت ماري-سولانج وتوقفت فوق الرصيف. لم تكن ماتيلد هناك. نظرت عائشة إلى زميلاتها وهنّ يغادرن ملتصقات بأمّهاتهنَّ، مثل قطط كبيرة. توقّفت سيارةٌ أميركيةٌ أمام المدرسة وخرج منها رجلٌ يعتمرُ طربوشاً فاسياً أحمر. دار حول السيارة وبحث بنظره عن فتاة صغيرة. وعندما أبصرَها، وضع يدَهُ على صدره وخفضَ ذقنَهُ علامة احترام. «لالَّة فاطمة»، قال للتلميذة التي كانت تتقدَّمُ نحوه، وتساءلتْ عائشة عن السبب الذي يجعل تلك الطفلة التي يسيل لعابُها على دروسها من كثرة نومها فوق دفاترها، تُعامَلُ معاملةَ امرأة محترَمة. غابت فاطمة داخل السيارة العظيمة، وودَّعَتْها فتياتٌ ملوِّحاتٍ بأيديهنَّ، وهنَّ يصحنَ: «عطلة سعيدة!». ثم توقفت سقسقةُ الأطفال واختفت الطفولةُ، واستعادت المدينةُ حياتَها المعهودة. كان مراهقون يلعبون الكرة في أرض خلاء خلف المدرسة، ويصلُ إلى سمع عائشةَ ما يتبادلونه من شتائمَ بالفرنسية

والإسبانية. يلقي عليها المارةُ نظرات خاطفة، ويرفعون أعينهم كأنهم يبحثون عن تفسيرٍ لوقوف تلك الطفلة وحيدةً، منسِيَّةً، على الرغم من أنها ليست متسوِّلةً. كانت عائشة تتفادى نظراتهم، فهي لم تكن تريد منهم لا أسفاً ولا مواساةً.

نزلَ الليلُ والتصقتْ عائشة بالسياج، وهي تبتهلُ أن تختفي وألَّا تكون سوى نسمةٍ، أو شبحٍ أو سحابة بخار. كان الوقتُ يمُرُّ ببطء شديد، حيث ظنَّتْ أنها مكثتْ زمناً سرمديّاً، متجمِّدةَ الذراعَين والرِّسغَين، وقد تعلَّقَ ذهنُها كلُّهُ بأمِّها التي لا تصلُ. دلكَتْ ذراعيها بيديها، وأخذت تقفزُ من رجلٍ إلى أخرى لتحتفظَ بحرارتها. قالت في نفسها لا بدَّ أنَّ رفيقاتها الآن يتناولن الطعام في مطبخ، ويتلذَّذن بأكل الفطائر الساخنة بالعسل. وبعضُهُنَّ يُنجزنَ واجباتهنَّ على مكاتب من خشب الأكاجو، في غرفٍ تتخيَّلُها عائشة مزدحمةً باللُّعَب. بدأت أبواقُ السيّارات تُدوِّي، عند خروج الموظَّفين من المكاتب، وانتفضتْ عائشة بسبب أضواء السيارات التي تُعميها. وانخرطت المدينةُ في رقصةٍ مهووسةٍ يفرضُ إيقاعَها الرجالُ ذوو القبعات والمعاطف. كانوا يلتحقون بخطى واثقة بدفء حجرةٍ، مبتهجين لكونهم سيقضون تلك الليلة في الشرب أو النوم. شرعت عائشة تدورُ حول نفسها مثل حركةٍ آليةٍ أصابَها الجنونُ، ودعتْ يسوعَ ومريمَ العذراء، وقد شبكتْ يديها بشدّة جعلَتْهُما يبيَضّان. لم يتكلَّم معها إبراهيم لأنَّ الأمَّ الرئيسةَ حرَّمَتْ عليه أن يُكلِّمَ فتيات المدرسة. لكنه مدَّ ذراعَهُ نحو الفتاة الصغيرة التي أمسكتْ بيده وشدَّتْ عليها. ظلَّا واقفين أمام السياج، يراقبان بإلحاحٍ مفترقَ الطرق الذي وصلتْ منه ماتيلد.

قفزتْ ماتيلد خارجَ السيارة البالية واحتضنتْ ابنتَها بين ذراعيها.

وشكرتْ إبراهيمَ بعربية مُهجَّنةٍ بلهجة ألزاسية. تحسَّسَتْ جيبَ وَزرَتِها الوسخة، بحثاً، بلا ريب، عن قطعةِ نقدٍ تمنحها للحارس، لكنَّ الجيب كان فارغاً، فاحمرَّ وجهُها. في السيارة، لم تُجِبْ عائشة عن أسئلة ماتيلد. لم تقل شيئاً عن كراهية بلانش ولا عن كراهية رفيقاتها الأخريات. قبل ثلاثة أشهر، بكت عائشة عند خروجها من المدرسة لأنَّ فتاةً رفضتْ أنْ تصافحها. قال لها والداها إنَّ الأمرَ غيرُ مُهِمٍّ، ولا ينبغي لها أن تنتبه إلى ذلك، فجرحَتْ لا مبالاتُهُم عائشةَ. غير أنَّ عائشة، في تلك الليلة، وبينما كانت الخيبةُ تمنعها من النوم، سمعتْ والدَيْها يتشاجران. كان أمين يحتدُّ ضدَّ مدرسة المسيحيين هذه، حيث لا مكان لابنته. وكانت ماتيلد تلعنُ، بين شهقتين، عزلَتَهُم. عندئذ لم تقل عائشة شيئاً بعد ذلك. لم تُحدِّثْ أباها عن يسوع. كانت تحتفظ في السِّرِّ بحُبِّها للرجل ذي الساقَين العاريتَين، الذي يمنحها القدرةَ على التحكُّم في غضبها. ولم تعترف لأُمِّها بأنها كانت تقضي النهارَ طاويةَ البطن منذ أن عثرتْ على سِنٍّ وسط حساء الفول ولحم الخروف الذي قُدِّمَ لهنَّ في مطعم المدرسة. لم تكن سِنَّ حليبٍ صغيرة، بيضاء ومدبَّبة، مثل تلك التي فقدتْها ذلك الصيف والتي منحَتْها الفأرةُ الصغيرةُ حلوى مُلَبَّسةً بالسُّكَّر عوضاً عنها. لا، كانت سِنّاً سوداء ومنخورة، سِنّ شيخ يبدو أنها سقطتْ من تلقاء نفسها من اللَّثَّة، كأنَّ اللحم الذي كان يمسكها تعفَّنَ. وكلّما تذكّرتْ ذلك، أحسّت بالغثيان.

قرَّرَ أمين، في شهر سبتمبر، عند رجوع عائشة إلى المدرسة، أن يقتنيَ آلةً حصَّادة-درّاسة. فبعد أن تحمَّلَ جميعَ نفقات المزرعة، والطفلَين، وتأثيث البيت، لم يفضل له من المال إلّا ما يسمح له بأن يتوجَّه إلى تاجر خردةٍ محتالٍ وعدهُ بآلةٍ فريدةٍ، طالعةٍ للتوِّ من المصانع الأميركية. دعاهُ أمين، بإشارة سريعة من يده، إلى أن يكفَّ عن ذلك الحديث. لم تكن لديه رغبة في الإنصات إلى ترّهاته، بما أنَّ ما معه من مالٍ لا يكفي لغير تلك الآلة. لازَمَ الحصّادةَ أياماً، لا يقبلُ أن يترك استخدامَها لغيره. «سيُعطِبونها»، شرح الأمر لماتيلد التي كانت قلقةً لما تراهُ عليه من نحول. كان وجهه يغزوهُ الإرهاقُ والشمسُ، وصارت بشرتُهُ أكثر سمرةً من بشرة جنود المناوشات الأفارقة. كان يعمل بلا هوادة، ويراقبُ جميعَ حركات العُمّال. يسهرُ إلى غاية نزول الليل، على تحميل الأكياس، وكثيراً ما وجدوه نائماً خلف مقود سيّارته، لأنَّ التعبَ أعجزَهُ عن الالتحاق ببيته.

قضى أمين شهوراً لا ينام في فراش الزوجية. يأكلُ واقفاً في المطبخ، وهو يُحدِّثُ ماتيلد بكلماتٍ لا تفهمها. يبدو مثل معتوه، وهو ينظر إليها بعينَين جاحظتَين ومحتقنتَين. كان يودُّ لو يقول شيئاً ما، لكن لم يكن يُفلح إلّا في التلويح بذراعَيه في حركة غريبة وسريعة،

كأنه يرمي كرةً، أو كأنه يتأهَّبُ ليقتُلَ شخصاً بطعنة سكّين. كان قلقُهُ يزداد إيلاماً لعجزه عن البوح به. الاعتراف بفشله كان سيقتُلُهُ. لم يكن يتعلَّقُ الأمرُ لا بالآلات، ولا بالمناخ، ولا حتى بقلَّة كفاءة عمّاله الفلاحيين. لا، إنَّ ما كان يُدَمِّرُهُ هو أنَّ أباهُ كان قد أخطأَ. هذه الأرض لا تصلح لأي شيء. لا تقبل الحرثَ سوى طبقة صغيرة منها، وتحت ذلك السُّمك الرفيع لا وجود إلا للحجر البركانيِّ، والصخر الرماديِّ اللّامبالي، الحجر الذي تصطدم به طموحاتُهُ باستمرار.

أحياناً، كان يهدُّهُ التعبُ والمشاكلُ فيودُّ أن يتمدَّدَ فوق الأرض، ويجمعَ رجليه إلى جذعه، وينامَ مدَّةَ أسابيع. كان يودُّ أن يبكيَ بكاءَ الأطفال عندما يُرهقُهم اللعبُ والإثارةُ، ويقول لنفسه إنَّ الدموع ستفُكُّ عن صدره الطَّوقَ الذي يضغطُهُ. ظنَّ أنه سيُجَنُّ من كثرة الشمس والأرق. غزتْ روحَهُ الظلماتُ التي تمتزج فيها ذكرياتُ الحرب وصورةُ البؤس الذي كان يدنو منه. كان أمين يتذكَّرُ فترةَ المجاعات الكبرى. كان عمره عشرة أو اثنا عشرة عاماً عندما شاهد أُسَراً وحيواناتها تصعد من الجنوب، مهزولين وجائعين، عاجزين عن إصدار أيِّ صوت. كانوا يتوجّهون، وقد التهمت السعفةُ رؤوسَهم، نحو المدن حاملين توسلاتهم الصامتة، ويدفنون أطفالهم على جوانب الطرقات. كان يبدو له أن العالم أجمع يتعذَّبُ، وأنَّ حشود الجوعى تلاحقُهُ ولا يستطيعُ شيئاً إزاء ذلك، لأنه قريباً سيُصبِحُ واحداً منهم. كان ذلك الكابوس يلاحقه باستمرار.

*

غير أنَّ أميناً لم يستسلم. قرَّرَ، مقتنِعاً بمقالٍ، أن ينتقل للعمل في تربية البقر. وذات يومٍ، وبينما كانت ماتيلد عائدةً من المدرسة،

أبصرتْهُ على ناصية الطريق، على بعد كيلومترَين من المزرعة. كان يمشي إلى جانب رجل نحيف، يرتدي جلباباً وسخاً وينتعلُ صندلَين قبيحَين يجرحان قدمَيه. كان أمين يبتسمُ، والرجل ربَّتَ على كتفه، كأنهما يعرفان بعضُهما بعضاً من زمن بعيد. توقفت ماتيلد إلى جانب الطريق. نزلت من السيارة، وسَوَّتْ تنُّورتَها، وتقدَّمتْ نحوهما. بدا أمين متضايِقاً، لكنه قدَّم الواحد منهما للآخر. كان الرجل يُسمّى بوشعيب، وقد عقد معه أمين صفقةً يفتخر بها كثيراً. كان ينوي أن يشتري، بما تبقّى لديهما من مال مُدَّخَرٍ، أربع أو خمس بقراتٍ، سيقودُها ذلك البدويُّ إلى المراعي، في جبال الأطلس، لتسمينها. وبعد أن تُباعَ، يقتسمُ الرجلان الأرباح.

لم تُزِحْ ماتيلد نظرَها عن الرجل. لم يُعجِبْها ضحكُهُ الذي يفتقد الصراحةَ ويُشبه سعالَ إنسانٍ ملتهب الحنجرة. أثارتْ لديها طريقتُهُ في حَكِّ وجهه بأصابعه الطويلة الوسخة انطباعاً رهيباً. لم ينظر إلى عينيها ولو مرة واحدة، وكانت تعرف أنَّ ذلك لم يكن بسبب كونها امرأةً أجنبيةً فحسب. هذا الرجلُ سينصبُ عليهما. كانت واثقةً من الأمر. حدَّثَتْ أميناً بذلك في المساء نفسه. انتظرتْ أن ينام الطفلان ويضعَ زوجُها رأسَهُ على مِسْنَدِ أريكةٍ. حاولت أن تُقنِعَهُ ألّا يتعامَلَ مع ذلك البدويِّ. غضبَ أمين. «تقولين هذا لأنه أسود. لأنه بئيسٌ، يعيش في الجبل ولا يعرف تقاليد المدينة. أنتِ لا تعرفين شيئاً عن هؤلاء الناس. لا تستطيعين فهمهم».

في الغد، قصد أمين وبوشعيب سوقَ الماشية. يُقامُ السوقُ على جانب طريقٍ، بين أطلال سُورٍ كان يحمي في القديم سكّانَ المدن من غزواتِ القبائل، وبين بضعة أشجار، طرحَ الجبليون البُسُطَ عند أقدامها. كان الحرُّ خانقاً وتأثّرَ أمين بالرائحة القويّة الصادرة عن

الماشية، والبراز، وعرق البدويّين أنفسهم. ووضعَ، مراراً، كمَّهُ على أنفه خشيةَ أن يقيءَ أو يُغمى عليه. كانت الحيواناتُ، هزيلةً وساكنةً، تنظر إلى الأرض بثبات. كأنَّ الحمير، والمعز، والقليل من البقر، على وعي بأن لا أحد يلتفتُ إلى مشاعرها. تمضغُ في فتور براعمَ الهندباء النادرة، والعشبَ المصفرَّ، وحُزَمَ البقلة. كانت تنتظر، في هدوء واستسلام، أن تنتقلَ من يدٍ فظيعةٍ إلى أخرى. يسود الاضطرابُ البدويين. يصيحون بوزنٍ، أو ثمنٍ، أو سِنٍّ، أو منفعة. كان الناسُ، في تلك المنطقة القاحلة، يُقاتلون من أجل الحرث، ومن أجل الحصاد، وليعتنوا بالحيوانات. تخطّى أمين أكياساً كبيرةً من الخيش مطروحةً فوق الأرض، واحتاط كي لا يطأ في مشيه البراز الذي يجف تحت الشمس، واتَّجَهَ رأساً نحو غرب السوق حيث كان يجتمع قطيعٌ من البقر.

سلَّمَ على صاحب القطيع، شيخٍ غطّى رأسه الأصلع بعمامة بيضاء، وقاطعَ الدعاءَ الذي انخرط فيه الرجل بخشونةٍ لم ترق لبوشعيب. تحدَّثَ أمين عن الحيوانات بكلام العالِم. طرح أسئلةً تقنيةً لم يستطع الشيخُ الإجابة عنها. كان أمين يريد أن يُبيِّنَ له بطريقة واضحة وصارمة، أنهما ينتميان إلى عالمَين متباينَين. اغتاظَ البدويُّ وأخذَ يمضغُ ساقَ نبتةٍ صفراء، وهو يُصدِرُ الصوتَ ذاتَهُ الذي تُصدِرُهُ الحيواناتُ التي يبيعُها. فاستلَمَ بوشعيب مقاليدَ الأمور. أدخلَ أصابعه في مناخر البهائم وتحسَّسَ مؤخراتها بيديه. وسألَ مالكَ القطيع، وهو يُربِّتُ على كتفه، عن مقادير البذور والبعر، وهنَّأَهُ على العناية التي يوليها لبهائمه. تراجع أمين بضع خطواتٍ وجاهَدَ كي لا يُظهِرَ ما اعتراهُ من غضب ونفاد صبر. استغرقت المساوماتُ ساعاتٍ. يتَّفقان على ثمنٍ، ثم يُغيِّرُ أحدُهما موقفَهُ ويُهدِّدُ

بالانسحاب، فيُهيمِنُ صمتٌ طويلٌ. كان أمين يعلم جيّداً أنَّ الأمورَ تسير بتلك الطريقة، مثل لعبة أو طقسٍ، لكنه شعر مراراً بالرغبة في أن يصيح بهما ليضع حدّاً لتلك الأعراف السخيفة. كان الأصيل يوشكُ أن يمضيَ، والشمسُ شرعت تختفي خلف جبال الأطلس، وهبَّتْ ريحٌ باردةٌ على السوق. وأخيراً صافحا يدَ البائع الذي تخفَّفَ من أربع بهائم في كامل صحَّتها.

أبدى بوشعيب، وهو يهمُّ بتوديع شريكه والالتحاق بقريته في المرتفعات، الكثيرَ من الوُدِّ. هنَّأَ أميناً على خصاله وقدراته في المساومة. وأطال الحديث عن قيمة الشرف عند قبائل الجبل، ووزن الكلمة التي يمنحها الإنسان. وهجا الفرنسيين، فهم أناسٌ ميّالون إلى الارتياب والخصام. فكَّر أمين في ماتيلد ووافق بتحريك رأسه. كان النهار منهِكاً، ولا يُفكِّرُ سوى في العودة إلى بيته، وإلى طفليه.

في الأسابيع التي تلتْ ذلك، أرسلَ بوشعيب بانتظامٍ مبعوثاً إلى المزرعة. راعٍ صغير السِّن، التهمَ الجربُ ربلةَ قدميه، وتجلب عيناهُ الذبابَ بما يحيط بهما من قيح. كان الولدُ، الذي لا بدَّ أنه لم يشبع من الأكل من قبل، يتحدَّثُ عن بقرات أمين بعبارات شاعرية. يقول إنَّ العشبَ، هناك في المرتفعات، طريٌّ ووافِرٌ، وإنَّ البهائمَ تسمنُ على مرأى العين. وشاهد، وهو يتلفَّظُ بتلك الكلمات، وجهَ أمين يستنيرُ، فشعر بالسعادة لأنه يحمل البهجَةَ إلى ذلك البيت. عاد مرةً أو مرّتين، وشرب بالشَّرَهِ نفسِهِ الشّايَ الذي وضعت فيه ماتيلد، بطلبٍ منه، ثلاث ملاعق من السكَّر.

ثم لم يعد الولدُ بعد ذلك. انصرمت خمسة عشر يوماً وبدأ القلقُ يُساوِرُ أميناً. وعندما طرحتْ عليه ماتيلد سؤالاً في الموضوع،

غضبَ. «سبقَ أن قلتُ لكِ ألّا تتدخّلي في هذا الأمر. هكذا تسيرُ الأمورُ هنا. لستِ أنتِ من سيعلِّمني كيف أُدير المزرعةَ!». لكنَّ الشكَّ كان يُعَذِّبُهُ. لم يعد يُغْمَضُ له جفنٌ في الليل. وعندما بلغَ منه الإرهاقُ والقلقُ مبلغَهُ، أرسلَ عاملاً من عمّاله يستجلي له الأخبار، غير أنَّ العامل عادَ بخفَّي حنين. لم يعثر على بوشعيب. «الجبل كبيرٌ جدّاً، سي بلحاج. لا أحد يعرفُهُ هناك».

عاد الرجلُ ذاتَ مساء. حضرَ بوشعيب أمام باب المزرعة، شاحبَ الوجه، محمَرَّ العينَين. وعندما أبصر أميناً مقبلاً نحوه، ضربَ رأسَهُ بيديه، وخمشَ خدَّيْهِ، وأطلقَ صرخاتِ حيوانٍ مطارَد. استرجع أنفاسَهُ بصعوبة، ولم يفهم أمين شيئاً من تفسيراته. ردَّدَ بوشعيب: «لصوص، لصوص!» وفاضتْ عيناهُ بالفزع. حكى أنَّ عصابةً من الرجال المسلَّحين جاءت في الليل، وقيَّدوا الحرَّاسَ بعد أن أبرحوهم ضرباً، وحملوا القطيعَ كلَّهُ فوق شاحنة. «لم يستطع الرُّعاةُ أن يفعلوا أيَّ شيء. إنهم رجالٌ شجعانٌ، وعمّالٌ أكفاء، لكن ما الذي يستطيعُهُ أولئك الأولادُ في مواجهة أسلحة وشاحنة؟». وتهاوى بوشعيب فوق أريكة. وضعَ يديه فوق ركبتيه، وبكى مثل طفل، وزعمَ أنه ركبهُ العارَ إلى الأبد. وأضاف، بعد أن شرب من الشاي الذي وضع فيه خمس قطع من السكر: «إنها مصيبة كبيرة لنا.

- سنذهبُ عند الدَّرَك». كان أمين يقف أمامَ البدويِّ.

«الدَّرَك!» عاد الرجلُ إلى البكاء، وحرَّكَ رأسَهُ دلالةً على اليأس. «لن يستطيع الدَّرَكُ شيئاً. أولئك اللصوص، أولئك الشياطين، أولئك أولاد الكلبة هم الآن جِدُّ بعيدين. كيف يمكن العثور على آثارهم؟» وانخرطَ في بكائيةٍ حول تعاسة سكان الجبال الذي يعيشون في منأى عن كلِّ شيء، تحت رحمة العنف،

والفصول. بكى على مصيره، واحتدَّ غضباً ضدّ الجفاف، والأمراض، والنساء اللواتي يمتن أثناء الولادة، والموظفين الفاسدين. كان لا يزالُ يشهقُ إذ جذبهُ أمين من ذراعه.

«سنذهبُ عند الدَّرك». على الرغم من أنَّ أميناً كان أقصر قامةً من البدويِّ، إلّا أنه كان مهيباً. كان رجلاً شابّاً ومتحمِّساً، ذا عضلاتٍ مشدودة بالعمل في الحقول. كان بوشعيب يعلمُ أنه شاركَ في الحرب، وكان ضابطاً مع الفرنسيين، وحصل على ميدالياتٍ جزاء بطولاته. شَدَّ أمين بوشعيب من كُمِّ جلبابه، ولم يحاول الرجلُ أن يُقاوِمَ. ركبا في السيارة، وغَيَّبَهُما ظلامٌ مفاجئٌ. ساد الصمتُ بينهما. وكان بوشعيب يرشح عرقاً، على الرغم من برودة الليل. وكان أمين يسترقُ النظر إليه. يتفحَّصُ يدَي البدويِّ، في ضوء مصباحي السيارة الباهت. كان يخشى أن ينقضَّ عليه هذا الأخير في نوبة جنون أو يأسٍ، ويحاول أن يصرعَهُ قبل أن يهرب.

وعندما ظهرتْ ثكنةُ الدَّرَك في الأفق، استبدلَ بوشعيب بلهجته الباكية خطاباً أكثر سخريةً. قال: «كيف يمكنك أن تعتقد أنَّ هؤلاء العاجزين سيفعلون شيئاً من أجلنا؟». هَزَّ كتفيه، كأنَّ سذاجةَ أمين كانت أسخفَ أمرٍ رآهُ في حياته. توقَّفا أمام البوّابة وظلَّ بوشعيب جالساً. دار أمين حول السيارة، وفتح الباب جهةَ الرّاكب، وقال: «هيّا».

عاد أمين عند الفجر. كانت ماتيلد جالسةً إلى مائدة المطبخ، تحاولُ أن تضفِرَ شعرَ عائشة، التي كانت تعضُّ على شفتيها دفْعاً للبكاء. نظرَ إليهما، وابتسم دون أن يتفوَّهَ بكلمة، وتوجَّهَ نحو حجرته. لم يُخبِرْ ماتيلد أنَّ الدَّرَكَ استقبلوا بوشعيب مثل معرفة قديمة. استمعوا إلى حكايته عن لصوص الجبال وهم يضحكون.

كانوا يتّخذون سحناتٍ مندهشة ويسألونه: «والشاحنة، أخبِرْنا، كيف كانت؟ وأولئك الرُّعاةُ المساكين، أكانتْ جروحُهم بليغة؟ ربما يكون في إمكانهم أن يحضروا من أجل الإدلاء بشهادتهم؟ اِحْكِ كذلك قصة وصول اللصوص. احفَظْ هذه الحكاية، إنها مسلِّيةٌ فعلاً». شعر أمين أنهم إنما يضحكون منه هو. هو الذي يحسب نفسَهُ مالكَ أرضٍ كبيراً، هو الذي يتصرَّفُ مثل مُعَمِّرٍ، ووقَعَ في الفَخِّ مثل معتوه، ضحيَّةَ أوَّل رجلٍ حلوِ الكلام لقيَهُ. كان بوشعيب سيقضي بضعة شهور في السجن. لكن أميناً لم يتأسَّ بذلك، لأنه لن يدفع عنه ديونه. كان البدويُّ على حقٍّ في نهاية الأمر. لا فائدة من اللجوء إلى الشرطة. لم يُفلِحْ ذلك إلّا في زيادة آلامه. لا، كان يتوجَّبُ على أمين أن يكسر بقبضته وجهَ ذلك الوسِخ، الرُّكام من البُراز. كان عليه أن يضربه حتى الموت. من كان سيشكوه؟ أتوجد امرأةٌ في مكانٍ ما، أو طفلٌ، أو صديقٌ، يمكن أن يبحث عن آثار ذلك الأقل من لا شيء؟ لا بدَّ أنَّ جميع من عاشروا بوشعيب سيرتاحون لهلاكه. كان أمين سيُهدي الجثَّةَ للثعالب والنُّسور، وكان حينئذ سيشعر بأنه انتقمَ لنفسه. الشرطة، يا لها من حماقة.

III

استيقظتْ عائشة مستبشرةً. كان أوَّلَ يومٍ من أيّام عطلة أعياد رأس السنة، وصَلَّتْ مُمَدَّدَةً فوق سريرها، تحت لحافِ الصوف. صلَّتْ من أجل والديها، اللذين كانا جِدَّ تعيسين، وصلَّتْ من أجلها هي، لأنها تريدُ أن تكون طيّبةً وأن تُنقذهما. منذ أن انتقلوا للعيش في المزرعة، صار والداها يتشاجران دون هوادة. أمس، مزَّقتْ أمُّها فستانَين من فساتينها إرباً. قالتْ إنها لم تعد تتحمَّلُ ارتداء تلك الثياب المهلهلة البئيسة، وإنها ستخرج للتجول عاريةً، إنْ رفضَ أن يمنحها المال لتشتريَ الثياب. ضَمَّتْ عائشة يديها بمزيد من القوة وتوسَّلَتْ إلى يسوع أن يمنع أمَّها من أن تسيرَ عاريةً في الشارع، ورَجَتْهُ أن يُجَنِّبَها تلك الإهانة العظيمة.

كانت ماتيلد، في المطبخ، تُمسكُ سليماً، ابنَها المحبوبَ، فوق ركبتيها وتداعبُ شعرَهُ المجعَّدَ. وتنظُرُ بضجرٍ إلى الفِناء الذي تغمُرُهُ الشمسُ، وإلى حبلِ الغسيل المنحني من ثقل الثياب. طلبتْ عائشة من أمِّها أن تُعِدَّ لها قُفَّةَ مُؤَنٍ صغيرةً. «يمكننا أن نرافقكِ في النزهة، أليس كذلك؟ ألا تريدين أن تنتظرينا؟» حدجَتْ عائشة، بنظرةٍ سوداء، شقيقَها الذي كانت تجدُهُ كسولاً وبَكَّاءً. لا تريد أن يرافقها أحدٌ، فهي تعرف وجهتَها تماماً. «إنهم في انتظاري. أنا ذاهبة». ركضت عائشة نحو الباب، رفعتْ يدَها اليُمنى واختفتْ.

لم تتوقّفْ عن الجري قبل أن تصل إلى الدوّار الذي كان يوجد على بعد كيلومتر واحد من بيتهم، على المنحدر الآخر من التلّة، خلفَ حقول السّفرجل. يُشْعِرُها الجَرْيُ أنَّها لا تُدْرَكُ. تعدو، فيجعلُها ذلك الإيقاعُ، المفروضُ على جسدها، صمَّاءَ عمياءَ، ويحبسُها داخل وحدةٍ سعيدة. كانت تعدو، فإذا ما هَدَّ التعبُ جسمَها، وامتلأتْ حنجرتُها بطعم الغبار والدَّم، أخذتْ تتلو صلاةَ «أبانا الذي في السماوات» لتستمِدَّ منها الشجاعةَ. «ليأتِ ملكوتُكَ، ولتكن مشيئتُكَ».

وصلتْ إلى الدوّار منقطعة النّفَس، مُحمرَّةَ الساقين من حروق نباتِ القُرَّاص. «كما في السماء كذلك على الأرض». كان الدوّار يتكوَّنُ من خمسة أكواخ بئيسة، يقفز أمامها دجاجٌ وأطفالٌ، ويعيش فيه عمّالُ المزرعة. نُشِرَ غسيلٌ على حبل ممدود بين شجرتَين. وخلف المساكن، تُذكِّرُ أكوامٌ من الحجارة البيضاء أنَّ الأجداد يرقدون في ذلك المكان. لم يروا في حياتهم، ولا حتى بعد مماتهم إلّا ذلك الطريق المغبّر، والتّلّة التي تعبُرُها القطعانُ. هنا يوجد بيتُ بِطُّو وبناتها السبع. كان بيتُ النساء ذاك ذائعَ الصيت في المنطقة كلِّها. كان الناسُ، بالطبع، قد ضحكوا وسخروا عند ولادة البنت الخامسة. وكان الجيرانُ يهزؤون من بّا ميلود، الأب، ويُشَكِّكون في طبيعة نسلِهِ، ويزعمون أنَّ عشيقةً قديمة سحرَتْهُ. كان قولُهم يُغضِبُ بّا ميلود كثيراً. لكن عندما وُلِدَت البنتُ السابعةُ، انقلبَ الأمرُ كلُّهُ رأساً على عقب، وصار الجميعُ، على بعد كيلومترات، يرونَ، على العكس، أنَّ بّا ميلود رجلٌ مبارَكٌ، وأنَّ تلك الأسرة تتمتع بأمرٍ خارق. لقَّبوهُ بـ«الرجل ذي السبع بنات»، وكان ذلك الاسم يغمُرُهُ بالفخر. كان يمكن لأحدٍ غيره أن يشتكي: أيُّ مشكلٍ هذا! وأيُّ قلق! فتياتٌ يجلن في الحقول، يمكن للرجال أن يقتربوا منهنّ، وأن

يطمعوا فيهنّ، وأن يُحبلوهنّ! يا لها من مصاريف، تلك الفتيات اللواتي سيتوجَّبُ تزويجُهنَّ، وبيعُهُنَّ لمن يدفع أكثر! لكن بّا ميلود الطيِّب، المتفائل، كان يُحِسُّ بالزهو والمجد، ويشعرُ بالسعادة في ذلك البيت المفعَم بالأنوثة، حيث تُذَكِّرُهُ أصواتُ أطفاله بزقزقة العصافير عند حلول فصل الربيع.

كنَّ قد ورثن، في الغالب، وجْنَتَيْ أُمِّهِنَّ العاليتَين وشعرَها المضيء. كانت الأوليان صهباوَين، والأربع الأخريات شقراوات، ويحملنَ جميعُهُنَّ، على أذقانهنَّ، وشماً بالحنّاء. كُنَّ يَضفِرنَ شعرهُنَّ الطويلَ، فتتدلّى الضفائرُ إلى أسفل ظهورهنَّ. ويُغطِّينَ جزءً من جباههنَّ العريضةِ بثوبٍ ملوَّنٍ، أصفر فاقع أو ورديّ قرمزيّ، ويضعن أقراطاً ثقيلةً تُمَدِّدُ شحمة الأذن. غير أن ما كان يلاحظُهُ الجميعُ، ما كان يصنعُ تفرُّدَهُنَّ، هو جمالُ بَسْمَتِهِنَّ. كانت لديهنّ أسنان صغيرة، بيضاء ولامعة، مثل لآلئ. وحتى يِطُّو، التي تقَدَّمَ بها العمرُ، وتشربُ شايَها بكثير من السُّكَّر، تتمتَّعُ بابتسامة رائعة.

ذات يوم، سألتْ عائشة بّا ميلود عن عمره: «عمري مئة عام على الأقل»، أجابَها بكامل الجِدِّ، فأدهشَها الأمرُ. «ألهذا السبب لم يعد لديكَ ولو ضرسٌ واحد؟» شرع بّا ميلود يضحكُ ولمعتْ عيناهُ العاريتان من الأهداب. «هذا، قالَ، بسبب الفأر». واتّخذَ مظهراً جادّاً وهو يهمسُ في أذن الطفلة. وفي الخارج كانت يِطُّو والبناتُ يُقهقهن. «ذات ليلة، أطلتُ الاشتغالَ في الحقول لدرجة أني نمتُ وسطَ وجبة الأكل. كنتُ لا أزالُ أحتفظُ في فمي بقطعة خبز منقوعة في الشاي بالسكّر. استغرقتُ في نومٍ عميق لدرجة أني لم أُحِسّ بالفأر الصغير يتسلَّقُني، ويأكلُ من الخبز في فمي ويسرق جميعَ أسناني. وعندما استيقظتُ، لم يتبقَّ لي سوى سِنٍّ واحدةٍ». صاحتْ

عائشة في اندهاشٍ، وقهقهت نساءُ البيت. «لا تُخِفْها آ بّا! لا تخافي يا ابنتي، عندكم في البيت، لا توجد فئران مثل ذلك الفأر».

*

منذ أن شرعتْ عائشة تذهب إلى المدرسة صار لديها وقتٌ أقلّ للمجيء إلى هنا. استقبلتْها يِطّو في بيتها بالصياح والضحك. كانت تحبُّ ابنةَ صاحب المزرعة، تحبُّ شعرَها الهائلَ واليابس كأعواد القَشِّ، ومظهرَها الخجول، وقُفَّتَها الصغيرةَ. إنها نوعاً ما ابنتُها كذلك، لأنها رأتْها تخرُجُ من رحم أمِّها، ولأنَّ طامو، كبرى بناتها السبعة، تعمل عندهم منذ أن وصلوا إلى المزرعة. بحثتْ عائشة عن الأطفال، لكنها لم تجد أحداً في الحجرة الرئيسة، حيث يأكلون وينامون، وحيث كان بّا ميلود يعلو زوجَتَهُ دون أن يكترث لوجود بناته. كان البيتُ بارداً ورَطْباً ووجدتْ عائشة صعوبةً في التنفُّس بسبب دخان الكانون الذي كانت يِطُّو تجلس قدّامه، متربِّعةً، وهي تُذَكّي النارَ بتحريك قطعةِ ورقٍ مُقَوَّى. وبيدها الأخرى، كسرت بيضةً وضعتْها فوق الفحم الخشبيِّ لتقليَها، وأضافتْ إليها قليلاً من الكَمُّون. قدَّمَتْها لعائشة: «هذه من أجلكِ». وبينما الطفلة تأكُلُ بأصابعها، جالسةً على عقبيها، داعبتْ بلطفٍ ظهرَها وهي تضحكُ بسبب صفار البيض الذي كان يسيلُ على عنق القميص الصغير الذي استغرقَتْ ماتيلد ليلتَين في خياطته.

وصلتْ ربيعة، وقد اكتسى خَدَّاها لونَ البنفسج من شدة العَدْو. كانت تكبر عائشةَ بثلاث سنوات، لكنها لم تعد طفلةً في الواقع. كانت عائشة تراها امتداداً لذراعيْ والدتها. تعرفُ ربيعةُ تقشيرَ الخضروات بالبراعة نفسها، وتُنَظِّفُ الأنوفَ المغطّاة بالمخاط

اليابس، وتلتقطُ الخُبَّيْزَ عند أقدام الأشجار، ثم تفرمُه، وتطبخه. وتستطيع الصغيرةُ، بيديها الرفيعتين مثل يدي عائشة، أن تعجنَ الخبزَ، وأن تخبط الزيتون لتُسقِطَهُ فوق الشِّباك الكبيرة في موسم الجَنْي. كانت تعلمُ أنَّ عليها أن تتجنَّبَ تسلُّقَ غصون الشجرة المبتلَّةِ الشديدة الزَّلَق. وكانت طريقتُها في التصفير تُفزِعُ الكلابَ الضالةَ فتهربُ وقد أرخَتْ ذيولَها، وارتَعَدَتْ قوائمُها الخلفية. كانت عائشة معجبَةً ببنات يِطُّو وتُتابعُ ألعابَهنَّ دون أن تفهمَها دائماً. يجري بعضُهُنَّ خلف بعض، ويتجاذبن من الشَّعر، ويحدثُ أن ترتمي إحداهُنَّ فوق الأخرى وتحاكي حركة ذهاب وإياب فتُقهقِهُ تلك الممدَّدَة على ظهرها. كان يُعجِبُهُنَّ أن يُنَكِّرْنَ عائشةَ ويلعبْنَ بها. يُعلِّقْنَ دميةً من خِرَقٍ على ظهرها، ويعصِبْنَ رأسها بوشاحٍ وسِخٍ ويُصفِّقْنَ بأيديهنَّ ويطلبن منها أن ترقص. وحاولن ذات مرة أن يُقنِعْنَها بأن تضع وشماً مثلهنَّ، وأن تَكسُوَ يديها ورجليها بالحنّاء. غير أنَّ يِطُّو تدخَّلَتْ قبل حدوث ذلك. كنَّ ينادينها بـ«بنت التَّاجر» بتبجيل ساخر ويُضفن: «أنتِ لستِ خيراً منّا، أليس كذلك؟».

ذات يومٍ، حدَّثَتْ عائشة ربيعةَ عن المدرسة، فأحزَنَها ذلك كثيراً. كم كانت ترثي لعائشة! كانت تتصوَّرُ المدرسة الداخليةَ نوعاً من السجن حيث يصيح كبارٌ بالفرنسية على أطفال مرعوبين. سجن لا يتمتع فيه الأطفال بتوالي الفصول، ويظلّون جالسين أيَّاماً كاملةً تحت رحمة قساوة الأشخاص الكبار.

توغَّلَتِ الفتاتان الصغيرتان في البادية ولم يسألهُما أحدٌ عن وجْهَتِهِما. يتعلَّقُ الوحَلُ اللَّزِجُ والكثيفُ بأحذيتهما ووجدتا صعوبةً متزايدةً في المشي. اضطرَّتا إلى أن تقتلعا بأصابعِهِما الطِّينَ اللّازقَ بالنِّعال، وضحكتا لصوت ارتطام أقدامهما بالأرض. جلستا عند قدم

شجرة، وقد استبدَّ بهما التعبُ، ولعبتا بفتور بحفْر جحورٍ صغيرةٍ بسبّابتهما، تُطْلِعان منها ديداناً غليظةً تسحقانها بين أصابعهما. كانتا تحرصان دائماً على أن تعرفا ما يوجد داخل الأشياء: في بطون الحيوانات، في سيقان الورود، وفي جذوع الأشجار. تريدان أن تَبْعَجَا العالَمَ أملاً في اكتشاف سِرِّهِ.

تحدَّثَتا في ذلك اليوم عن الهروب، عن الرحيل طلباً للمغامرة، وضحكتا وهما تتصوَّران تلك الحُرِّيَّةَ الهائلة. غير أنَّهما بدأتا تشعران بالجوع، وصارت الريح باردةً، وشرعت الشمسُ في الغروب. توسَّلتْ عائشة إلى صديقتها أن ترافقها، كانت تخاف أن تعود وحدَها، وتعلَّقت بمرفقها في الطريق الحجريّ الصغير. كانتا قد اقتربتا من البيت عندما أبصرتْ ربيعةُ ركاماً عظيماً من التِّبن، يوجد تحت الإسطبل مباشرةً. «هيَّا»، قالت لعائشة التي لم تُرِدْ أن تَبْدُوَ متخاذلة. صعدتا بمساعدة سُلَّمٍ برتقاليٍّ قديمٍ فوق الإسطبل، وقالت لها ربيعةُ، وجسمُها الصغير ينتفضُ من الضحك: «انظري!» وقفزتْ.

مرَّتْ ثوانٍ معدودة لم يُسمَع فيها أيُّ صوت. كأنَّ جسد ربيعة قد تبخَّرَ، كأنَّ الجِنَّ اختطفَها. توقفتْ عائشة عن التنفُّس. اقتربتْ أولاً من حافة السطح، وأطلَّتْ منه، ونادتْ بصوتٍ ضعيف: «ربيعة؟» بعد هنيهة ظنَّتْ أنها سمعتْ حشرجَةً أو نشيجاً. ركبها هلعٌ شديدٌ، فنزلت السُّلَّم مسرِعَةً وهرعت إلى البيت. وجدتْ ماتيلد جالسةً فوق أريكتها، وسليماً عند قدميها. نهضَتْ أُمُها، وهمَّتْ بتوبيخ ابنتها، أن تقول لها إنها قد قلقتْ كثيراً لتأخُّرها، لكن عائشة ارتمتْ على ساقَيْ أمِّها. «أعتقد أنَّ ربيعة قد ماتتْ!».

نادتْ ماتيلد على طامو التي كانت ناعسةً في المطبخ وأسرعتا إلى الإسطبل. صرختْ طامو عندما اكتشفت شقيقتَها، داخل التِّبن،

ملطَّخةً بالدَّم. وأخذتْ تصيحُ، ودارتْ عيناها، فصَفعَتْها ماتيلد لتُهَدِّئها، صفعةً طرحَتْها أرضاً. انحنتْ ماتيلد على الطفلة التي أصيبَتْ يدُها بجرحٍ عميق بسبب مذراةٍ كانت مخفيَّةً في التِّبن. حملَتْها وجرَتْ نحو البيت. لم تتوقَّف عن مداعبة وجه الصغيرة الفاقدة الوعي بينما تطلب الطبيبَ في الهاتف، لكن الهاتف كان معطَّلاً. كان فكَّاها يرتعشان فيشتدُّ خوفُ عائشة التي كانت تُفكِّرُ في أنَّ العالمَ كلَّهُ سيكرهها لو ماتت ربيعة. هي السبب في كلِّ ما جرى، وغداً سيكون عليهم أن يواجِهوا حقدَ بِطُّو، وغضبَ بّا ميلود، ولعناتِ القرية كلِّها. كانت تقفز من رجل إلى أخرى وقد نَمِلَتْ ساقاها.

«تبّاً لهذا الهاتف، ولهذه المزرعة، ولهذا البلد!» رَمَتْ ماتيلد الهاتفَ على الجدار وطلبتْ من طامو أن تُمَدِّدَ شقيقتَها على كنبة الصالة. أُحْضِرت الشموعُ ووُضِعَت حول الصغيرة الساكنة، والتي كانت تُشبِهُ في تلك اللحظة جثّةً جميلةً، مستعدَّةً للدَّفن. وكانت عائشة وطامو لا تقولان شيئاً، وتمتنعان عن الارتماء على الأرض، خوفاً من ماتيلد وإعجاباً بها وهي تُفَتِّشُ الآن في الدولاب الذي تستخدمُهُ صيدليةً. انحنتْ على ربيعة فتوقَّفَ الزَّمنُ. لم يكن يُسمَعُ إلّا صوت ريقها الذي تبلعُهُ، والشاش الذي تُقَطِّعُهُ، والمقصّ الذي يقطع الخيطَ الذي تستعمله في خياطة الجرح. وضعتْ على جبين ربيعة، التي بدأت تئنُّ أنيناً خفيفاً، ثوباً مُبَلَّلاً بماء الكولونيا وقالت: «أكملْتُ». وعندما رجع أمين، وبينما كانت عائشة نائمة منذ فترة، وقد هَدَّ الخوفُ قلبَها، بكتْ ماتيلد وصرختْ. لعنتْ هذا البيتَ، وقالتْ إنهم لا يستطيعون الاستمرارَ في العيش على ذلك الوضع، مثل المتوحشين، وإنها لن تُعرِّضَ حياةَ طفليها للخطر دقيقةً واحدة أكثر.

*

في الغد، استيقظتْ ماتيلد في الفجر. دخلتْ غرفةَ ابنتها التي كانت تنام إلى جانب ربيعة. رفعتْ باحتراسٍ الضِّمادَةَ التي كانت تُغطِّي جُرحَ الطفلة، ثم وضعت قبلتين على الجبهتين الصغيرتين. أبصَرَتْ يوميةً فوقَ مكتب ابنتها، كُتِبَ عليها بحروفٍ مُذَهَّبَةٍ «ديسمبر 1953». صنعتْها ماتيلد بنفسها: قطعتْ أربعةً وعشرين نافذة صغيرة، وتلاحظُ الآن أنها ظلَّتْ جميعُها مُقفَلَةً. كانت عائشة تزعمُ أنها لا تُحِبُّ السُّكَّريات. لا تطلُبُ شيئاً أبداً، وترفُضُ عجينةَ الفواكه أو الكرز المربّى في ماء الحياة الذي تُخفيه ماتيلد خلف صَفٍّ من الكتُب. كانت جِدِّيَّةُ ابنتها تضايِقُها. «إنها مُتَقَشِّفَةٌ مثل أبيها»، كانت تقول في نفسها. وكان زوجها خرج للعمل في الحقل، فجلستْ إلى الطاولة قدّامَ الحديقة، متلفِّعةً بلحافٍ. جلبَتْ طامو الشّايَ وانحنتْ فوق ماتيلد التي كشّرت. فقد كانت تكرهُ رائحةَ الخادمة، ولا تتحمَّلُ ضحكها، وفضولَها، وقِلَّةَ نظافتها. كانت تصفُها بالوسخة والموجيك.

أطلقتْ طامو صيحةَ إعجاب. «ما هذا؟» سألَتْ وهي تشيرُ إلى اليومية التي كانت تتطايرُ منها النجومُ المُذَهَّبَةُ. ضربتْ ماتيلد أصابع الخادمة ضربةً خفيفةً.

«لا تقتربي من ذلك. إنها من أجل أعياد الميلاد!».

هَزَّتْ طامو كتفيها ورجعتْ إلى المطبخ. انحنتْ ماتيلد على سليم الجالس فوق البساط. لعقَتْ سبّابتَهُ وغمرتْهُ في آنية السُّكَّر التي تركتْها طامو هناك. مَصَّ سليم، الذي كان يُحسِنُ الاستمتاعَ، إصبعَهُ وقال لها شكراً.

منذ أسابيع، وماتيلد تُرَدِّدُ أنها تريد حفلَ أعياد الميلاد مثل

حفلات السابق، في الألزاس. عندما كانوا لا يزالون يقطنون في برّيمة، لم تُلِحَّ على شجيرة الصنوبر، والهدايا، وإكليل الأنوار. لم تُرِدْ أن تبدوَ نزوِيَّةً لأنها كانت تفهمُ أنه من المستحيل، أن تفرضَ رَبَّها وطقوسَها في ذلك البيت الأسود والصّامت، وسط المدينة العتيقة. لكنَّ عائشة بلغ عمرُها الآن السادسة، وتحلمُ ماتيلد، في هذا البيت الذي هو بيتُها، أن تُهدِيَ ابنتَها حفلة أعياد ميلاد لا تُنسى. كانت تعلمُ جيِّداً أنَّ الفتيات في المدرسة يتباهين بالهدايا التي سيحصلن عليها، والفساتين التي اقتنتْها أمّهاتُهُنَّ من أجلهنَّ، وترفضُ أن تُحْرَمَ عائشة من أسباب السعادة تلك.

صعدت ماتيلد سيّارتَها وانطلقتْ في تلك الطريق التي تعرفُها عن ظهر قلب. كانت، بين الفينة والأخرى، تُلوِّحُ بذراعها اليسرى في الخارج تحيَّةً للعمّال الذين كانوا يضعون أيديهم على صدورهم. عندما تكون وحدها، تسيرُ بسرعةٍ كبيرة، وَوُشِيَ بها إلى أمين الذي منعها من أن تخاطر بنفسها بتلك الطريقة. لكنها كانت ترغبُ في أن تعبر المنظر، وأن تثير سُحُباً من الغبار، وأن تدفع الحياةَ إلى الأمام، بأكبر سرعة ممكنة. وصلتْ إلى ساحة الهديم وركنتْ في أعلى الدَّرب. وقبل أن تخرج، ارتدتْ جلباباً فوق لباسها وعقدتْ وشاحاً حول شعرها، وأرخَتْهُ فوق وجهها. قبل بضعة أيام، تعرَّضتْ سيّارتُها لرمي الحجارة، بينما كان طفلاها يصرخان في الخلف مرعوبين. لم تقل شيئاً لأمين خشيةَ أن يمنعها من الخروج. كان يزعمُ أنَّ من الخطر على فرنسية أن تتجوَّلَ في أحياء المدينة العتيقة. لم تكن ماتيلد تقرأ الجرائد، ونادراً ما تُنصِتُ للإذاعة، لكن سلمى، أخت زوجها، كانت قد حدَّثَتْها، وعيناها تطفحان بالخُبث، عن قُرْبِ انتصار الشعب المغربي. قالت، وهي تضحكُ، إنَّ شابّاً مغربياً

أُجْبِرَ على أكل علبة سجائر، عقاباً له على عدم احترامه لمقاطعة المنتوجات الفرنسية. «تلقّى أحدُ الجيران ضربةَ شفرةٍ قطعَتْ شفتَيْهِ. قيل إنه كان يُدَخِّنُ ويُغضبُ الله». وفي المدينة الأوروبية، عند خروج التلاميذ من المدرسة الداخلية، لم تكن الأمّهات يتردَّدْنَ في أن يحكين، بصوت قويٍّ وصارمٍ، خياناتِ العرب، مع أنهنّ يُعاملنهم بإكرام واحترام. كُنَّ يُرِدْنَ أن تسمع ماتيلد تلك الروايات التي تتحدَّثُ عن الاختطافات التي يتعرض لها الفرنسيون، ويُحتَجَزون رهائنَ من لدن رجال الجبل، لأنهنّ يعتبرنها شريكةً في تلك الجرائم الفظيعة.

خرجتْ من السيارة، وقد غطَّتْ جسدَها ووجهَها بشكل كامل، وتوجَّهَتْ نحو بيت حماتها. كانت تعرقُ تحت طبقات الثوب، وأحياناً تُدني الوشاحَ الذي يُغطّي فَمَها لتستردَّ نَفَسَها. منحَها ذلك التنكُّرُ انطباعاً غريباً. كانت مثل فتاة صغيرة تتلهّى بتقمُّصِ شخصٍ آخر، وكان ذلك الخداع يُثيرُها. تمرُّ غير مرئية، شبحاً بين الأشباح، ولا يستطيع أحدٌ أن يُخَمِّنَ أنَّ امرأةً أجنبيةً تختفي تحت ذلك الحجاب. تجاوزتْ مجموعةً من الأولاد الصِّغار يبيعون الفولَ السُّودانيَّ المجلوبَ من بوفكران، وتوقَّفتْ أمامَ عربة صغيرة لتتحَسَّسَ بأناملها فاكهة المشمش الهندي برتقالية اللون وشهيَّةً. ساومَتْ الثمنَ بالعربية، وتنازل لها البائعُ، بدويٌّ نحيلٌ وضحوكٌ، عن كيلو واحد بثمن بخس. وَدَّتْ عندئذ أن تزيح حجابَها، وتُريَهِ وجهها، وعينيها الخضراوين الواسعتين، وأن تقول للشيخ: «حسبتَني ما لستُ إياه!» لكن الدعابة بدَتْ لها حمقاء، وتراجعتْ عن الاستمتاع بالسخرية من سذاجة المارّة.

كانت تُحِسُّ بالاختفاء، وهي تسير مغضوضة الطرف، رافِعَةً

الحجابَ إلى ما فوق الأنف، ولم تكن تعرف حقيقةَ شعورها نحو ذلك. فإذا كان ذلك الخفاء يحميها، ويثيرها، فإنه كان أيضاً بمثابة هاوية تغرقُ فيها على الرغم منها، ويبدو لها أنها تفقد، مع كلِّ خطوة، جزءاً من اسمها، وهويّتها، وأنها بوضعها ذلك القناع على وجهها كانت تُخفي قسماً أساسياً من ذاتها. كانت تصير ظِلاً، شخصيةً مألوفةً لكن بلا اسمٍ، ولا جنس، ولا عمر. في المرّات القليلة التي تجرّأتْ فيها على الحديث مع أمين حول وضعية النساء المغربيات، عن مِّي لالَّة التي لا تخرج أبداً من بيتها، وضعَ زوجُها حدّاً سريعاً للنقاش. «مِمَّ تشتكين؟ أنتِ أوروبية، لا أحد يمنعُكِ من أيِّ أمر. إذاً، اهتمّي لنفسكِ واتركي أمي حيث هي».

لكن ماتيلد ألَحَّتْ، مدفوعةً بروح الاعتراض، لأنها لم تكن تستطيعُ مقاومة الرغبة في النضال. فكانت، في المساء، عندما يعود أمين منهوكاً من العمل في الحقول، وقد استنزَفَتْهُ الهمومُ، تُحدِّثُهُ عن مستقبل سلمى وعائشة، الفتاتين الصغيرتين اللتين لم يُخَطَّطْ مصيرُهُما بعد. «سلمى يجب أن تدرس»، كانت تؤكِّد. فإذا احتفظ أمين بهدوئه، واصلتْ كلامَها. «الزمنُ تغيَّر. فَكِّرْ في ابنتكَ كذلك. لا تقلْ لي إنَّكَ تريد أن تُربِّيَ عائشة مثل امرأة خنوع». وكانت ماتيلد عندئذ تستشهد، بعربيتها ذات اللهجة الألزاسية، بكلمات لالَّة عائشة بطنجة في أبريل 1947. فإنما اختارا اسم ابنتهما البكر تيمُّناً بابنة السلطان، وتحرصُ ماتيلد على تذكيره بذلك. ألا يربطُ الوطنيّون أنفسُهُم الرغبةَ في الاستقلال بضرورة تحرير النساء؟ صارت أعدادُ المتعلِّمات منهنّ في تزايد، يرتدين الجلبابَ أو حتى اللباس الأوروبي. كان أمين يُؤَمِّنُ على كلامها بهَزِّ رأسه، لكنه لا يقدِّمُ وعوداً. كان يفكِّرُ، أحياناً، في تلك الأحاديث، وهو يسير، في

الطرق الترابية، وسط العاملات. «من سيرغبُ في الزواج من مُنْحلَّةٍ؟ كان يقول في نفسه. ماتيلد لا تفهم شيئاً». كان يفكّر حينئذ في أُمِّهِ، التي قضتْ حياتَها محبوسةً. لم يكن من حقِّ مِّي لالَّة، في صغرها، أن تذهب إلى المدرسة رفقة أشقَّائها. ثم شيَّدَ السِّي قدّور، زوجُها المرحوم، بيتَ المدينة العتيقة. وكان البناء مراعياً للتقاليد، فلم يترك سوى نافذة صغيرة، في الطابق، ذات شبّاك خشبيٍّ، تظلُّ مقفلَةً على الدوام، ولا يحقُّ لمِّي لالَّة أن تدنو منها. كانت حداثةُ قدّور، الذي كان يُسلِّمُ على الفرنسيات بتقبيل أيديهنّ، ويستمتع، بين الفينة والأخرى، بمومِسٍ يهودية في المرس، تقفُ عند حدود شرف زوجته. وأحياناً، عندما كان أمين، طفلاً، يفاجئ أُمَّهُ وهي تتلصَّصُ على حركة الشارع من خلل خَصَاصِ النافذة، كانت تضع سبَّابَتَها على فمها تدعوهُ إلى أن يحفظَ السِّرَّ بينهما ولا يبوح به لأحد.

كان العالَمُ، بالنسبة إلى مِّي لالَّة، تعبُرُهُ حدودٌ منيعةٌ. بين الرجال والنساء، وبين المسلمين، واليهود، والمسيحيين، وكانت تعتقد أنَّ التفاهمَ بين الناس يقتضي ألّا يلتقوا كثيراً. ويَعُمُّ السِّلْمُ إن لَزِمَ كلُّ واحدٍ مكانَهُ. تخُصُّ اليهودَ في الملّاح بإصلاح المواقد، وصناعة القِفاف، وتقتني أدوات الخياطة الضرورية، من خيّاطة نحيلة، مشعَرة الخدَّين، تُزَوِّدُها بها في البيت. لم تلتقِ أبداً بأصدقاء قدّور الأوروبيين، وهو الذي كان يفتخر بأنه رجلٌ عصريٌّ ويحبُّ ارتداء المعاطفَ والبنطلونات المطوية. لم تطرح أسئلةً عندما نظَّفَتْ، ذات صباح، الصالةَ المخصوصة بزوجها، واكتشفت على الأقداح وأعقابِ السجائر آثاراً حمراء على هيئة فَمٍ.

كان أمين يُحبُّ زوجتَهُ، يحبُّها ويرغبُ فيها لدرجة أن يستيقظ أحياناً، وسط الليل، وبه رغبةٌ في أن يعضَّها، ويلتهمَها، ويتملَّكَها

بكيفية مطلقة. لكنه كان يحدث له أن يشكّ في نفسه. أيُّ حماقة عبرتْ دماغَهُ؟ كيف استطاع أن يعتقد أنَّ في إمكانه العيش مع أوروبية، امرأة شديدة التحرّر مثل ماتيلد؟ كان يبدو له، بِسَبَبِها، وبسبب تلك التناقضات المؤلمة، أنَّ حياتهُ تحكُمُها حركةُ بندولٍ هستيرية. أحياناً، كان يُحِسُّ بحاجة عنيفة وقاسية للعودة إلى ثقافته، وحُبِّ رَبِّهِ، ولغتِهِ وأرضِهِ، بكلِّ قلبه، فيدفعُهُ عدمُ فهم ماتيلد إلى الجنون. كان يريد امرأةً شبيهةً بأُمِّهِ، تفهَمُهُ بالإشارة، وتتصِفُ بصبر شعبه وخضوعه، قليلة الحديث، كثيرة العمل. امرأة تنتظرُهُ في المساء، صموتةً ومطيعةً، وتنظُرُ إليه وهو يأكُلُ، وتجد في ذلك كامل سعادتها ومجدها. كانت ماتيلد تجعل منه خائناً وزنديقاً. كان يودُّ أحياناً أن يبسطَ سجّادة الصلاة، ويضع جبهتَهُ على الأرض، ويُنْصِتَ إلى لغة أسلافه في قلبه وفي فَمِ طفليه. كان يحلم أن يمارس الجنسَ بالعربية، أن يهمس في أذن امرأة ذهبيّة البشرة، كلماتٍ غايةً في الرِّقَّةِ تُقالُ لصغار الأطفال. وفي أحيانٍ أخرى، عندما يعود إلى البيت وترتمي زوجتُهُ على عنقه، وعندما يسمعُ، من الحمّام، ابنتَهُ تُغنِّي، وعندما تخترعُ ماتيلد ألعاباً وتقوم بدعاباتٍ، كان يستمتع بكلِّ ذلك، ويشعُرُ أنه فوق الآخرين. كان يُحِسُّ أنه انسلَّ من القطيع، ولا يجد بدّاً من الإقرار بأنَّ الحربَ غَيَّرَتْهُ، وأنَّ الحداثةَ لديها محاسنُها. كان يخجل من نفسه، ومن تردُّدِهِ، وكانت ماتيلد، ويعلمُ ذلك جيّداً، هي من تدفع الثمن.

*

عندما وصلتْ ماتيلد أمام الباب العتيقة المُسَمَّرة، أمسكتْ بالمطرقة وقرعتْ قرعتين قويّتين. جاءت ياسمين لتفتح البابَ، وقد

رفعتْ تنّورتَها، وبدتْ رَبْلَتاها السوداوان يُغَطّيهُما زغبٌ مجعَّد. كانت الساعةُ تقترب من العاشرة صباحاً، لكن البيت كان هادئاً. كان يُسمَعُ صوتُ القِطَط وهي تتمطَّطُ، وصوتُ الممسحة المبلَّلة ترميها الخادمةُ على الأرض. خلعتْ ماتيلد جلبابَها، تحت عينيْ ياسمين المندهشتين، وألقَتْ وشاحَها فوق أريكةٍ وصعدتْ إلى الطابق وهي تركض. سعلتْ ياسمين وبصقَتْ في البئر نُخامَةً كثيفةً خضراء.

في الطابق، وجدتْ ماتيلد سلمى نائمةً على المقعد المُنَجَّد. كانت تحبُّ كثيراً تلك الفتاةَ المزاجيةَ والمتمرِّدَة التي احتفلتْ مؤخَّراً بعامها السادس عشر. فتاة بلا خصال، لكن ليست دون جمال، وتكتفي مِّي لالَّة بأن تمنحها الحبَّ والغِذاء. «هذا في حدِّ ذاته كثيرٌ»، قال لها أمين معلِّقاً على ذلك ذات يوم. أجل، كان ذلك كثيراً، لكنه لم يكن كافياً. كانت سلمى تعيشُ بين حُبِّ أُمِّها الأعمى ومراقبة أشقّائها العنيفة. منذ أن صار لها وركان ونهدان، أُعْلِنَتْ سلمى صالحةً للضرب، ولم يعد إخوتُها يتردَّدون في أن يُطَوِّحوا بها على الجدران. كان عُمَر، الذي يكبرها بعشر سنوات، يقول إنَّهُ يشُمُّ لدى أخته رائحةَ الميل إلى التمرّد، وروح جموح. كان يغار من الحماية التي تتمتع بها، من الحنان الذي اكتشفَتْهُ أمُّهُ متأخرةً، وحرمَتْهُ هو منه. كان جمالُ سلمى يجعلُ إخوتَها عصبيّين مثل حيوانات تحدُسُ اقترابَ العاصفة. كانوا يودّون أن يضربوها استباقياً، أن يحبسوها قبل أن ترتكب حماقةً ويكون قد فات الأوان.

ومع توالي الأعوام، ازدادت سلمى جمالاً، جمالاً يُزعِجُ الناسَ، ويُحْنِقُهم، ويُضايقهُمْ، ويبدو أنَّهُ يُنْذِرُ بأسوأ المصائب. كانت ماتيلد، عندما تنظر إليها، تتساءل عمّا يمكن أن تشعر به من كانت في جمالها. هل ذاك مؤلِمٌ؟ أللجمالِ ثقلٌ، وطعمٌ، وتناغمٌ؟

هل كانت سلمى واعيةً بما يثيرُهُ حضورُها من تضايق واضطراب، وبالانجذاب القاهر الذي يفرضُهُ النَّظَرُ إلى ملامح وجهها الفاتن الدقيقة والرائعة؟

كانت ماتيلد زوجةً، وأُمّاً، غير أنَّ الغريب هو أنَّ سلمى كانت تبدو أكثر أنوثة منها. خلَّفت الحربُ آثارَها على جسد ماتيلد التي كانت قد احتفلتْ بعامها الثالث عشر يوم 2 مايو 1939. تأخَّرَ نهداها في البروز، أَضْمَرَهُما الخوفُ، والحاجةُ، والجوعُ. كان شعرها الباهتُ الشُّقْرَةِ، دقيقاً جدّاً، تظهرُ جمجُمتُها عبره، مثل شَعر المواليد. بينما كانت سلمى تَصْدُرُ عنها أنوثةٌ واثقةٌ. عيناها سوداوان ولامعتان سوادَ ولمعان الزيتون الذي كانت تنقعُهُ مِّي لالَّة في الملح. حاجباها سميكان، وشعرها كثيفٌ تمتدُّ جذورُهُ إلى أسفل الجبهة، ويمنحُها الزغبُ الخفيفُ فوق شَفَتِها شَبَهاً ببطلة بيزيه أو ببطلات ميريميه، أو على كلٍّ، شبهاً بما كانت تربطُ ماتيلد بينه وبين نساء البحر الأبيض المتوسط. نساء مشعرات وذوات حساسية عالية، سمراوات قادرات على دفع الرجال إلى الجنون. كانت سلمى، على الرغم من صغر سنِّها، تمتازُ بتلك الطريقة في الدفع بذقنها إلى الأمام، والعضِّ الخفيف على شفتيها، وتحريك خَصْرها، مستقيمةً، ما يجعل هيئتَها تحاكي هيئةَ بطلة الرواية العاطفية. كانت النساءُ يكرهنَها. واتَّخَذَتْها مُدَرِّسَتُها، في الثانوية، هدفاً لتوبيخها وعقابها الدائمين. «إنها مراهقة متمرِّدة وقليلة الحياء. صدِّقيني، فأنا أخاف أن أوليها ظهري. يصيبُني مجرَّد معرفتي أنَّها هناك، جالسةً خلفي، برعب شديد، وإن كنت أعلم بالطبع أنه أمرٌ غير معقول». اعترفتْ بهذا لماتيلد التي كانت قرَّرَتْ مراقبةَ تربية شقيقة زوجها.

*

عام 1942، عندما وقع أمين أسيراً لدى الألمان، غادرتْ مِّي لالَّة، لأول مرة في حياتها، أزقَّةَ برّيمة المألوفةَ. ركبت القطار إلى الرباط، رفقة عمر وسلمى، حيث كانت قيادة الجيش استدعَتْها، وكانت تأملُ أن تُرسِلَ من هناك طرداً لابنها العزيز. صعدت مِّي لالَّة القطار ملفوفةً في حايكٍ كبير أبيض، واستبدَّ بها الخوفُ عندما غادر القطارُ المحطَّةَ وسطَ الدُّخان والصَّفير. ونظرتْ طويلاً إلى الرجال والنساء الذين بقوا فوق الرصيف، يلوِّحون عبثاً بأيديهم. أجلسَ عمر والدَتَهُ وشقيقتَهُ الصغرى داخل مقصورة من الدرجة الأولى، حيث كانت تجلس فرنسيتان. أخذتا تتهامسان، كأنهما مندهشتان من أن تستطيع امرأةٌ مثل مِّي لالَّة، بما تضعُهُ من حِلِي في قدميها، وبشعرها المدهون بالحنّاء، وبيديها الطويلتين الخشنتين، أن تسافر إلى جانبهما. كانت الدرجة الأولى محظورةً على الأهالي، ولا تصدِّقان مدى بلادة ووقاحة هؤلاء الأمّيين. وعندما دخل المراقبُ إلى العربة، لم تتمكَّنا من أن تحبسا رعشةَ إثارةٍ. «آه، ستنتهي هذه الملهاة، قالتا في نفسيهما. سيُلقِّنُ فاطمة أين يكون مكانها. أتظُنُّ أنَّ في إمكانها أن تجلس حيث تشاء. توجد قوانين يجب أن تُحترَم».
أخرجتْ مِّي لالَّة تذاكر القطار من الحايك وكذا الورقة العسكرية التي تثبتُ أَسْرَ ابنها. فحصَ المراقبُ الورقةَ وحَكَّ جبينهُ، باديَ الانزعاج. «سفر سعيد، سيدتي»، قال وهو يرفع قبَّعَتَهُ. واختفى في المَمَرِّ.

لم تُصدِّق الفرنسيتان الأمر. لقد أُفسِدَ عليهما سفرُهما. لا تستطيعان تحمُّلَ منظر تلك المرأة الملفوفة في الحجاب. تضايقُهُم رائحةُ التوابل التي تضوعُ منها، والنظرةُ البليدة التي تتأمل بها الطبيعة. كانتا منزعجتين، خصوصاً من تلك الوسخة الصغيرة التي

ترافقها. فتاة صغيرة في السادسة أو السابعة من عمرها، ترتدي لباساً بورجوازياً لا يكفي لحجب سوء تربيتها. كانت سلمى، التي تسافر لأول مرة، تضطربُ في جميع الاتجاهات. تصعد فوق ركبتَي أُمِّها، تطلبُ الأكلَ ثم تلتهمُ الحلويات، والعسلُ ملء أصابعها. كانت تُكلِّمُ بصوت عالٍ شقيقَها الذي يتمشّى في المَمَرِّ، وتَتَرَنَّمُ بأغانٍ عربية. كانت صغرى الفرنسيتَين وأشدَّهُما امتعاضاً تنظُرُ بإلحاح إلى الطفلة. «إنها جميلة جدّاً»، قالت في نفسها، وأسخطَها جمالُ الفتاة من غير أن تعرف سبباً لسخطها. كانت تشعر كأنَّ سلمى سرقتْ ذلك الوجهَ المليحَ، خَطَفَتْهُ من أخرى كانت تستحقُّهُ أكثر منها، ولا بدَّ أنها كانت ستعتني به أفضل عناية. كانت الفتاةُ جميلةً وغير آبهة لذلك الجمال، وهو الأمر الذي يضاعفُ خطورتَها. كانت أشعةُ الشمس التي تخترق العربةَ، بضوئها البرتقاليِّ الدافئ، على الرغم من الستائر الحاجبة الرقيقة التي أسدلتها المسافرتان، تُغْدِقُ على شَعَرِ سلمى لمعاناً رائعاً. فلا يزيد ذلك بشرتَها النحاسيةَ إلَّا نعومةً، ودهنيةً. وتشبهُ عيناها الواسعتان والهائلتان عَيْنَي نَمِرٍ أسود شاهدَتْهُ الفرنسيةُ في باريس، قديماً. لا أحد، قالت الفرنسيةُ في نفسها، له مثل هاتين العينين. «لا بدَّ أنَّ أحدهم زَيَّنَ عينيها، همسَتْ في أذن صديقتها

- ما الذي تقولين؟».

مالت المرأةُ الشابَّةُ نحو مِّي لالَّة، وقالت لها وهي تتلفَّظُ كلماتها حرفاً حرفاً:

«لا ينبغي تزيين الأطفال. الكُحْلُ في العينين ليس جيّداً. هذا أمرٌ بذيء. أتفهمين؟».

نظرتْ إليها مِّي لالَّة بإمعان دون أن تُدركَ معنى كلماتها. التفتتْ

نحو سلمى، التي شرعتْ في الضحك وقدَّمتْ علبةَ حلويات للمسافرتين. «العجوز لا تتحدث الفرنسية. طبعاً!» شعرت الفرنسيةُ بالامتعاض، فقد ضاعتْ منها فرصةُ تأكيد تفوّقها. إذا كانت تلك المرأة الأهليةُ لا تفهمُ، فلا جدوى من الكلام، لن تحاول تربيتَها. ثم، كأنَّها أصيبَتْ بفورة جنون، أمسكَتْ بذراع سلمى وجذبتْها نحوها. أخرجتْ منديلاً من حقيبتها، بصقتْ فيه، وشرعتْ بحركة سريعة، تمسحُ عينيْ سلمى التي أطلقتْ صرخةً. جذبتْ مِّي لالَّة ابنتَها إليها لكن الأخرى واصلتْ فعلَها بإصرار. تتفحَّصُ بيأسٍ الثوبَ الذي حافظَ على نظافته، وتعود للفَرْكِ، لتُثْبِتَ لنفسها ولرفيقة سفرها أنَّ تلك الفتاة إنما هي بَغِيٌّ بالقوة، عاهرةٌ. أجل، إنها تعرف تلك الفتيات، السمراوات اللواتي لا يخشين شيئاً، وكنَّ يُصِبْنَ زوجَها بالجنون. تعرفهنَّ وتكرههنَّ. اندفع عمر، الذي كان يُدَخِّنُ في المَمَرِّ، داخلَ المقصورة، وقد راعَتْهُ الصرخاتُ. «ما الذي يجري؟» انتابَ الخوفُ المسافرةَ أمام ذلك المراهق ذي النظّارة، فغادرت المقصورةَ بصمتٍ.

في الغد، بعد العودة إلى مكناس، وسعيداً بتمكُّنه من بعث رسائل وبرتقال إلى أمين، صَفَعَ عمرُ شقيقتَهُ. لم تفهم شيئاً، وعندما بَكَتْ، قال لها أخوها: «لا تفكِّري في أن تتزيَّني في يوم من الأيام، أفهمتِ؟ إنْ تتهوَّري بوضع أحمر الشفاه، أصنعْ لكِ الابتسامةَ الكبرى، هيَّا». وبسبّابته، رسم على وجه الطفلة ابتسامةً مرعبةً.

*

صعدت سلمى فوق السرير وأمسكَتْ بذراعيها عنقَ زوجة أخيها وغمرتْ وجهها بالقبلات. منذ أن عرفتها، قامتْ سلمى بالنسبة إلى

ماتيلد مقامَ المرشدة، والمترجمة، والصديقة المفضَّلة. شرحتْ لها سلمى الطُّقوسَ، والتقاليدَ، ولَقَّنَتْها عبارات أدب المعاملة. «إن حرتِ في الجواب، قولي آمين، وسيكون ذلك كافياً». علَّمَتْها سلمى فنَّ التظاهر وفنَّ الاحتفاظ بالهدوء. وعندما كانتا تخلوان بعضهما إلى بعض، كانت أسئلةُ سلمى تتهاطلُ على ماتيلد. تريد أن تعرف كلَّ شيء عن فرنسا، عن الأسفار، عن باريس والجنود الأميركيين الذين صادفتهم ماتيلد عند التحرير. كانت تطرحُ أسئلةً مثلما يسألُ سجينٌ رجلاً أفلح في الفرار، مرة واحدة على الأقل.

«ماذا تفعلين هنا؟ سألتْ سلمى ماتيلد.

- سأتسوَّقُ من أجل أعياد الميلاد، همست الفرنسيةُ. أترغبين في مرافقتي؟».

رافقتْ ماتيلد أختَ زوجها إلى غرفتها ونظرتْ إليها وهي تخلع ملابسَها. جلستْ فوق وسادة مطروحة فوق الأرض، وأخذتْ تتأمَّلُ وَرِكَيْ سلمى الرفيعين، وبطنَها السمين بعض الشيء، ونهديْها بحلمتين غامقتين، واللذين لم يخضعا أبداً لأسْرِ درعَيْ حمالة الصدر. ارتدتْ سلمى فستاناً أنيقاً أسود تُبْرِزُ ياقَتُهُ المستديرةُ رهافةَ رقبتها. وأخرجتْ من علبةٍ قفازَين باهتَين تكسوهما بقعُ عفنٍ صغيرةٌ، وارتدَتْهما بحِرْصٍ سخيف.

كانت مِّي لالَّة قلقةً.

«لا أريد أن تتجوَّلي في المدينة العتيقة، قالت لماتيلد. أنتِ لا تعرفين أنَّ الناس حسودون. إنهم مستعدّون لأن يُصابوا بالعَوَر شرطَ أن تُصابا بالعمى. فتاتان جميلتان في جمالكما، لا، هذا لا يجوز. سيصيبُكُما أهلُ المدينة العتيقة بالعين، ولن تعودا منها إلا محمومتين

أو أدهى من ذلك. إن أردتُما أن تتجوَّلا، اذهبا إلى المدينة الجديدة، هناك لن تُغامِرا بأنْ يصيبكما أيُّ شَرٍّ.

– لكن ما الفرقُ بين المدينتين؟ سألَتْها ماتيلد مداعِبَةً.

– الأوروبيون لا ينظرون بتلك الطريقة. لا يعرفون العين الخبيثة».

خرجت الفتاتان وهما تضحكان، وظلَّتْ مِّي لالَّة طويلاً خلف الباب، ترتعد في حيرة من أمرها. لم تكن تفهم شيئاً مّما يحدُثُ، ولا تدري أيُّ الشعورَين يغلبُ عليها وهي ترى تينك الفتاتين تخرجان إلى الشارع، أهو القلق أم الفرح.

لم تعد سلمى تطيقُ تلك الأساطيرَ البلهاءَ، والمعتقداتِ المتخلِّفَةَ التي كانت تُردِّدُها مِّي لالَّة دون كَلَلٍ. لم تعد سلمى تُنْصِتُ إليها، ولولا أنها تخشى الإخلالَ باحترام والدتها، لوضعتْ إصبعيْها في أذنَيها، وأغمَضَتْ عينَيها، كُلَّما حذَّرَتْها أمُّها من الجِنِّ، والسِّحر، وعين القَدَر السوداء. لم يكن لدى مِّي لالَّة جديداً تُقَدِّمُهُ. حياتُها دورانٌ في دائرة مغلقة، تؤدي فيه الحركات نفسها، بإذعان، واستسلام، يثيران اشمئزازَ سلمى. كانت العجوزُ مثل تلك الكلاب الحمقاء التي تُصابُ بالدُّوار من شدة إصرارها على عَضِّ ذيلها وينتهي بها المطافُ منطرحةً على الأرض منتحِبَةً. لم تعد سلمى تطيقُ حضورَ أمِّها المتواصِل، فكلما سمعت البابَ يُفتَحُ سألتْ: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟». تسألُ دائماً سلمى إن كانت جائعةً، وإن كانت تشعر بالضَّجر، وعلى الرغم من كبر سنِّها تصعدُ وراءها إلى السطح لتتحرّى ما تفعلُهُ. كانت عنايةُ مِّي لالَّة، وحنانُها، يسحقان سلمى ويمثِّلان بالنسبة إليها ضرباً من العنف. كانت الفتاةُ تستبدُّ بها أحياناً

الرغبةُ في أن تصرخ في وجه مِّي لالَّة، وفي وجه ياسمين الخادمة كذلك، وتَعْتَبِرُ المرأتين كلتيهما عبدتَين، ولا يهمُّ كثيراً أن تكون إحداهما اشترت الأخرى من سوق النخاسة. كانت المراهقة مستعدةً أن تبذل كلَّ شيء من أجل الحصول على قُفْلٍ ومفتاح، ومن أجل بابٍ مُقفَلٍ على أحلامها وأسرارها. كانت تُصلِّي من أجل أن يكون مصيرُها وفق هواها، فتستطيع أن تهربَ، ذات يومٍ، إلى الدار البيضاء وتخلقَ حياتها من جديد. مثل أولئك الرجال الذين كانوا يصرخون «حرية! استقلال!»، كانت تصرخُ بدورها «حرية! استقلال!»، لكن لا أحد كان يُنصِتُ إليها.

توسَّلَت إلى ماتيلد أن تأخذها إلى ساحة ديغول. كانت تريد أن «تجوبَ البولڤار» كما كان يقول جميعُ أولاد المدينة الجديدة وجميعُ فتياتها. تتشوَّقُ لأن تكون مثلهم، هم الذين يعيشون من أجل أن يراهم الآخرون، يصعدون وينزلون شارعَ الجمهورية راجلين أو على متن سياراتهم، متمهِّلين قدر الإمكان، وقد أشرعوا نوافذها وأطلقوا صوت الراديو على أقصاه. أن تخرج كي يراها الناسُ مثل الفتيات هنا، وأن تُتَوَّجَ ملكةً للمعرضِ، وأن تُنْتَخَبَ أجمل فتاة في مكناس، وأن تختال أمام الأولاد والمُصَوِّرين. كانت مستعدة لأن تهب أيَّ شيء من أجل أن تضع قبلةً على عنق رجل، وأن تعرف كيف ينظرون إليها. لم تكن تشكُّ، وهي التي لم تشهد أبداً حبّاً كبيراً، في أنَّ مثل ذلك الحبّ سيكون أجمل شيء في العالم. لقد ولَّى العهدُ القديمُ، عهدُ الزواج المُرَتَّب. أو على الأقل، هذا ما قالتْهُ لها ماتيلد، وكانت تريدُ أن تصدِّقه.

مكتبة
t.me/t_pdf

*

وافقتْ ماتيلد، ليس إرضاءً لشقيقة زوجها فحسب، بل لأنها كانت تريد التبضُّعَ من الحيِّ الأوروبي. تكاد سلمى تصيرُ امرأةً الآن، لكنها توقَّفتْ طويلاً أمام متجر الألعاب، وعندما وضعتْ قفّازَيْها على زجاج الواجهة، خرج أحد الباعة وصاح بها: «ارفعي يديك عن الزجاج!». كان الناسُ ينظرون إليها بحذرٍ، بلباسها الأوروبيّ، وشعرها المعقود بارتخاء على أسفل رقبتها بواسطة كعكة. لا تتوقفُ عن تعديل قفّازيها الأبيضين، وتسوِّي تنُّورتَها بهوسٍ سخيف، وتبتسمُ للمارّة وهي تأملُ بسذاجة أن تصحِّحَ الخللَ وتمحوَ قلقَهم. وعندما مَرَّتا أمام مقهى، صَفَّرَ ثلاثةُ أولاد عند رؤيتها، وتضايقتْ ماتيلد من تبسُّم سلمى رَدّاً على صفيرهم. أمسكتْ حينئذ بيدها وأسرعت الخطوَ مبتعدةً، خشيةَ أن يراهما أحدٌ فيعلم أمين بالحادث المزعِج. أسرعتا نحو السوق الكبير، وقالت ماتيلد: «يجب أن أتبضَّعَ من أجل العشاء. لا تبتعدي». كانت مجموعة من النساء ينتظرن، عند باب السوق، أن يقصدهُنَّ أحدٌ لاستخدامهنَّ خادماتِ بيوت أو حارسات أطفال. يرتدين جميعُهُنَّ نقاباً فوق وجوههنَّ، باستثناء واحدة أفزعَتْ سلمى بفمها الأدرد، فقالت في نفسها: «من سيقبَلُ بهذه؟». كانت المراهقةُ تتمشّى ببطء، تَجُرُّ حذاءيها الخفيفين فوق الرصيف المبلّل. كانت تودُّ أن تبقى في المدينة، وأن تأكل قشدةً مثلَّجَةً، وتستمتع بمشاهدة الفساتين في الواجهات، والنساء اللواتي يقدنَ سيارتهنَّ بأنفسهنَّ. تودُّ أن تكون واحدةً من أولئك الشباب الذين ينظِّمون الحفلات الخاصة في بيوتهم يوم الخميس بعد الزوال ويرقصون على وقع الموسيقى الأميركية. وضعَ البائعُ، خلفَ زجاج واجهة متجر البُنِّ، رجلاً آلياً، رجلاً أسود اللون، أفطَسَ الأنف، غليظَ الشفتين، يَهُزُّ

رأسهُ. وقفتْ سلمى أمام التمثال وظلَّتْ تُحرِّكُ رأسَها مثله بضعةَ دقائق، كأنها دميةٌ آليةٌ. وضحكتْ في المجزرة بسبب الديكِ المرسوم على لافتة وتعلوهُ هذه الكلمات: «عندما سيصيح هذا الدِّيكُ، سنبيعُكَ السِّلعةَ بالدَّين». أرادتْ أنْ تُرِيَ ذلك الرَّسمَ لماتيلد التي تضايقتْ من ذلك. «لا يهمُّكِ سوى الضحك. ألا ترينَ أنني مشغولة؟» كانت ماتيلد قلقةً. تُفَتِّشُ في أعماق جيوبها. وتعيد حسابَ النقود التي يقدِّمُها لها التُّجَّارُ، عاقدةً حاجبيها. كان المالُ قد صار موضوع مشاجرة لا تنتهي. يتّهِمُها أمين بالاستهتار والتبذير. وتضطرُّ الإلحاح، والتبرير، والتّوسُّل أحياناً، للحصول على المال من أجل المدرسة، أو السيارة، أو ملابس الصغيرة، أو لدفع ثمن الحلّاق. كان يُشَكِّكُ في كلامها، ويتَّهمها بشراء الكتب، والماكياج، وأثواب تافهةٍ لتخيط منها فساتين لا يكترثُ لها أحدٌ. «أنا من يحصُلُ على المال»، كان يصيح أحياناً. ويشيرُ بإصبعه إلى الأطعمة الموضوعة فوق المائدة، ويضيفُ: «هذا، وهذا، وهذا، كلُّ هذا أدفعُ ثمنَهُ أنا».

لم يخطر أبداً على بال ماتيلد، إبّان مراهقتها، أنَّ في إمكانها أن تكون حرَّةً وحدَها. كان يبدو لها مستحيلاً ألّا يكون مصيرُها متعلِّقاً بمصير شخص آخر، لأنها امرأة، ولأنها لم تتابع دراستَها. أدركَتْ خطأ اعتقادها ذلك فيما بعد، والآن وقد اكتسبت قدرةً على التمييز وقدراً قليلاً من الشجاعة، لم يعد في مستطاعها أن ترحل. صار الطفلان بمثابة جذورٍ تربطُها بهذه الأرض، على الرغم منها. لم يكن في إمكانها أن تذهب إلى أيِّ مكان دون مالٍ، وكانت تتمزَّقُ من تلك التبعية وذاك الخضوع. ولم يختَفِ ذلك الإحساسُ على الرغم من مرور الأعوام، ولا يزال يُصيبُها بالغثيان، مثل انطواءٍ

للذات، وانسحاقٍ يجعلها تتقزّزُ من نفسها. كانت كلّما دَسَّ أمين في يدها ورقةَ نقدٍ، أو اشترت لنفسها شوكولاتة اشتهتْها، تساءلتْ إن كانت تستحقُّ ذلك. تخشى أن يأتيَ عليها يومٌ فوق هذه الأرض الغريبة، وقد صارت عجوزاً، وليس لديها شيءٌ تملكُهُ أو أنجزَتْهُ.

عندما عاد أمين إلى بيته مساء يوم 23 ديسمبر 1953، أصيب بالانبهار. توجَّهَ على طرفَي قدميه إلى الصالة الصغيرة حيث تركتْ ماتيلد بضع شموع موقدَة فوق إكليل من الأوراق صنعَتْهُ بنفسها. وفوق الخِوان كعكةٌ مغطّاةٌ بمنديل مطرَّز، وتُزيِّنُ الجدارَ شرائطُ حمراء، موشّاة بكريّاتٍ زجاجية ورُبُطٍ حريريّةٍ.

صارتْ ماتيلد ربَّةَ مزرعتها. استطاعتْ أن تُثبت، بعد أربع سنوات من العيش في المزرعة، أنها قادرة على أن تصنع الكثيرَ من القليل، أن تُزَيِّنَ الطاولات بالأغطية وباقاتِ ورودِ الحقول، وأن تُلبِسَ طفليها بشكل لائق مثل أطفال البورجوازية، وأن تُعِدَّ وجبات الأكل على الرغم من الموقد الذي يُدخِّن. لم تعد تفزعُ مثلما في السابق؛ تسحقُ الهوامَّ تحت نعليها، وتُقَطِّعُ بيديها الحيوانات التي يهديها إياها البدويون. كان أمين فخوراً بها ويحبُّ أن ينظر إليها، ترشحُ عرقاً، مُحمرَّةَ الوجه، وقد قصَّرَتْ كُمَّيْها إلى الكتفين، وهي تشتغل في البيت. كانت عصبيةُ زوجته تُثيرُهُ، وعندما يقبِّلُها يقول لها «حُبّي»، «حبيبتي»، «عسكريّي الصغير».

لو كان في مستطاعه، لأهداها الشتاءَ والثلجَ، ولتصَوَّرَتْ نفسَها في الألزاس مسقط رأسها. ولو كان في مستطاعه، لحَفَرَ في جدار

الأسمنت مدفأةً نبيلةً وواسعةً ولجلسَتْ تستدفئ قربَها، مثلما كانت تفعل أمام موقد بيت طفولتها. لم يتمكّن من أن يهديها لا ناراً ولا ندف ثلج، لكنه في تلك الليلة، بدل أن يذهب إلى فراشه، أرسلَ يوقِظُ عاملَين وجَرَّهُما خلفَهُ عبر الحقول. لم يسأل البدويّان السيِّدَ عن السبب. مَشَيا خلفه منصاعين، وبينما كانوا يتوغَّلون داخل البادية، يغمرهم الظلامُ وأصواتُ الحيوانات، فكَّرا في أنهما قد يكونا ضحيَّةَ مصيدة، أو تصفيةِ حسابات، أو إن السيِّد سيعاقبهما بسبب جريمة لا يتذكَّران أنهما اقترفاها. كان أمين قد أمرهُما أن يتسلَّحا بفأس ولم يكن يتوقَّفُ عن الالتفات والهمس «بسرعة، لا ينبغي أن يفاجئنا النهار الطالع». أمسكَ أحدُ العاملين، الذي يُسمّى عاشور، بكُمِّ السَّيِّد. «لسنا في مزرعتنا، سيدي. نحن في أرض الأرملة». هَزَّ أمين كتفيه ودفع عاشور. «تقدَّمْ واصْمُتْ»، قال له وهو يمُدُّ ذراعَهُ ليضيء بمصباحه الكهربائي الصغير. «هنا». رفعَ أمين رأسَهُ وبقي على تلك الحال ثوانيَ معدودةً، بارز الحنجرة، مُثبِّتاً نظرَهُ على قمم الأشجار. كان يبدو سعيداً. «تلك الشجرة، هناك، لنقطَعْها ولنأخذْها إلى البيت. بسرعة ودون ضوضاء». ظلَّ الرجلان، قرابة الساعة، يضربان بفأسيهما جذعَ شجرةِ السَّرْو الصغيرة بأوراقها الزرقاء مثل الليل. ثم رفع الرجالُ الثلاثةُ الشجرةَ، أحدُهم عند رأسها، والثاني عند الجذور، والثالث يصنع التوازنَ في الوسط. وعبروا، على تلك الحال، مزرعةَ الأرملة ميرسييه، ولو أنَّ أحداً شهد ذلك المنظر لظنَّ بنفسه الجنونَ، لأنَّ الأوراق كانت تُخفي أجسامَ الرجال الثلاثة، فيبدو كأنَّ الشجرة المُمَدَّدَة تتقدَّمُ وحدَها، نحو وجهة مجهولة. حمل العاملان الضحيَّةَ دون تقاعس لكنهما لم يفقها شيئاً فيما جرى. كان أمين مشهوداً له بالأمانة وها

هو يتحوَّلُ إلى لِصٍّ، صيّاد غير شرعي، يستولي بالخديعة على ممتلكات امرأة. ثم، إنْ لم يكن بُدٌّ من السرقة، لماذا لا يقصد الحيوانات، والمحاصيل، والآلات؟ لماذا يأخذ هذه الشجرة الضئيلة؟

فتح أمين البابَ، ودخل العاملان إلى بيت السَّيِّد لأول مرة في حياتهما. وضعَ أمين إصبعاً على فمه، وخلع حذاءيه أمام العاملَين، ففعلا مثله. وضعوا الشجرةَ وسطَ الصالة. كانت عالية يتقوَّسُ رأسُها تحت السَّقف، فأرادَ عاشور أن يتَّخذَ سُلَّماً ليقطَعَهُ، فأثار سخطَ أمين. كان وجود ذلك الرجل وسط صالة بيته يضايقُهُ فأخرجَهُ دون مراعاة.

عندما استيقظَ أمين في الغد، مُنْهَكاً من النوم القليل والكتف المؤلِمة، داعبَ ظهر زوجته. كانت بشرة ماتيلد رطبةً وحارقةً، يسيلُ من فمها المفغور خيطُ لعابٍ دقيقٌ، فشعر إزاءها برغبة عنيفة. أغمدَ أنفَهُ في عنق المرأة الشابّة ولم يُعر انتباهاً لما غمغمتْ من كلمات. أخذَها مثل حيوان، أطرش وأعمى. توغَّلَتْ أصابِعُهُ، السوداء أظفارها، في شعرها. عندما اكتشفَتْ ماتيلد الشجرةَ وسطَ الصّالة، حبستْ صرخةً. التفتتْ نحو أمين الذي كان يسيرُ خلفها وفهمتْ أنه إنما انتزعَ منها هذا الصباح جائزتَهُ، وأنه أخذها بكلِّ تلك الشهوة احتفالاً بنصرِهِ. دارتْ حول شجرة السَّرو، والتقطَتْ بضع شوكات وعركتْها في راحة يدها واستنشقت عطرها المألوفَ. وقفتْ عائشة، التي أيقظَتْها خرخرةُ أبيها، تتأمَّلُ المشهدَ دون أن تفهم. كانت أمُّها سعيدةً، وذلك يُدْهِشُها.

في ذلك اليوم، وبينما ماتيلد وطامو تنزعان ريشَ ديكٍ روميٍّ ضخمٍ جلبَهُ أحدُ العمّال، توجَّهَ أمين إلى شارع الجمهورية. وعندما

دخل إلى المتجر الأنيق الذي تُديرُهُ عجوزٌ فرنسيةٌ، فهقهت البائعتان. غضَّ أمين من بصره وندمَ على عدم تغيير حذائه. كان حذاؤه ملطَّخاً بطين البارحة ولم يجد الوقت ليطلب أن يُكوى قميصه. كان المتجر مأهولاً. ينتظر نحو عشرة أشخاص أمام صندوق الأداء محمَّلين برِزَمِ المشتريات. تقيسُ نساء أنيقاتٌ القبّعات أو الأحذية. اقترب أمين ببطء من المعارض الزجاجية المعلَّقة على الجدار حيث كانت تُعرَضُ مختلفُ نعال النساء. «ماذا تريدُ؟» سألتْهُ إحدى الفتاتَين بابتسامة تجمع بين السخرية والخلاعة. كاد أمين أن يقول إنه قد أخطأ. ظلَّ صامتاً لحظاتٍ، يتساءلُ عن كيف ينبغي أن يتصرَّفَ، فعبَّرتِ الفتاةُ عن دهشتها بعينيها، وأدْنَتْ رأسَها منه. «هيّا محمد، أتفهمُ الفرنسية؟ ألا ترى أننا لدينا عمل؟

- هل لديكم حجمي؟» قال أمين.

التفتتْ الفتاةُ نحو الموضع الذي أشار إليه أمين ونظرت إليه حائرةً.

سألتْهُ: «هذا ما تريدُهُ؟ لباس تنكُّر بابا نُويل؟».

خفضَ أمين رأسَهُ مثل طفل ضُبِطَ متلبِّساً. رفعت الفتاةُ كتفيها. «انتظرني هنا». اجتازت المتجر وذهبت إلى المخزن. هذا الرجل، قالت في نفسها، لا يشبه خادماً يفرض عليه رئيسُهُ أن يرتدي ذلك الضرب من القناع لتسلية الأطفال. لا، إنه أكثر شبهاً بأولئك الشباب الوطنيين الذين كانوا يُقبَضُ عليهم في مقاهي المدينة العتيقة، والذين كانت تحلم في استيهاماتها بأن تنام مع أحدهم. لكنها لا تستطيع أن تتخيَّلَ واحداً منهم بلحيةٍ بيضاء ويعتمر قبّعةً بشعة. ظلَّ أمين، أمام صندوق الأداء، ينتظر دوره، فارغَ الصبر. كان يشعر، وهو يحمل طردَهُ تحت ذراعه، كأنه يرتكب جريمةً، ويرشح عرقاً خشيةَ أن

يفاجئه أحدُ معارفه في ذلك المحلّ. سارَ بسيارته بأقصى سرعة في الطريق الريفية، وهو يفكِّرُ في المتعة التي سيمنحُها لطفلَيه.

ارتدى لباسَهُ داخل السيارة ودخل البيت على تلك الصورة. عندما ارتقى درجات السُّلَّم وفتحَ بابَ قاعة الطعام، تنحنح عالياً، ونادى على طفلَيه بصوت وقور ودافئ. لم تصدِّق عائشة الأمر. التفتت مرّاتٍ عديدة نحو أمها ونحو سليم الذي كان يضحك. كيف وصلَ بابا نُويل إلى غاية هنا؟ كان العجوزُ ذو القبعة الحمراء يُربِّتُ على بطنه ضاحكاً، لكن عائشة لاحظتْ أنه لا يحمل كيساً على ظهره، فأصابها ذلك بالخيبة. كما أن الحديقة في الخارج كانت خاليةً من العربة الزلّاجة ومن حيوان الرَّنَّة الذي يجرُّها. خفضت بصرَها ولاحظتْ أنَّ بابا نُويل ينتعل حذاءين شبيهَين بأحذية العمّال، أحذية طويلة من المطّاط الرمادي، ملطَّخة بالطّين. فركَ أمين يديه. لم يعرف ما ينبغي أن يفعله أو يقوله، فشعر فجأة أنه سخيف. التفت نحو ماتيلد، فمنحَتْهُ ابتسامةُ زوجته البهيجةُ الشجاعةَ على الاستمرار في تمثيل دوره. «هيّا أيها الطفلان، هل كنتما مُهذَّبيْن؟» سألهما بصوت عميق. شحب وجهُ سليم، وتعلَّق بساقَيْ أُمِّهِ، وشرع يبكي وهو يَمُدُّ ذراعيه نحوها. «أنا خائف، صاح، أنا خائف!».

حصلتْ عائشة على دمية من الثوب صنعتْها ماتيلد بنفسها. اتّخذت الشّعر من الصوف الأسمر الذي بلَّلَتْهُ ثم دهنَتْهُ بالزيت وضَفَرَتْهُ. وصنعَتْ جسدَها ووجهها من غشاء وسادةٍ قديمة، طرزت عليها ماتيلد عينَين غير متناسقتَين وفماً يبتسمُ. أحبَّتْ عائشة تلكَ الدميةَ التي حرصتْ أُمُّها على أن تُضمِّخَها بعطرها نفسه. كما حصلتْ على لعبة تركيب الصُّور، وكُتُبٍ، وعلبةِ حلويات. وكان نصيبَ سليم سيارة ذات سقف يعلوهُ زرٌّ غليظٌ يتوهَّجُ ويُصدِرُ صوتاً

ثاقِباً إذا ما ضُغِطَ عليه. وأهدى أمين زوجتَهُ نعلَين وردِيَّين. قدَّمَ لها العلبةَ بابتسامة مرتبكة، وعندما مزَّقتْ ماتيلد الورق، نظرتْ إلى النعلين وهي تعضُّ على شفتيها خشيةَ أن يغلبها البكاء. لم تكن تدري ما الذي يلقي بها في تلك الحالة الشديدة الحزن والهياج؛ أهو قبح الشّبشب، أم كونه بالغ الصِّغر، أم مجرد ابتذال ذلك الشيء البشع. قالت: «شكراً» ثم أقفلت الباب على نفسها في الحمّام، وأمسكتْ بالنعلين بيدٍ واحدةٍ وضربتْ بهما جبهتَها. كانت تريد أن تعاقب نفسها على حماقتها، لأنها توقَّعت الكثيرَ من ذلك الاحتفال الذي لم يكن أمين يفقه من أمره شيئاً. ألقت اللومَ على نفسها لأنها لا تعرف كيف تستسلم، ولا تملكُ نكران الذات مثل حماتها، ولأنها شديدة التفاهة والخِفَّة. ودَّتْ أن تُلغِيَ العشاء، وأن تغوص تحت اللحاف لتنسى وتنتقل إلى الغد. تبدو لها كلُّ تلك السينما الآن سخيفةً. كانت قد ألزمَتْ طامو بارتداء زِيّ خادمة أسود وأبيض جديرٍ بكوميديا شعبية. كانت قد طبختْ وجبةً أنهكَها إعدادُها، والآن تشعر بالغثيان لمجرّد التفكير في أنها ستأكل من ذلك الدّيك الروميّ الذي خَشَتْهُ بنفسها بصعوبة كبيرة، وهي تَدُسُّ يدَيها داخل أحشاء الحيوان، تستنزفُ نفسها في تلك الأشغال المنزلية الخفيَّة والجَحود. تقدَّمَتْ نحو المائدة كأنها تتقدمُ نحو المشنقة، وجحظَتْ عيناها أمام أمين كي تحبس دموعَها وتجعله يعتقد أنها سعيدة.

IV

في يناير 1954، بلغتْ شِدَّةُ البرد أنْ تجمَّدت أشجارُ اللوز، وماتتْ مجموعةُ جِراء وليدة على عتبة المطبخ. وفي المدرسة الداخلية، قبلت الأخواتُ أن يقطعن عاداتهنّ، وتركن المدافئ موقدة طوال النهار في حجرات الدرس. واحتفظت الفتياتُ الصغيراتُ بمعاطفهنَّ أثناء الدروس، وكانت بعضهنَّ يرتدين زوجَين من السراويل اللاصقة تحت وزراتهنّ. وكانت عائشة قد بدأت تعتاد على رتابة المدرسة، وسجَّلَتْ في دفترٍ، أهدَتْها إيّاه الأختُ ماري-سولانج، قائمةً بمباهجها وأحزانها.

لم تكن عائشة تُحبُّ:

رفيقاتها، البرد في الممرات، طعام الفطور، الدروس التي تدوم طويلا، الثآليل على وجه الأخت ماري-سيسيل.

كانت تُحبُّ:

هدوء الكنيسة الصغيرة، موسيقى البيانو التي كُنَّ يعزفنها في بعض الأصباح، حصص التربية البدنية حيث كانت تعدو أسرع من الأخريات وتتسلَّقُ الحبلَ قبل أن تُفلِحَ رفيقاتُها في أن يتعلَّقن به.

لم تكن تحبُّ فترةَ ما بعد الزّوال لأنها كانت تشعر فيها بالرغبة

في النوم، ولا تحب فترة الصباح لأنها تصل دائماً متأخِّرة. كانت تحبُّ أن توجَدَ قواعد وأن تُحتَرَم.

كانت عائشة تحمرُّ عندما تمدحُ الأختُ ماري-سولانج عملها. وكانت تمسكُ، في أثناء الصلاة، بيد الراهبة الخشنة والباردة. يمتلئ قلبُها بالفرح عندما تُبصِرُ وجهَ المرأة الشابّة، بملامحه الدقيقة العارية من كل سحر، وبشرته التي أتلفها الماءُ الباردُ والصابونُ الرخيص. كأنَّ الأخت كانت تقضي الساعات في تنظيف خدَّيها وجفونها، فصارتْ بشرتُها تكاد تَشِفُّ، والنَّمَشُ الذي كان يصنع في القديم جمالَها أوشكَ أن يمَّحيَ. ربما كانت تجتهد في أن تتخلَّصَ من كلِّ ومضة، ومن كلِّ أنوثة، ومن كلِّ لمحةِ جمالٍ، وبذلك تتخلَّصُ من كلِّ خطر. لم تعتقد عائشة أبداً أنَّ مُعَلِّمتَها كانت امرأة؛ وأنَّ تحت فستانها الكبير يختفي جسدٌ حَيٌّ ونابِض، جسدٌ مثل جسد أُمِّها، قادر على أن يصرخ، ويستمتع، ويجهش بالبكاء. كانت عائشة، رفقةَ الأخت ماري-سولانج، تغادر العالم الأرضيَّ. تُخَلِّفُ وراءها دناءة الناس وقُبحَهُم، وتُحلِّقُ في عالم أثيريٍّ، صحبةَ يسوع والحواريين.

أغلقت التلميذاتُ كتبهُنَّ على عجل، كأنهنَّ يُصَفِّقن جماعةً عند نهاية مسرحية. شرعت الفتياتُ يتحدَّثْنَ، وطالبَتْهُنَّ الأختُ ماري-سولانج بالهدوء لكن من دون جدوى. «قِفْنَ في الصَّفِّ. إذا لم تلتزمن بالنظام فلن تكون هناك نزهة». وضعتْ عائشة رأسَها على مرفقها وغاصَتْ بنظرها في تأمُّل فناء الساحة. حاولتْ أن ترى أبعدَ، أبعدَ من الشجرة التي فقدتْ أوراقَها، أبعدَ من سور السياج، أبعدَ من كشك الحراسة حيث كان يحقُّ لإبراهيم أن يرتاح عندما يكون الجوُّ بارداً. لم تكن ترغبُ في الخروج، أو في أن تمسك بيد فتاة

صغيرة ستغرسُ بخُبْثٍ أظفارها في لحمها وتشرع في الضحك. كانت تكره المدينةَ، وتُقلِقُها فكرةُ عبورها وسطَ ذلك السِّرب من الأجنبيات.

داعبتْ الأختُ ماري-سولانج ظَهْرَ عائشة بيدها وقالت لها إنهما ستسيران معاً وستقودان الفصلَ، ولا داعيَ للقلق. نهضتْ عائشة، حكَّتْ عينيها وارتدتْ المعطفَ الذي خاطَتْهُ أمُّها، وكان ضيِّقاً عند مستوى الإبطَين، فيمنحُها مِشْيَةً غريبةً، ومتخشِّبة.

تجمَّعَت الفتياتُ أمام سياج المدرسة الداخلية. وعلى الرغم من الجهد الذي كنَّ يبذلنَهُ من أجل الحفاظ على هدوئهنَّ، فإنَّ الكتيبة الصغيرة كانت عرضةً لإثارة هستيرية، وتقترب فتنةٌ من الانفجار بينهنّ في كلِّ لحظة. لم تُنصت أيُّ تلميذة، في ذلك الصباح، إلى درس الأخت ماري-سولانج. لم تُدرِكْ أيُّ واحدة منهنَّ التحذيرَ الثاوِيَ في خطاب الراهبة. قالتْ بصوتها الهَشِّ: «الرَّبُّ يحبُّ جميعَ أطفاله. لا توجد أجناس دونية وأخرى متفوِّقة. اعلمن أنَّ الرجال جميعهم سواسية أمام الرَّبِّ ولو أنهم مختلفون». لم تفهم عائشة بدورها ما كانت تقصدُهُ الأختُ بتلك الكلمات، لكنها تركتْ فيها أثراً قويّاً. احتفظَتْ بدرسٍ: لا يحبُّ الرَّبُّ إلّا الرجال والأطفال. اقتنعَتْ أنَّ النساء مُبْعَداتٌ من ذلك الحبِّ الكونيِّ، وأصابَها القلقُ من أن تصير واحدةً منهنّ. وجدتْ ذلك القدَرَ شديد القسوة، وفكَّرتْ في حواء وآدم المطرودَين من الفردوس. عندما سيكتمل انبثاقُ المرأة بداخلها، سيكون عليها أن تتحمَّلَ ذلك المنفى خارج الحبِّ الإلهي.

«إلى الأمام أيتها الآنسات!» أشارتْ الأختُ ماري-سولانج إشارة كبيرة بذراعها ودَعت الأطفال إلى أن يتبعنها إلى غاية الحافلة المركونة في الشارع. في أثناء الطريق، قدَّمتْ لهنَّ درساً في التاريخ.

«هذا البلد، شرحتْ لهنَّ، هذا البلد الذي نُحبُّهُ كلَّ الحُبّ، يملك تاريخاً عريقاً. انظرنَ حولكُنَّ، يا آنسات، هذا الحوض، وتلك الأسوار، وتلك الأبواب هي ثمرة حضارة عظيمة. سبقَ أن حدَّثْتُكُنَّ عن السلطان مولاي إسماعيل، المعاصر لعاهلنا الملك الشمس. تذكَّرْنَ اسمَهُ أيتها الفتيات». قهقهن لأن المعلِّمَةَ نطقتْ اسمَ الملك الأهليّ وهي تضغطُ على الأصوات الحلقية، مبيِّنَةً أنها تتحدث لغةَ العرب. لكن الفتيات لم يطلقنَ أيَّ تعليق لأنهنّ يتذكَّرن جيّداً غضبَ الراهبة يوم سألَتْها جينيت: «هل صار الناسُ اليوم يتعلَّمون لغةَ الرّاكون؟» كانت الفتيات مستعدّات للقَسَم على أن الأخت ماري-سولانج حبستْ نفسَها كي لا تصفَعَ تلميذتَها. ولا بدَّ أنها فكَّرتْ حينها أنَّ عمر جينيت لم يتعدَّ السادسة، وأنَّ عليها أن تتحلَّى إزاءها بالحِسِّ التربويّ وبالصبر. ذات مساء، اعترفتْ الأخت ماري-سولانج للأمِّ الرئيسة، التي كانت تُنصِتُ إليها وهي تُمَرِّرُ لسانَها الخشنَ على شفتيها، وتقتلعُ بأطراف أسنانها قِطَعَ جلدٍ صغيرة. قَصَّتْ عليها أنها شاهدت رؤيا، أجل، رأتْ نوراً بينما كانت تتجوَّلُ في أَزْرُو، تحت شجر الأرز على ضفاف نهر. شاهدَتِ النساءَ يَسِرْنَ، حاملاتٍ أطفالهنَّ فوق ظهورهنَّ، وقد ألقينَ شالاً ملوَّناً فوق شعرهنَّ، وتأمَّلت الرجالَ المتَّكِئين على عصا خشبية، وهم يقودون أُسَرَهُمْ وقطعانَهُمْ، عندئذ رأتْ يعقوبَ، وسارة، وسليمان. قالت بتأثُّر، إنَّ هذا البلد يعرضُ مشاهدَ فقر وتواضع جديرةً بالعهد القديم.

*

توقَّف الفصلُ أمام بنايةٍ غامقةِ اللون، لم يكن في الإمكان تخمين لا وظيفتها ولا ما تُؤويه. كان في انتظارهنَّ رجلٌ ببدلة شديدة

الزرقة، يقفُ أمام ما كان يقوم مقامَ الباب ولم يكن في الواقع سوى ثقبٍ محفور في السور مباشرة. كان المرشدُ يضعُ يدَيه مضمومتين أمام ذَكَرِهِ وبدا مضطرباً، بل مرعوباً، وهو يرى سِرْبَ التلميذات اللواتي يقتربن منه. حاول أن يرفعَ صوتَهُ الحادَّ المرتعشَ فوق طنينهنَّ، لكن كان على الراهبات أن يغضبن ليتمكّنَ من إسماع صوته. «سننزلُ الدرجات. الجوُّ مُعتِمٌ والأرضُ مُزْلِقَةٌ. أطلبُ منكنَّ أن تكُنَّ حذراتٍ كلَّ الحذر». وما أن وَلَجْنَ ما يُشْبِهُ مغارةً، حتى سكتت الفتياتُ، أخْرَسَهُنَّ الخوفُ، والبردُ الجليديُّ المنبعِثُ من الجدران الطينية، والجوُّ الكئيبُ الذي يسود المكان. أطلقتْ فتاةٌ، لم يكن في إمكان أحد أن يقول من هي، صرخةً مخيفةً، تحاكي أنينَ شبحٍ أو عواء ذئبٍ. «قليلاً من الاحترام، يا آنسات. تعرَّضَ هنا الكثيرُ من الإخوة المسيحيين لعذابات رهيبة». عبرنَ في صمتٍ متاهةً من الممرّات والدّهاليز.

تركت الأختُ ماري-سولانج عنان الحديث للمرشد الشّابِّ ذي الصوت المرتعِش. كان مندهشاً لصغر سنِّ مستمعاته ولم يكن يعرف ما سيقوله أمام طفلاتٍ، أرواحهنّ سريعات التأثر. تردَّدَ وهو يبحث عن كلماته، وتلجلجَ، واعتذر وهو يمسح جبينَهُ بمنديل رثٍّ. «نحن هنا داخل ما يسمّى سجن المسيحيين». مَدَّ يدَهُ نحو الجدار الذي كان يواجِهُهُنَّ، وأطلقنَ صرخاتٍ عندما أراهُنَّ الكتاباتِ التي خلَّفَها السجناءُ، منذ قرون. كان يدير ظهره للتلميذات، وانتهى به الأمرُ إلى نسيان حضورهنّ، فازدادت فصاحتُهُ وجرأتُهُ. حكى عذابَ آلاف الرجال -«يقدَّرُ عددهم بنحو ألفين في نهاية القرن السابع عشر»- الذين سجنهم مولاي إسماعيل في هذا المكان، وأطال الحديثَ حول عبقرية ذلك «السلطان الباني» الذي بنى كيلومترات من الأنفاق

تحت الأرض حيث كان أولئك العبيد يزحفون، محتضرين، وعمياناً، عالقين في ذلك الفخّ. قال بصوتٍ واثقٍ، يكاد يكون سلطويّاً: «ارفعن أعينكنّ»، فرفعت الفتياتُ في صمتٍ رؤوسهنَّ نحو السماء. كان هناك ثقب محفور في الصخر. من ذلك الثقب، قال، كانوا يُلقون بالمساجين وبالطعام الذي كان يكفي بالكاد ليبقون على قيد الحياة.

التصقتْ عائشة بالأخت ماري-سولانج. استنشقتْ رائحةَ فستانها، وتعلَّقتْ أصابعُها بالحبل الذي تتخذُهُ حزاماً. عندما فصَّلَ المرشدُ حديثه حول نظام المطمورات، تلك المخازن تحت الأرض حيث كان يُحبَسُ السجناءُ، وحيث كانوا يموتون أحياناً مختنقين، شعرت بالدموع تترقرقُ في عينيها. «داخل الجدران، أضاف الرجلُ، الذي صار يجد لذَّةً شاذَّةً في إفزاع تلك العصفورات، داخل هذه الجدران يُعْثَرُ على هياكل عظمية. كان العبيد المسيحيون، الذين بنوا كذلك الأسوار العالية التي تحمي المدينة، يسقطون أحياناً من التعب فيبني عليهم جلّادوهم داخل الجدران». اتَّخذَ الرجلُ صوتَ النبوءة، صوتاً من عالم الموتى، أفزَعَ الفتيات. داخل جميع أسوار هذا البلد المجيد، وداخل جميع حصون المدن الإمبراطورية، يمكن العثور، بمجرد حَكِّ الصَّخر، على جثث العبيد، والكفّار، والمُبْعَدين. ظلّتْ عائشة تُفكِّرُ في ذلك طوال الأيام اللاحقة. كان يُخيَّلُ إليها أنها ترى هياكل عظمية مقرفصة في كل مكان، فصلَّتْ بخشوع من أجل الأرواح الملعونة.

وجدَ أمين، بضعة أسابيع بعد ذلك، زوجتَهُ ملقاةً أسفلَ السرير، وقد التصق وجهُها بالأرض، وتجمَّعَتْ ركبتاها إلى جذعها. كانت أسنانُها تصطكُّ بشدةٍ جعلتْهُ يخشى أن تقطَعَ لسانَها وتبلعه، مثلما يحدث للمصابين بالصرع في المدينة العتيقة. كانت ماتيلد تئِنُّ فرفعَها أمين بين ذراعيه. وأحَسَّ بعضلات زوجته المتقلِّصة تحت كفَّيه، وداعبَ ذراعها برفقٍ ليُطَمئِنَها. نادى على طامو، ودون أن ينظر إلى الخادم، طلب منها أن تسهر على زوجته. «سأذهبُ للعمل. اعتني بها».

وعندما عاد في المساء، كانت ماتيلد تهذي. تضطربُ، كأنها حبيسةُ اللُّحُفِ المُبلَّلَة، وتنادي على أمِّها بالألزاسية. حرارتُها شديدةُ الارتفاع بحيث ينتفض جسدُها كأنه يتلقّى صدماتٍ كهربائيةً. وكانت عائشة تبكي أسفلَ السرير. «سأذهب للبحث عن طبيب»، أعلن أمين في الصباح الباكر. ركبَ السيارةَ وانطلق، تاركاً ماتيلد تحت رعاية الخادمة التي لم يبدُ عليها التأثُّرُ لمرض السَّيِّدة.

ما أن بقيتْ طامو وحدَها حتى شرعتْ في العمل. صنعَتْ مزيجاً من الأعشاب، محدِّدَةً بدِقَّةٍ كميَّةَ كلِّ مكوِّنٍ، وصبَّتْ فوقها ماءً مغلياً. دلكتِ العجينةَ المعطَّرة، تحت نظر عائشة المندهشة، وقالت:

«يجب طردُ الأرواح الشرّيرةَ». خلعَتْ ملابسَ ماتيلد، التي لم تُبْدِ رَدَّ فعل، ودهنت بالمزيج ذلك الجسدَ الأبيضَ الكبيرَ الذي بَهرَها شحوبُهُ. كان يمكن أن تجد لذَّةً في الهيمنة بتلك الطريقة على جسد سيِّدَتها. كان يمكن أن ترغب في الانتقام من تلك المسيحية الصارمة والقاسية، التي كانت تُعاملها كأنها متوحِّشة، وتقول لها إنها شديدة الوسخ مثل الصراصير المحتشِدة حول جِرار زيت الزيتون. لكن طامو، التي بكتْ كثيراً تلك الليلة، وحيدةً في غرفتها، دلكتْ فخذَي سيِّدَتِها، ووضعت يديها على صدغَيها، وشرعت تدعو لها بكلِّ خشوع وصدقٍ. بعد انصرام ساعةٍ، ارتاحت ماتيلد. ارتخى فكُّها وتوقَّفت أسنانُها عن الصَّرير. ظلَّتْ طامو تردِّدُ، جالسةً مستنِدَةً إلى الجدار، ملطَّخةَ الأصابع باللون الأخضر، دعاءً، كانت عائشة تتابعُ إيقاعَهُ وهي تنظر إلى شفتيها.

عندما وصل الطبيبُ، وجد الألزاسيةَ نصف عارية، يُغلِّفُ جسدها خليطٌ أخضر تنتشر رائحتُهُ إلى غاية المَمَرِّ. وكانت طامو تجلس عند رأس المريضة، وعندما رأت الرجلَين يدخلان أعادت اللحاف فوق بطن ماتيلد وخرجتْ من الحجرة، مطأطئة الرأس.

«هل هي فاطمة التي صنعتْ هذا؟» سألَ الطبيبُ، مشيراً بإصبعه نحو السرير. كانت العجينة الخضراء قد لطّخت اللُّحُفَ، والوسائد، وغطاء الفراش، وسالتْ فوق الزربية التي اشترتْها ماتيلد عند وصولها إلى مكناس وتحرص عليها كثيراً. تركتْ طامو آثارَ أصابعها على الجدران، وعلى طاولة الليل، وكانت الحجرة تشبه لوحات أولئك الفنّانين المنحلّين الذين يخلطون بين الموهبة والكآبة. رفعَ الطبيبُ حاجبيه وأغمض عينيه مدَّةَ دقيقة أو دقيقتين بدَتْ لأمين لا نهائية. وَدَّ لو أنَّ الرجل يُسرع إلى المريضة، وينجز تشخيصاً، ويجد حلاً.

وبدل ذلك، كان يدور حول السرير، يُصلِحُ زاويةَ اللِّحاف، ويُسوّي وضعَ كتابٍ، ويقوم بمختلف الأفعال التافهة والعبثية.

وأخيراً، خلعَ سترتَهُ وثناها بدقة، ووضعها فوق مسند كرسيٍّ. كان في أثناء ذلك يُرسل جهةَ أمين بنظراتٍ سريعة لاسعةٍ كأنه يؤنِّبُهُ. ثم انحنى على المريضة، ودَسَّ يدَهُ تحت اللِّحاف ليفحَصَها، وفجأةً، كأنَّهُ انتبه للتوِّ إلى حضور رجل خلف ظهره، التفتَ قائلاً:

«دَعْنا وحيدين» فانصاعَ أمين للأمر.

«مدام بلحاج، أتسمعينني؟ كيف حالك؟».

أدارتْ ماتيلد نحوهُ وجهَها المحفورَ بالتّعب. كانت تجد صعوبةً في الاحتفاظ بعينَيها الخضراوين الجميلتَين مفتوحتَين، وتبدو ضائعةً، مثل طفل يستيقظُ في مكان لا يعرفه. اعتقد الطبيبُ أنها ستجهشُ بالبكاء، وتطلب المساعدة. فانفطَرَ قلبُهُ لرؤية تلك المرأة الشقراء الطويلة، تلك المرأة التي لا بدَّ أنها تكون جذّابةً عندما تريد، وعندما تتاحُ لها الفرصةُ كي تُبْرِزَ خصالَها. كانت قدماها يابستَين تغطيهما التشقُّقاتُ، وأظفارُها طويلة وغليظة. أمسكَ بذراع ماتيلد، وفحصَ نبضَها وهو يحرصُ على ألّا يتّسخ بعجينة الأعشاب، ثم دَسَّ يدهُ تحت اللِّحاف ليجسَّ بطنَها. «افتحي فمكِ وقولي «آ»» وكذلك فعلتْ ماتيلد.

«هذه نوبة ملاريا. تحدثُ كثيراً في هذه النواحي». أدنى كرسيَّهُ من مكتب ماتيلد الصغير وتأمَّلَ تصاوير العمّ هانسي، الذي كان يرسمُ كولمار في سنوات 1910، ثم تصفَّحَ كتاب التاريخ حول مدينة مكناس. ورقُ رسائل رخيصٌ مبعثَرٌ فوق الطاولة، ومُسَوَّداتٌ شُطِّبَ عليها. أخرجَ وصفةً من حقيبته وكَتبَ. فتح باب الحجرة وبحث بعينيه عن الزوج. لم يكن في المَمَرِّ سوى طفلةٍ صغيرةٍ، نحيفةٍ

ومُنتفِشةِ الشَّعر. كانت تستند إلى الجدار وتمسكُ في يدها دميةً تُغطِّيها البُقَعُ. وصلَ أمين فقدَّمَ له الطبيبُ ورقته.

«اذهب واجلُبْ هذا من عند الصيدليِّ.

– ماذا أصابها دكتور؟ هل هي أحسن حالاً؟».

ظهر انزعاجٌ على وجه الطبيب.

«أسرِعْ».

أغلقَ الطبيبُ بابَ الحجرة خلفهُ وجلس قرب المريضة. كان يُخيَّلُ إليه أنَّ عليه أن يحميَها، ليس من المرض، وإنما من الوضع الذي وَرَّطَتْ نفسَها فيه. تخيَّلَ، أمام تلك المرأة العارية والفارغة من قُواها، الحياةَ الحميمةَ التي تُشاركُها مع ذلك العربيِّ الغَشوم. تخيَّلَ ذلك بوضوح لأنه أبصر في المَمَرِّ الثمرةَ المُقْرِفَةَ الناتجةَ عن ذلك الجماع، فشعر بالاشمئزاز، وبانتفاضة تمرُّد. يعلمُ، بطبيعة الحال، أنَّ العالم تغيَّر، وأنَّ الحربَ قلبتْ جميع القواعد، وجميع القوانين، كأنما الناس قد وُضِعوا داخل إناء، ورُجَّ ذلك الإناءُ، فتلاقتْ أجسادٌ كان يرى هو من غير اللائق أن تتماسَّ فيما بينها. تنام هذه المرأةُ بين ذراعَي ذلك العربيِّ الكثير الشَّعر، ذلك الجِلْفِ الذي يملكُها، ويأمُرُها. كلُّ هذا ليس عدلاً، ليس من طبيعة الأشياء، فمثل هذا الحُبّ يخلقُ الفوضى والبلاء. إنَّ الدماء الهجينةَ تنبئُ بنهاية العالم.

طلبتْ ماتيلد أن تشرب فأدنى من شفتي المريضة كأسَ ماء بارد. «شكراً دكتور»، قالت، وشدَّتْ يدَها على يد الطبيب.

منحَتْهُ تلك الحركةُ جرأةً، فسألها: «عذراً سيدتي إن تحدَّثتُ فيما لا يعنيني، لكنني أودُّ أن أفهم. كيف هبطتِ في هذا المكان؟».

كانت ماتيلد شديدةَ الضعف، لا تستطيع الكلام، لكنها كانت

تودُّ أن تخدش اليدَ التي كانت لا تزال تمسك بها في يدها. كانت فكرةٌ تسعى إلى أن تنبثق في أعماق عقلها، إلى أن تُسْمِعَ صوتَها. يعتملُ تمرُّدٌ داخلها، لكنها لا تدري كيف تُعَبِّرُ عنه. كانت توَدُّ لو تجد طريقةً لصَدِّهِ، ردّاً مفحِماً على تلك الكلمة التي أحنقَتْها. «هَبَطْتِ»، كأنَّ حياتَها ليست سوى حادثٍ، كأنَّ طفليها، وهذا البيتَ، وجودَها كلَّهُ لم يكن سوى خطأ، أو ضلالٍ. «يجب أن أجد ردّاً أُجيبُهم به، قالت في نفسها. ينبغي أن أصنع لنفسي درعاً من كلمات».

أصابَ القلقُ عائشةَ في أثناء الأيام والليالي التي لزمَتْ فيها أُمُّها الحجرةَ. ما الذي سيكون مصيرُها لو ماتتْ أُمُّها؟ كانت تتنقَّلُ داخل البيت مثل ذبابة تحت قدح. تسائلُ عيناها كباراً لا تثقُ فيهم. كانت طامو تُداعبُها وتغمُرُها بكلمات حنونة. كانت تعلم أنَّ الأطفال مثل الكلاب، يفهمون ما نُخفيه عنهم ويحدسون اقترابَ الموت. وكان أمين بدوره يستبدُّ به الذُّهول. كان البيتُ حزيناً بلا ألعاب ماتيلد، وبلا دُعاباتها الحمقاء التي كانت تحبُّ تحضيرَها. تضعُ سطولاً صغيرةً فوق الأبواب وتخيطُ كُمَّي سترة أمين من الداخل. كان مستعدّاً لأن يمنح أيَّ شيء من أجل أن تنهض، ومن أجل أن تُنَظِّمَ لعبةَ استغْماية في أحراش الحديقة. لأجل أن تحكيَ، وهي تُخرخرُ، حكاية من حكايات فولكلور الألزاس.

*

دَأَبَت الأرملةُ ميرسييه على عيادة جارتها في أثناء مرضها، لتطمئِنَّ على أحوالها، وتُعيرَها رواياتٍ. لم تجد ماتيلد تفسيراً لتلك الصداقة الطارئة التي صارت تخصُّها بها الأرملةُ. لم تكن بينهما،

من قبل، سوى علاقات عن بُعد، ترفعان يديهما تحيّةً عندما تلتقيان في حقل، وتتبادلان الفواكهَ هديّةً عندما تكون المحاصيل وافرةً يتهدَّدُها العفَنُ. كانت ماتيلد تجهلُ أنَّ الأرملةَ استيقظتْ، يومَ الميلاد، عند الفجر، وقَضَمَتْ برتقالةً، وحيدةً في حجرتها المتجمِّدة. كانت تَقْشِرُ الحوامضَ بأسنانها، وتحبُّ الطَّعْمَ اللاذِعَ الذي يُخَلِّفُهُ قِشْرُها في أعلى الحَنَك. وفتحت البابَ المؤدّيَ إلى حديقتها، وعلى الرغم من الصقيع الذي جَمَّدَ كلَّ النباتات، والريحِ المتجمِّدَةِ التي كانت تهُبُّ على السّهل، خرجتْ حافيةَ القدمين إلى الحديقة. إنما تُعرفُ البدويّةُ بقدميها؛ قدماها اللتان وطئتا الأراضي الحارقة، ولم تعودا تخشيان لَذْعَ أدغالِ القُرّاصِ، قدماها ذواتا أخمصين تُغطِّيهما الشّقوق. كانت الأرملةُ تعرفُ مزرعتَها عن ظهر قلب. تعرفُ عددَ الحجارة التي تغطّي الأرض، وعددَ غصون الورد التي تُزهِرُ، وعددَ الأرانب التي تخمشُ أرضيةَ زريبَتِها. ونظرتْ في ذلك الصباح جهةَ مَمَرِّ أشجار السَّرو، التي تقوم مقام السِّياج لمزرعتها، فبدا لها مثل فَمٍ نُزِعَ منه سِنٌّ في الليل. أمرتْ بإحضار إدريس الذي كان يحتسي الشايَ في البيت. «إدريس، أَقْبِلْ إلى هنا، أسْرِعْ!» وصلَ العاملُ، الذي كان يقوم لها مقامَ الشريكِ، والابنِ، وزوجِ التعويض، وهو يعدو، حاملاً كأسه في يده. أشارتْ بسبّابتها في اتجاه الشجرة الناقصة، واستغرق إدريس بعضَ الوقت ليفهم ما تقصدُهُ. كانت تعلم جيّداً أنه سيشرع في الحديث عن الأرواح، وسيُحَذِّرُها من أعمال السِّحر التي قد يسلِّطُها أحدٌ عليها، لأنَّ إدريس لا يستطيع أن يُفسِّرَ الأمور التي تخرج عن المألوف إلا بالسِّحر. وضعت العجوزُ، ذاتُ الوجه المتغضِّن الذي تقطعُهُ أخاديد عميقة، يديْها على ورِكيْها النحيفين، وأدْنَتْ جبينَها من جبين إدريس،

وغاصتْ بنظرها الرّماديِّ في نظر البدويِّ، وسألَتْهُ عمّا يعرف عن أعياد الميلاد. رفعَ الرجلُ كتفيه، كأنه يقول «لا شيء تقريباً». كان قد شَهِدَ عبورَ أجيالٍ من المسيحيين من هنا، بدويين بائسين أو ملّاك أراضٍ أثرياء. رآهم يحرثون الأرض، ويبنون المنازل، وينامون تحت الخيمة، لكنه كان يجهل كلَّ شيء عن خصوصياتهم وعن معتقداتهم. ربَّتَت العجوزُ على كتفه وأخذت تضحكُ. ضحكٌ صريحٌ وبهيج. ضحكٌ من لُجَيْنٍ خَضِلٍ مثل وردةٍ، تردَّدَ صداهُ في صمت البادية. حَكَّ إدريس رأسَهُ بأُنْمُلَةِ سبّابتِهِ وبَدَتْ عليه الحيرةُ. لم يكن لذلك الأمر أيُّ معنى. لا بدَّ أنَّ جِنِّيّاً يسعى إلى الانتقام من العجوز، وما اختفاءُ تلك الشجرة إلّا علامة على سحره. تذكَّرَ إشاعاتٍ كانت تُتداوَلُ عن سيِّدَتِهِ. يُقالُ إنها دَفَنَتْ في أرض مزرعتها أطفالاً خُدَّجاً، بل حتى أجنَّةً لم يتمكَّنْ بطنُها اليابسُ من إتمامِ تَخلُّقِها. وإنَّ كلباً جلبَ ذات يوم، بين شدقيه، ذراعَ رضيعٍ إلى غاية الدّوّار. وكان بعضُهُم يزعمُ أنَّ رجالاً يأتون في الليل، طلباً للمتعة بين فخديها الذابلتين، وعلى الرغم من أنَّ إدريس كان يقضي جميع أيّامه هنا، وكان شاهداً على حياة العجوز المُتقشِّفة، فإنه لم يكن يستطيع أن يمتنع عن الإنصات إلى تلك الافتراءات والقلقِ بشأنها. لم تكن تُخفي عنه سرّاً من أسرارها. عندما جُنِّدَ زوجُها، ثم وقع في الأَسْرِ، وعندما ماتَ من التيفوئيد داخل أحد المعسكرات، إنما أَسَرَّتْ باضطرابها وحزنها لإدريس. وكان يُكْبِرُ فيها شجاعتَها، ويندهشُ لبكاء تلك المرأة التي تقودُ الجرّارَ، وتعتني بالحيوانات، وتُصدِرُ الأوامرَ للعمّال بسلطوية صارمة. كان يَحمَدُ لها مقاومَتها لروجيه مارياني، جارهم، الذي كان قد وصل من الجزائر في سنوات 1930، قُبَيْلَ وصول الأرملة وزوجها جوزيف، وكان يعامِلُ العمّالَ

بقسوة، ولا يحترم سوى قاعدة وحيدة؛ أن يستنزفَ أصحابَ البرانس بالعمل الشّاق.

شَبَكَتِ الأرملةُ ذراعيها وبقيتْ صامتةً وساكنةً بضعَ دقائق. ثم التفتتْ نحو إدريس وقالت له بعربية ممتازة: «لِنَنْسَ هذا الأمرَ. هيَّا إلى العمل». وفي الأيام الموالية، كلما فكَّرتْ في الشجرة الناقصة، انتفضَ جسمُها الأعجفُ من الضحك. وأكْسَبَها ذلك الأمرُ، في السِّرِّ، نوعاً من العاطفة نحو ماتيلد وزوجها. وقرَّرَت، بعد نهاية فترة الأعياد التي قضتْها وحيدةً في مزرعتها، أن تزورَ أسرةَ بلحاج حيث اكتشفتْ ماتيلد واقعةً تحت وطأة الحمّى. سألت العجوزُ ما الذي يمكن أن تصنعَهُ، وعندما أبصرتْ، فوق الأريكة حيث كانت ماتيلد تقضي النهار، رواياتٍ مطويّة زوايا صفحاتها، اقترحتْ عليها أن تُعيرَها كتباً. أمسكت الألزاسيةُ، التي كانت عيناها تلمعان من الحُمّى، بيديها وشكرَتْها.

ذات يوم، بينما كانت ماتيلد في طور النقاهة، رَكَنَتْ أمام بوابة المزرعة سيارةٌ برّاقةٌ، يقودها سائقٌ يعتمر قبعةً. رأى أمين رجلاً طويلاً وحسن الهيئة ينزل من السيارة، وعندما اقترب منه سأله بلهجة قوية:

«أيمكنني أن أرى صاحب المزرعة؟

- أنا هو»، أجاب أمين، وبدا أنَّ الرجل ابتهج للأمر. كان ينتعل حذاءين لامعَين لم يتمكّن أمين من أن يمتنع عن النظر إليهما بإمعان. «ستُوَسِّخُ حذاءيك.

- لا أهمية لذلك، صدِّقني. ما يهمُّني هي مزرعتك الجميلة هذه. هل توافق على أن تأخذني في جولة في أرجائها؟».

طرح دراغان بالوزي الكثيرَ من الأسئلة على أمين. سأله عن الطريقة التي حصل بها على أراضيه، ما هي أنواع الزراعة التي كان ينوي تطويرَها، ما هي مداخيلُهُ وتوقُّعاته بالنسبة إلى السنة المقبلة. أجاب أمين باقتضاب لأنه كان يرتابُ من ذلك الرجل ذي اللهجة الغريبة، والملابس الأنيقة التي لا تناسب المشيَ في الحقول. بدأ أمين يعرق، ولاحظَ خلسةً وجهَ الزائر المستديرَ، وكيف يمسح جبينَهُ وعنقَهُ بمنديل. انتبهَ إلى أنّهُ لم يجد الوقت حتى ليسأله عن اسمه.

وعندما عرَّفَ الرجلُ بنفسه، لم يستطع أمين أن يُخفِيَ استغرابَهُ، فانفجر الزائرُ ضاحكاً.

«هذا اسم هنغاري، قال الرجلُ. دراغان بالوزي. أملكُ مكتباً في شارع رين. أنا طبيب».

هَزَّ أمين رأسهُ. لم يزدَدْ فهماً. ما الذي أتى بطبيب هنغاريٍّ إلى هذا المكان؟ وفجأةً توقَّفَ دراغان بالوزي ورفع عينَيه. تأمَّلَ باهتمام صَفَّ أشجار البرتقال الذي كان ينتصبُ أمامه. كانت الأشجارُ لا تزالُ فتيّةً، لكنها تحمل الكثير من الثِّمار. لاحظَ دراغان عندئذ أنَّ غصنَ شجرة ليمون يتجاوز شجرةً وأنَّ الفواكه الصفراء تمتزجُ بالبرتقال الكبير الحجم.

«هذا أمرٌ مُسَلٍّ، قال الهنغاريُّ وهو يقتربُ من الشجرة.

- تقصدُ هذا؟ أجل، يُضْحِكُ الأطفالَ. إنها لعبة فيما بيننا. تُسمِّيها ابنتي «ليرتُقال». طَعَّمْتُ كذلك شجرةَ سفرجل بغصن كُمّثرى، لكننا لم نجد بعدُ اسماً لهذه».

صمتَ أمين لأنه لم يكن يريد أن يظهر، أمام ذلك الدكتور في الطِّب، بمظهر الهاوي المولَع بالأوهام.

«أريد أن أقترحَ عليكَ صفقةً». أمسكَ دراغان بذراع أمين وسحبَهُ إلى أسفل شجرةٍ، نحو ركنٍ مُظلِمٍ. أخبرهُ أنه يحلمُ منذ أعوامٍ بتصدير الفواكه إلى أوروبا الشرقية. «برتقال وتمور»، شرح الرجلُ لأمين الذي لم تكن لديه أدنى فكرة عن تلك البلدان التي يتحدث عنها. «سأتكَفَّلُ بنقل البرتقال إلى ميناء الدار البيضاء. وسأدفع أجرةَ عُمَّالكَ مقابل الجَنْيِ وستحصُلُ على إيجارٍ من أجل أرضكَ. اتَّفقْنا؟» شدَّ أمين على يده، وعندما عاد ذلك اليوم إلى البيت رفقةَ عائشة، وجدا ماتيلد جالسةً فوق درجات السلَّم الصغير

الذي يؤدِّي إلى الحديقة. جرتِ الطفلةُ وارتمتْ بين ذراعَي أمِّها وقالت في نفسها إنَّ صلواتها لم تذهب هباء، وإنَّ ماتيلد ستعيش. «السلام عليك يا مريم».

*

عندما تمكَّنَتْ ماتيلد من النهوض، ابتهجتْ لانخفاض وزنها. اكتشفتْ في المرآة وجهها الشاحبَ، وملامحَها المُجْهَدَةَ، وعينيها المحاطتين بهالتين سوداوين. واعتادتْ أن تفرش غطاءً فوق العشب، أمام باب البيت الزجاجيِّ، وتقضيَ صباحاتها تحت الشمس بينما الطفلان يلعبان قريباً منها. فرحتْ لوصول الربيع. كانت تراقب كلَّ يومٍ انبثاقَ البراعم على الأغصان، وتدعسُ بين أصابعها أزهار البرتقال العطرة، وتنحني فوق الليلك الهَشِّ. تمتدُّ أمامها الحقولُ غير المحروثة، يغطّيها الخشخاشُ الأحمر القاني، والورودُ البريّةُ ذات لون البرتقال. لا حاجز هنا يُعرقِلُ تحليقَ الطيور. لا أعمدة كهربائية، ولا ضجيج السيارات، ولا أسوار يمكن أن تصطدم بها رؤوسُها الصغيرة. منذ عادت الأيامُ الجميلةُ، صارت تسمعُ زقزقةَ مئات العصافير الخفيَّةِ، وترتعشُ غصونُ الأشجار من صدى شَدْوِها. أبهرَتْها عزلةُ المزرعة في أيام الربيع الأولى، تلك العزلة التي طالما أرعَبَتْها من قبل، وألقتْ بها في كآبة عميقة.

ذات ظهيرة، التحق بهم أمين في مجلسهم، واستلقى إلى جانب ابنه، بلا مبالاةٍ أدهشتْ عائشة. «التقيتُ بأناسٍ مُسلِّينَ سيُعْجِبونَكِ»، قال لزوجته. وقصَّ عليها اقتحامَ دراغان للمزرعة، ومشاريعه العجيبةَ، وعرضَ عليها كلَّ الأرباح التي يمكن أن يجنوها من تلك الشراكة. عقدتْ ماتيلد حاجبيها. لم تنسَ الطريقة التي تلاعبَ بها

بوشعيب بسذاجة زوجها، وتخشى أن يقعَ مرَّةً أخرى ضحيّةَ إغراءٍ وعودٍ زائفة.

«ولِمَ يطلبُ ذلك منكَ أنتَ؟ روجيه مارياني يملكُ هكتاراتٍ من أشجار البرتقال، وهو أشهر منّا في هذه الناحية».

نهضَ أمين فجأةً، وقد جرحهُ سوءُ ظنِّ زوجته.

«ما عليكِ إلا أن تسأليه عن الأمر بنفسك. نحن مدعوّان منه ومن زوجته للغداء في بيتهما الأحدَ المقبل».

اشتكتْ ماتيلد طوال صباح يوم الأحد من أنها لا تملك لباساً مناسِباً. وفي الأخير ارتدتْ فستانَها الأزرقَ القديم، ولامَتْ أميناً لأنه لا يفهمُها. كانت تحلُمُ بتشكيلة ملابس ديور نيو لوك، التي كانت شديدة الانتشار بين الأوروبيات في المدينة الجديدة.

«كنتُ أرتدي هذا الفستان عند نهاية الحرب. لم تعد الفساتين الطويلة بهذا الشكل ملائمةً للموضة. كيف سأبدو للناس؟

- ما عليكِ إلا أن ترتدي الحايك، وهكذا على الأقل، لن تجدي مثل هذه المشاكل».

أخذَ أمين يضحكُ وحنقَتْ عليه ماتيلد. استيقظتْ في ذلك اليوم عكِرَةَ المزاج، وبدا لها ذلك الغداءُ، الذي كان ينبغي أن يُسعِدَها، ثقيلاً مثل سخرة قسريّة.

«لكن أي نوع من الغداء هذا؟ أسنكون وحدنا أم سيحضر مدعوون آخرون؟ أتظُنُ أننا ينبغي أن نكون في كامل الزينة؟» أجابَها أمين رافعاً كتفيه: «من أين لي أن أعرف ذلك؟».

كانت أسرةُ بالوزي تسكن في المدينة الجديدة، قرب فندق ترانسأتلانتيك، ويتمتَّعُ بيتُهُم برؤية رائعةٍ تُشرِفُ على المدينة

وصوامعها. كان الزوجان في انتظارهما عند مدخل البيت، تحميهما من الشمس الحارقة ظُلَّةٌ صغيرةٌ من ثوبٍ برتقاليٍّ وأبيض. فتح الطبيبُ ذراعيه وهو ينتظر نزولَ أمين وماتيلد من سيارتهما ويتقدّمان نحو الباب، مثل والِدِ أسرةٍ يستقبل أبناءه. كان دراغان بالوزي يرتدي بدلة أنيقةً داكنةَ الزرقة، وربطةَ عنقٍ ذاتَ عقدة واسعة. وكان حذاءاهُ المدهونان لا يقلّان لمعاناً عن شاربَيْهِ الكَثَّين اللذين يعتني بهما بحرصٍ شديد. وكان غليظ الخدَّين، ممتلئ الشفتين، يشي كلُّ شيء فيه بنوع من التكوّر، والشَّرَهِ، والاستمتاع بالحياة. حرَّكَ يديه ثم وضعهُما على خَدَّيْ ماتيلد، مثلما يُصنَعُ مع الفتيات الصغيرات. يدان ضخمتان، يغطيهما زغبٌ أسود، يدا قاتلٍ أو جزّارٍ، وتخيَّلَتْ ماتيلد، على الرغم منها، دراغان بازولي وهو يستخرجُ، بيدَيه العظيمتَين، وليداً من رحم امرأة. أحسَّتْ فوق خدِّها ببرودة خاتمٍ من ذهبٍ يضعُهُ الرجلُ حول بِنْصَرِهِ المحتقِنِ.

تقف إلى جانبه امرأةٌ شقراء يصعبُ على المرء أن ينظر إلى وجهها أو يتأمَّل قَدَّها لأنَّ صدرها الضَّخم الهائلَ يسترعي البصرَ ويخطفُهُ. استقبلتْ صاحبةُ البيت ماتيلد بابتسامة واهنةٍ ومدَّت إليها يداً رخوَةً. كانت تعتمرُ قُبَّعَةً وفق آخر صيحة الموضة وترتدي فستاناً يبدو خارجاً للتوِّ من متجرٍ، لكن كلَّ شيء فيها كان يَشِي بالابتذال، وانعدامِ حِسِّ الأناقة. كان يظهر ذلك في طريقة استعمالها أحمر الشِّفاه البرتقاليِّ، وكيف وضعت يديها على خَصْرها، ثم خصوصاً، طقطقة لسانها عند نهاية كل جملة تنطقها. كان يبدو أنها تريد أن تُقيم مع ماتيلد تواطُؤاً مؤسَّساً على الجنس أو الجنسيّة. كانت كورين فرنسيةً، «من دنكيرك» قالتْ وهي تنطق الغين الفرنسيةَ راءً. أحسَّتْ ماتيلد بسخافة موقفها وهي تُقدِّمُ لكورين، عند درج المدخل، طبقين

عليهما حلوى الكوغلوف الألزاسية وكعكة تينٍ. أمسكت المضيفةُ الطبقَين بأطراف أصابعها، كأنها خرقاء تحمل أوَّلَ مرة رضيعاً بين ذراعيها. خجلَ أمين بزوجته، وشعرت ماتيلد بذلك. لم تكن كورين من ذلك الصِّنف من النساء اللواتي ينشغلنَ بالحلويات، ويستَنْزِفْنَ أوقاتَهُنَّ، وشبابَهُنَّ، وجمالَهُنَّ في مطبخ شديد الحرارة، وسطَ الخدم وصَخَبِ الأطفال. وربما استشعر دراغان ذلك الانزعاجَ فشكَرَ ماتيلد بحرارة ولُطفٍ كان لهما الأثر الجميل في مشاعرها. رفعَ القُماشَ، وانحنى على الطبق، وغاص بأنفه قريباً من الحلويات بسنتيمتراتٍ، واستنشق طويلاً، وعميقاً، وتعجَّبَ صائحاً: «ما هذه الرّوعة!»، فاحمرَّ وجهُ ماتيلد.

وبينما كانت كورين تأخذ ماتيلد إلى الصالة، وتقودُها إلى أريكة، وتُقدِّمُ لها الشرابَ، وتجلسُ قبالَتَها تحكي لها قصَّتَها، قالتْ ماتيلد في نفسها: «إنها عاهرة». لم تُعِرْ أيَّ انتباه لحكي المرأة لأنها كانت واثقةً أنه لن يكون سوى أكاذيب، ولا تريد أن تُستَغْفَلَ. إنما يأتي الناسُ إلى هنا، في هذه المدينة النائية، ليكذبوا، ويُعيدوا خلقَ ذواتهم. أنصتَتْ، على الرغم منها، لقصة لقاء كورين بذلك الطبيب النسائي الهنغاري الثريّ، لكنها لم تُصدِّق لحظةً واحدةً حكايةَ الحبِّ من النظرة الأولى الذي صَرَعَ الاثنين. لم تُفكِّر ماتيلد، وهي تشربُ بلا حسابٍ من البورتو الرفيع في أثناء فترة المقبِّلات، سوى في أمرٍ وحيد. نظرتْ إلى دخول الخادم المغربيِّ وخروجه، وراقبَتْ ابتسامةَ زوجها الساطعةَ، وأمعنتِ النظرَ إلى الخاتم الذي يخنق إصبعَ طبيب النساء الغليظ، وقالت في نفسها «إنها عاهرة». كانت تلك الكلمات ترنُّ في رأسها، مثل رَشْقِ بندقيةٍ رشّاشة. تخيَّلتْ كورين داخل ماخور في دنكيرك، فتاةً مسكينةً يلسَعُها الخجلُ والبردُ، بدينةً

وقصيرةً، نصف عارية، بالملابس الداخلية والجوارب القصيرة. لا بدَّ أنَّ دراغان انتزَعَها من الوحل، قد يكون شَعَرَ نحوها بحُبٍّ مشبوبٍ وعواطف نبيلة، لكن ذلك لا يُغَيِّرُ من الأمر شيئاً. كانت تلك المرأة تُربِكُ ماتيلد، تُنَفِّرُها وتَفْتِنُها، تثيرُ اهتمامَها وتمنحُها الرغبةَ في الهروب.

كان دراغان، كلما تعثَّر الحديثُ في فترة المقبِّلات وساد صمتٌ مُرْبِكٌ، يشيرُ إلى تلك الحلويات ويُعبِّرُ عن استمتاعه بأكلها، ويَخُصُّ ماتيلد بابتسامة متواطئة. أجادَ دائماً التفاهمَ مع النساء. لم يتعذَّبْ في طفولته عذاباً أشدَّ ممّا عاناهُ في مدرسة الأولاد الداخلية حيث سجَّلَهُ والداهُ، وحيث كان عليه أن يستحمل تلك الذُّكورَةَ المستبِدَّةَ. كان حُبُّهُ للنساء ليس من باب الإغواء، بل من باب الصداقة والأُخُوَّة. وعندما صار رجلاً، وصارتْ حياتُهُ موسومَةً بالنفي والتّيه، اعتبر النساءَ حليفاتٍ له. كُنَّ يفهمن الكآبةَ التي تخنقه، ويُدْرِكْنَ ما يَعْنيه أن تُختزَلَ المرأةُ في اعتباط انتمائها الجنسيِّ، مثلما اختُزِلَ هو في عبثية دينه. تعلَّمَ منهنَّ مزيجاً من الإذعان والمقاومة، وتعلَّمَ أنَّ الفرحَ إنما هو انتقامٌ ضد أولئك الذين كانوا يريدون أن يتبرَّأوا منك.

اندهشَ أمين وماتيلد من أناقة بيت أسرة بالوزي. من يَرى ذينك الزوجين يصعبْ عليه أن يتصور رهافةً ودِقَّةً من ذلك القبيل، في التأثيث، وتنسيقِ السُّجوف، وانتقاءِ الألوان. اتخذوا مجلسهم في قاعة استقبال بديعةٍ، تُشرِفُ من فتحةٍ زجاجيةٍ عريضةٍ على الخارج وعلى حديقة لا يملك المرءُ إلا أن يعجب بهيئتها الرائعة. كانت شجيرات الجهنمية تنمو على الجدار الخلفيِّ، وأخرجَتْ ورودَها.

نَصَبَتْ كورين طاولةً وكراسيَ تحت شجرة جكراندا. «لكن الحَرَّ شديدٌ، لا نستطيع تناول الأكل في الخارج، أليس كذلك؟».

كانت، كلما تكلَّمت أو ضحكتْ، اهتزَّ ثدياها، فيُخَيَّلُ للمرء أنهما سيطلعان من فستانها، وينكشفان، وأنَّ الحلمتين ستبرزان مثلما تنبثقُ البراعمُ من أثر الربيع. لم يرفع أمينُ بصرهُ عنها، وابتسمَ باشتهاء، وقد ازدادت وسامتُهُ. كان وجهه، من كثرة عيشه في الهواء الطلق، نَحَتَتْهُ الريحُ والشمسُ، وعيناه طافحتين بالأُفُق، وبشرتُهُ تبعثُ رائحةً رائعة. ولم تكن ماتيلد تجهل قوةَ الغواية التي يمارسها على النساء. وتساءلتْ حينئذ عن سبب قبوله تلبية تلك الدعوة، أحِرْصاً على إرضائها، أم جرياً وراء جسم تلك المرأة المكتَنِزِ، وبدافع من شهوانيته.

«زوجتُكَ بارعةُ الأناقة»، قال أمين عند وصوله إلى درج المدخل، وطبعَ قبلةً طويلةً على يد كورين. «أوه، تبدو هذه الحلوياتُ لذيذةً، أجاب دراغان. زوجتُكَ طبّاخةٌ ماهرة». وعندما تحدَّث، في أثناء الوجبة، عن الحلويات من جديد، ودَّتْ ماتيلد أن تختفيَ. ووضعتْ يديها على صدغيها لتتداركَ تسريحةَ شعرها المتهاوية. وكان العرق يَقْطُرُ فوق جبينها، وظهرَ البللُ على فستانها تحت الإبطين وفي فتحة الصدر. كانت ماتيلد قد قضتْ الصباحَ تضطربُ في المطبخ، واضطرَّتْ إلى الإسراع في إطعام الطفلين وتزويد طامو بالتوجيهات. وتعطَّلت السيارةُ بعد عشرة كيلومترات من المزرعة وكان عليها أن تدفعها لأنَّ أميناً كان يزعمُ أنها لا تُحسِنُ المناورةَ. وقالت لنفسها، وهي تتناول رغاوي كبدٍ شديدة الكثافة، إنَّ زوجها خبيثٌ، فإنما ألزمَها بدفع السيارة القديمة، حفاظاً على نظافة سترة الأحد التي كان يرتديها. هو من تسبَّبَ في وصولها إلى بيت

أسرة بالوزي منهكةً، ترشحُ عرقاً، مجعّدةَ الفستان، تُغطّي لسعاتُ الحشرات ساقيها. هنَّأتْ كورين على مدخل بيتها الجميل ودَسَّتْ يدها تحت المائدة لتحكَّ رَبْلَتَيْها.

وَدَّتْ أن تسأل: «ماذا كنتما تصنعان إبّانَ الحرب؟» فقد كانت ترى في ذلك السؤال الطريقةَ الوحيدةَ لمعرفة الناس. غير أنَّ أميناً، الذي أطلقَ الخمرُ الأبيضُ لسانَهُ، شرعَ يتحدَّثُ في السياسة المغربية مع دراغان، فابتسمت المرأتان بعضُهما لبعض في صمت. أسقطت كورين رمادَ سيجارتها فوق الأرض فأحرقتْ جمرةٌ صغيرةٌ هُدْبَةَ البساط. وبدتْ متعبةً وقد غامتْ عيناها من أثر الكحول، واقترحَتْ على ماتيلد أن ترافقها إلى الحديقة، فوافقت هذه الأخيرةُ على مضض. «سأتركُ لها حبلَ الكلام»، ردَّدتْ في نفسها، عنيدةً، سيّئة المزاج. أخرجَتْ كورين علبة سجائر من منضدة صغيرة وقدَّمَتْ واحدةً لماتيلد. «ينبغي أن تصطحبي طفليكِ في المرة القادمة. أمرتُ بإعداد بعض الحلويات، وتوجد بعض الألعاب القديمة في الحجرة الخلفية. خلَّفَها أصحابُ البيت السابقون»، شرحتْ بصوتٍ أذْبَلَتْهُ الكآبةُ. جلستْ كورين فوق إحدى درجات السلَّم المؤدّي إلى الحديقة، وسألتْ ماتيلد: «متى وصلتم إلى المغرب؟». قصَّتْ عليها ماتيلد حكايَتَها، وبينما كانت تنتقي كلماتها، أدْرَكَتْ أنها لأول مرة يُنصَتُ إليها بتلك الطريقة، باهتمامٍ وحَدَبٍ. أما كورين فقد وصلتْ إلى الدار البيضاء بُعَيْدَ اندلاع الحرب. وكان دراغان الذي هربَ من هنغاريا، ثم من ألمانيا، ثم من فرنسا، قد سمع صديقاً روسيّاً يقول إنَّ المغرب مكانٌ مثاليٌّ لبدء كلِّ شيء من جديد. وفي المدينة البيضاء، على الساحل الأطلسيّ، اشتغلَ طبيباً في عيادة مشهورة. حصلَ فيها على أموال كثيرة، لكنه آثرَ الابتعاد عنها بسبب سمعة

مديرها وطبيعة العمليات التي كان يُجريها. ووقعَ اختيارُهُ على مكناس، لرقَّةِ العيش فيها وكثرة بساتينها.

«بأيِّ نوع من العمليات كان يتعلق الأمر؟»، سألتْ ماتيلد التي حيَّرتْها لهجةُ كورين المتآمرة.

تلفَّتَتْ كورين إلى الخلف، ودَنَتْ في جلستها من ماتيلد، وهمستْ: «عمليات خارقة تماماً في رأيي. ألا تعلمين أن الناس يقصدونه من جميع بقاع أوروبا لأجل ذلك؟ ذلك الطبيب عبقريٌّ أو مجنون، لا يهمُّ، لكن يُقالُ إنه قادرٌ على تحويل الرجل إلى امرأة!».

مكتبة
t.me/t_pdf

عند نهاية الفترة الدراسية، طلبت الأخواتُ اللقاءَ بوالدَيْ عائشة. وصل أمين وماتيلد إلى سياج المدرسة مبكِّرين بربع ساعة، وقادتْهما الأختُ ماري-سولانج إلى مكتب الأُمِّ الرئيسة. ساروا في الممرِّ الحجريِّ الطويل ومَرُّوا أمامَ الكنيسة الصغيرة التي أدار نحوها أمين عينَيه. ذاك الإلهُ، ما الذي يُخبِّئه له؟ دعتْهُما الأختُ ماري-سولانج للجلوس أمامَ المكتب الطويل المصنوع من خشب الأَرز، حيث كانت تتكدَّسُ بعضُ الملفّات. فوق المدفأة صليبٌ معلَّقٌ. وعندما دخلت الأمُّ الرئيسةُ إلى مكتبها، نهضا ووقفَ أمين على استعداد. كانا، هو وماتيلد، قد سهرا الليلَ كلَّهُ يتحدَّثان عن المؤاخذات التي سيعرّضون إليها: التأخرات المستمرة، ولباس عائشة، وهذيانها الصُّوفي. وأدَّى بهما الحديثُ إلى المشاجرة. «توقَّفي عن أن تحكي لها قصصاً تُعَذِّبُها»، كان يُهَدِّدُ أمين. «اِشْتَرِ لنا سيّارةً»، تجيبُهُ ماتيلد. لكنهما، في مواجهة المديرة، شعرا أنهما متَّحِدان. ومهما تقلْ، سيعرفان كيف يدافعان عن ابنتهما.

أشارت إليهما الراهبةُ بالجلوس. ولاحظت الفرق في الطول بين أمين وزوجته وبدا أنَّ الأمر يسلِّيها. لا بدَّ أنها فكَّرتْ في أنَّ الرجل العاشقَ أو المتواضع وحده من يرضى بأن يصل إلى كتفيْ

زوجته. جلستْ على أريكتها وحاولتْ أن تفتح دولاباً لا تجد مفتاحه.

«طيّب، أنا والأخت ماري-سولانج نودُّ أن نخبركما بأنَّنا جدُّ مسرورتين بعمل عائشة».

أخذتْ ساقا ماتيلد ترتعشان، فقد كانت تتوقَّعُ خبراً سيِّئاً. «إنها طفلة خجولة وهمجية، وليس من السهل ترويضُها. لكن نتائجها ممتازة».

دفعتْ نحوهما بدفتر نقط تمكّنتْ من إخراجه من الدُّولاب. وانزلقَ إصبعُها النحيلُ فوق الورقة، كانت أظفارها بيضاء، دقيقة التّقليم، ورقيقة رقّةَ أظفار طفلة.

«عائشة فوق المتوسِّط في جميع المواد. وما طلبنا أن نقابلكما إلا لأننا نرى أنَّ ابنتكما يمكن أن تتخطّى قسماً. هل توافقان على ذلك؟».

نظرتْ إليهما الأختان باهتمام وعلى وجهيهما ابتسامة ساطعة. كانتا تنتظران جوابَهما وبدتْ عليهما الخيبةُ لأنهما لم يتحمَّسا للأمر كلَّ الحماس الذي كانتا تتوقعانه. ظلَّ أمين وماتيلد جامدَين. كانا ينظران بإلحاح إلى الدفتر ويبدوان كأنهما يتناجيان في حديث صامتٍ يقوم على غمز العيون، وعقد الحواجب، والعضِّ على الشفاه. لم يحصل أمين على شهادة البكالوريا، وتنحصر ذكرياتُهُ عن المدرسة في الصفعات التي كان يوزِّعُها عليهم المعلِّمُ من باب الرّدْع. أما ماتيلد، فإنما كانت تذكرُ البردَ، برداً شديداً كان يمنعها من التعلُّم أو من أن تمسك قلماً بين أصابعها. وانبرتْ هي للكلام.

«إذا كنتما تعتقدان أنَّ الأمر جيّدٌ بالنسبة إليها». وكادت أن تضيف: «أنتما تعرفانها خيراً منّا».

وعندما عادا نحو عائشة التي كانت في انتظارهما بهدوء في الشارع، نظرا إليها بطريقة غريبة، كأنهما يَرَيانها لأول مرة. قالا في نفسيهما، إن هذه الطفلة غريبة عليهما، تملكُ، على الرغم من صغر سنِّها، روحاً وأسراراً، شيئاً لا يقبل الاختزال، ولم يكن في إمكانهما فهمُهُ أو الإمساكُ به. ذكيَّةٌ هي إذاً، هذه الفتاة الصغيرة المهزولة، الصدفاء الركبتين، المتغضِّنة الوجه، هذه الفتاة الصغيرة الكثّة الشعر. في البيت كانت قليلة الكلام. تقضي أمسياتها في اللهو بهُدب البساط الكبير الأزرق فتستبدُّ بها نوباتُ العُطاس بسبب الغُبار. لا تحكي أبداً ما تفعله في المدرسة، تحتفظ في السِّرِّ بأحزانها، وأفراحها، وصداقاتها. وعندما يزور البيتَ غرباء، تهربُ بسرعة الحشرات المطارَدَةِ، وتختفي داخل حجرتها أو في السَّهل. وتعدو أينما ذهبت، كأنَّ ساقَيْها الطويلتين النحيلتين قد استقلَّتا عن سائر الجسد. تسبق رجلاها جذعَها، وذراعيها، وكأنَّ عائشة إنما تحمرُّ وتعرقُ وهي تلاحق ساقيها الرفيعتين، اللتين تهربان منها بفعل سحر ساحر. تبدو كأنها لا تعلمُ شيئاً، ولا تعرفُ شيئاً. لا تطلبُ أبداً المساعدة من أجل إنجاز واجباتها، وعندما تنحني ماتيلد فوق دفاتر ابنتها، يغلبُها الإعجابُ بأناقة خَطِّها، وانسيابه، ودقّته.

لم تسألْ عائشة عن اللقاء. قالا لها إنهما مسروران بها وإنهم سيحتفلون بذلك بتناول الغداء في مقصف بالمدينة الجديدة. أمسكتْ باليد التي مدَّتْها إليها أُمُّها وتبعَتْهُما. الأمر الوحيد الذي بدا أنه أدخلَ عليها السُّرورَ هي كومة الكتب التي قدَّمَتْها لها أمُّها. «أعتقدُ أنكِ فُزْتِ بجائزة». اتخذوا مجلسهم في الشرفة، تحت الظُّلَّةِ الكبيرة التي يكسوها الغبارُ. أخذ أمين قدحَ عائشة الصغير وصَبَّ فيه قليلاً من الجعَّة. قال لها إنه يومٌ ليس كسائر الأيام، فيمكنها أن تشربَ

جرعةً معهما. دسَّتْ عائشة أنفَها في الكأس. لم يكن للجعة رائحة، فأخذَتْها إلى فمها وبلعت السائل المُرَّ. مسحتْ أمُها بقفازها أثراً للرغوة على خدِّها. أحبَّتْ عائشة كثيراً السائلَ الباردَ الذي ينزلقُ من حنجرتها إلى معدتها فيُنْعِشُها. لم تطالب بالمزيد، ولم تشأ أن تجعل من الأمر نزوةً، غير أنها دفعت قليلاً كأسَها إلى وسط المائدة، ودون أن يفكِّر والدُها في الأمر حقيقةً، ملأها من جديد. كان لا يزالُ تحت تأثير ما حصل. ابنتُهُ تبدو تافهةً، غير أنها تعرف اللاتينية وتتجاوز جميع الفرنسيات في الرياضيات. «مواهب خارقة»، قالت المعلِّمة.

بدأ السُّكْر يتسرَّبُ قليلاً إلى أمين وماتيلد. طلبا مقليات، وشرعا يضحكان ويأكلان بالأصابع. كانت عائشة قليلة الكلام. عقلُها غائمٌ، وتشعرُ أنَّ جسدها طرأتْ عليه خِفَّةٌ لم تعهدها من قبل، تكاد لا تُحِسُّ ذراعيها. كان يوجد ما يشبه التفاوتَ الزمنيَّ بين أفكارها ومشاعرها، أمرٌ مستجدٌّ يُربِكُها. تغمرها دفقةُ حُبٍّ قويّةٌ نحو والديها، ولا تمضي ثوانٍ إلا وقد فارقَها ذلك الشعورُ وشرعتْ تُفكِّرُ في قصيدة كانت حفظتْها ونسيتْ بيتَها الأخير. لا تستطيعُ تركيزَ انتباهها، ولم تضحكْ عندما توقَّفَ جماعةٌ من الأولاد الصغار أمام المقهى وقاموا ببعض الألعاب البهلوانية لتسلية الزبائن. كانت تشعر بحاجة قاهرة إلى النوم، ووجدتْ صعوبةً في الاحتفاظ بعينيها مُفَتَّحَتيْن. نهض والداها لتحيّة زوجين بقّالين أرمينيّين كانا يبيعانهما الفواكهَ وصناديقَ اللوز. سمعتْ عائشة اسمَها يُذْكَرُ. كان أبوها يتحدَّثُ عالياً، ووضعَ يدهُ على كتف ابنته النحيفة. ابتسمتْ فاغرةً فاها، ونظرتْ إلى يد أبيها السوداء ووضعتْ عليها خدَّها. سألها الكبارُ: «كم عمركِ؟»، «هل تحبّينَ المدرسة؟». لم تُجب. كانت

تفتقد أمراً ما، لكنها تعرفُ أنه أمرٌ سعيد، وكانت تلك آخر فكرة حملَتْها معها عندما استسلمتْ للنوم، متوسِّدَةً مائدةَ الغداء.

استيقظَتْ، تحت وابلٍ من قبلات أمِّها على خدَّيها. وساروا جهة شارع الجمهورية وسينما أمير التي كان مدخلُها يُذكِّرُ بمسرح إغريقيٍّ. ابتاعا لها قشدةً مثلَّجةً أكلَتْها فوق الرصيف، على مهل وبطريقة بدتْ لوالدها بالغةَ الفُحش، فانتهى إلى أن انتزع من يديها مخروطَ القشدة المثلَّجة ورمى به في القمامة. وبرَّرَ الأمر قائلاً: «ستُلَطِّخين فستانَكِ». كانت السينما تعرضُ فيلم «سيُصفِّرُ القطارُ ثلاث مرّاتٍ». داخل القاعة، يضحكُ مراهقون فيما بينهم في مجموعاتٍ، بينما يتناقش رجالٌ بلباس الأحد حول الأخبار بأصواتٍ عالية ويتشاجرون. وتبيعُ شابّةٌ الشوكولاتة والسجائر. كانت عائشة من القِصَرِ بحيث اضطرَّ أبوها لأن يحملها فوق ركبتيه لتتمكَّنَ من مشاهدة الشاشة. انطفأتِ الأضواءُ، وشرعت المرشدةُ العجوزُ المغربيةُ، التي قادَتْهم إلى أماكنهم، تصيح باتجاه مجموعة من الشبّان: «سدّ فمك!». التصقتْ عائشة بأمين كأنما داختْ من ملامسة دفئ بشرته. دَسَّتْ وجهها في عنق أبيها، غير آبهة بما يجري فوق الشاشة وبضوء المصباح الكهربائي الذي كانت تُلوِّحُ به المرشدةُ في اتجاه شابٍّ أشعلَ سيجارةً. ومرَّرَتْ ماتيلد، في أثناء الفيلم، يدَيها في شعر عائشة، وجذبتْ برفقٍ كلَّ خصلة فيه، لدرجة أنَّ جسمَ الطفلة عمَّتْهُ قشعريرةٌ من القفا إلى الأخمصين. وعندما غادروا السينما، كان شعرُها أكثر انتفاخاً وخشونةً من عادته، وأخجَلَها أن تُرى على تلك الحال في الشارع.

أظلمَ الجوُّ في السيارة، في طريق العودة. ولم يكن ذلك بسبب السماء المثقلة بالغيوم والعاصفة، أو بسبب سُحُب الغبار التي تثيرها

الزوابعُ الصغيرة. كان أمين قد نسيَ الخبرَ الجميلَ الذي أتحَفَتْهُ به الراهبتان، وانشغل بالُهُ بما أنفق من مال دون تفكير. وكانت ماتيلد تُكَلِّمُ نفسَها، وقد ألصقتْ جبينَها بزجاج النافذة. وتساءلتْ عائشة أنّى لأمِّها بكل هذا الحديث عن ذلك الفيلم. أنصتتْ إلى صوت ماتيلد الحادِّ، وهزَّتْ رأسَها عندما التفتتْ نحوها هذه وسألَتْها: «غريس كيلي بارعةُ الجمال، أليست كذلك؟». كانت ماتيلد تعشقُ السينما بشغفٍ يورثُها الألم. تشاهد الأفلام وهي تكاد تحبس أنفاسَها، وكلُّ جسدها منشَدٌّ إلى الوجوه المصوَّرة بالألوان. وعندما كانت تغادر ظلامَ القاعة، بعد انصرام ساعتين، تصدمُها حركةُ الشوارع. كانت المدينةُ تبدو لها زائفةً وغيرَ ملائمة، والواقعُ مثل خيالٍ بذيءٍ، أو كذِبٍ. تستمتعُ بما كان لها من حظِّ العيش سابقاً في بلدٍ آخر، وبكونها عايشتْ أهواء رفيعة، وفي الوقت نفسه يغلي جوّاها نوعٌ من الحنق والمرارة. تَوَدُّ أن تلجَ إلى الشاشة، وأن تعيش عواطفَ من المعدن نفسه، وذاتَ الكثافة نفسها. تَوَدُّ أن يُعترَفَ لها بكرامتها باعتبارها شخصية.

في أثناء صيف 1954، كتبتْ ماتيلد، باستمرار، رسائلَ إلى إيرين، غير أنَّ رسائلَها ظلَّتْ دون رَدٍّ. اعتقدتْ أنَّ الاضطرابات التي كانت تَهُزُّ البلد مسؤولةٌ عن العطَب فلم يُقلقها صمتُ شقيقتها. وكان فرانسيس لاكوست، المقيمُ العام الجديد، قد خلَفَ الجنرال غيوم، ووعَدَ عند وصوله في مايو 1954، بمكافحة موجة الشغب والاغتيالات التي أرهبت الساكنة الفرنسية. وهدَّدَ الوطنيين بعواقب وخيمة، فكان عمر، شقيقُ أمين، ينعتُهُ بأقسى النعوت. وذات يوم، ثار هذا الأخيرُ في وجه ماتيلد وشتَمَها. كان قد وصلهُ خبرُ استشهاد المقاوم محمد الزرقطوني في السجن، فاشتعل غضباً. «لم يعد سوى السلاح سبيلاً لتحرير هذا البلد. سيرون بأمِّ أعينهم ما يرصُدُهُ لهمُ الوطنيّون». حاولتْ ماتيلد أن تهدِّئَهُ. «جميع الأوروبيين ليسوا على هذا المنوال، أنتَ تعرف هذا جيّداً». ذكرتْ له أمثلةَ الفرنسيين الذين أعلنوا بوضوح وقوفَهم إلى جانب الاستقلال، والذين تعرَّضوا حتى للاعتقال بسبب مدِّهم خلايا المقاومة السِّريّة بمساعدةٍ لوجستية. لكن عمر هَزَّ كتفيه وبصق على الأرض.

ذهبوا، في أواسط شهر أغسطس، عند اقتراب موعد الذكرى الأولى لخلع السلطان عن العرش، لقضاء النهار في بيت مِّي لالَّة

التي استقبلتْ ابنَها البكرَ بوافر الدُّعاء، حامدةً الله على ما مَنَحها من رعاية. ثم أغلقَ الاثنان بابَ حجرةٍ دونهما ليتداولا في المال والأعمال، بينما جلستْ ماتيلد تَضْفِرُ شعر عائشة. وشرع سليم يضطربُ في البيت وكاد يسقطُ في السلَّم الحجريّ. وكان عمر شديد الحبِّ للولد الصغير، فحملَهُ على كتفيه وانطلق. «سآخُذُهُ ليركض في المنتزَه»، أعلمَها، وخرجَ دون أن يلقي بالاً لتوصيات ماتيلد. وصلت الساعةُ الخامسةَ ولمَّا يرجع عمرُ، فقلقتْ ماتيلد وذهبت في طلب زوجها. أطلَّ أمين من النافذة ونادى على شقيقه، فوصلتْ إلى سمعه صيحاتٌ وشتائمُ. كان متظاهرون يدعون للتجمُّع، والتمرُّد؛ يحثُّون المسلمين على التحلِّي بالكرامة، وأن يرفعوا رؤوسهم أمام المستعمِر. «يجب أن نعثر على سليم، صاح أمين. هيّا انزلوا». ودَّعوا مِّي لالَّة على عجل، كان رأسها يرتعد ووضعتْ يدَها على جبين ابنها لتباركه. دفع أمين الفتاتين في السلَّم. «أنتِ مجنونة، قال لماتيلد، ما الذي دهاكِ لتسمحي له بالخروج، ألا تعلمين أنَّ المظاهرات تخرج كلَّ يوم؟».

كان ينبغي مغادرة المدينة العتيقة في أسرع وقت ممكن، حيث تُشكِّلُ شوارعُها الضّيِّقةُ شركاً يخشى أن يقع سجينَ أحابيله رفقة أسرته، تحت رحمة المتظاهرين. اقترب الصّياح، وتردَّدَت الأصواتُ على جدران المدينة العتيقة. شاهدوا رجالاً يُقبِلون نحوهم، من الأمام ومن الخلف، وينبعثون من كل مكان بسرعة مجنونة. أحاطتْ بهم حشودٌ تزداد كثافةً، فانطلق أمين، الذي كان يحمل ابنته بين ذراعيه، يعدو نحو باب المدينة العتيقة.

وصلوا إلى السيارة وارتموا داخلها. كانت عائشة تبكي. طلبت الاحتماء بذراعي أمها، وسألتْ إن كان شقيقُها سيموتُ، فأمرها

أمين وماتيلد كلاهما أن تصمت. لحقتْ بهم حشودُ المتظاهرين، ولم يتمكَّن أمين من الرجوع بسيارته إلى الخلف. التصقتْ وجوهٌ بالزجاج. وخلَّفَ ذقنُ شابٍّ أثراً دهنيّاً طويلاً على النافذة. عيونٌ مجهولةٌ تتفحّصُ هذه الأسرةَ الغريبةَ، هذه الطفلةَ التي يصعبُ التكهُّنُ بالمعسكر الذي تنتمي إليه. أخذَ شابٌّ يصيحُ، رافعاً ذراعه نحو السماء، فأشعلَ حماسَ الحشود. لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر، يحتفظُ بلحية مراهقٍ صغيرةٍ. صوتُهُ العميقُ والحَقود يفارقُ رقَّةَ نظرته. نظرتْ إليه عائشة بإلحاح، وأدركتْ أنَّ ذلك الوجه سينطبع في ذاكرتها للأبد. كان ذلك الولد يُخيفُها، وتجدُهُ جميلاً بسرواله الفانِلَّة، وسترته التي تشبه ما يرتديه الطيّارون الأميركيون. «عاش الملك!» صاح الشّابُّ، فردَّدَ الجمعُ خلفه «عاش محمد بن يوسف!» بصوت قويٍّ ظنَّتْ معه عائشة أنَّ الأصواتَ هي التي تُزعزِعُ السيّارةَ. كان بعض الأولاد قد شرعوا يطرقون بعصيٍّ كبيرة على سطح السيارة، ويوقِّعون أناشيدهم مثل أوركسترا، فيكاد صخبُهُم المتصاعدُ يكتسي لحناً رخيماً. شرعوا يكسرون كلَّ شيء، زجاجَ السيارات، مصابيحَ أعمدة الكهرباء، وانتشرت شظايا الزجاج فوق الأرصفة، والمتظاهرون يدوسونها بأحذيتهم الرديئة، دون أن ينتبهوا إلى الدماء السائلة من أقدامهم.

«انْبَطِحا»، صاح أمين، فوضعتْ عائشة خدَّها على أرضية السيارة. وحمتْ ماتيلد وجهها بيديها وهي تُردِّدُ «نحن بخير، نحن بخير». فكّرتْ في الحرب، وفي ذلك اليوم حيث ارتمتْ داخل حفرةٍ لتتَّقيَ طلقاتِ طائرةٍ. كانت قد أنشبتْ أظافرَها في الأرض، وحبستْ أنفاسَها لحظاتٍ، ثم شدَّتْ فخذيها بقوة. ودَّتْ في تلك اللحظة أن تتقاسم تلك الذكرى، أو أن تضع شفتيها على شفتي أمين، فتُذيبَ

الخوفَ في الرغبة. ثم فجأةً تشتَّتت الجموعُ كأنَّ قنبلة يدوية انفجرت وسطهم، وألقت بالأجساد في كل اتجاه. تأرجحتِ السيّارةُ ورأت ماتيلد عينيْ امرأةٍ كانت تطرقُ برؤوس أظفارها على الزجاج. أشارتْ بسبَّابتها إلى الصغيرة التي كانت ترتعد. وثقتْ ماتيلد في المرأة دون أن تدري السبب. وفتحت النافذةَ، فألقتِ المرأةُ إليها بقطعتين كبيرتين من البصل، قبل أن تنطلق هاربةً. «الغاز!» صرخ أمين. وفي ثواني معدودة امتلأ داخلُ السيارة برائحة لاذعة وحارّة وأخذوا يسعلون.

أدارَ أمين محرِّكَ السيارة وسار بها متمهِّلاً ليعبر سحابةَ الدخان التي تشكّلتْ حولهم. وصل أمام سياج المنتزه وأسرع إلى خارج السيارة، تاركاً الباب مفتوحاً خلفه. شاهدَ، عن بعدٍ، شقيقَهُ وابنَهُ يلعبان. كأن تلك الاضطرابات التي تقع على مسافة بضعة أمتار من هناك، حدثَتْ في بلد آخر. كانت حديقة جنان السلطان هادئة وساكنة. يجلسُ رجلٌ فوق كرسيٍّ وعند قدميه وُضِعَ قفصٌ كبيرٌ صدئةٌ قضبانُهُ. اقترب أمين، وأبصر داخله قرداً نحيفاً، تميلُ فروتُهُ إلى الرّماديِّ، وتدوسُ قدماهُ برازَهُ. قعدَ القرفصاءَ ليرى الحيوان أفضل، فالتفتَ الأخيرُ نحوه، وفتحَ فاهُ وأشار إلى أسنانه. كان يُصفِّرُ ويبصُقُ، ولم يَدْرِ أمين أكان ذلك منه ضحكاً أم تهديداً.

نادى أمين على ابنه الذي أسرعَ للارتماء بين ذراعيه. ولم يرغب في التحدُّث إلى شقيقه، فلم يكن لديه وقتٌ للتبرير واللوم، ورجعَ إلى سيارته، مخلِّفاً عمر واقفاً وسطَ عشب الحديقة. أقام رجال الشرطة حاجزاً على طريق المزرعة. وأبصرتْ عائشة السلسلةَ الطويلة المُسَمَّرَةَ الممدودةَ فوق الأرض، وتخيَّلت الصوتَ الذي ستُصدِرُهُ العجلاتُ إذا ما انفجرتْ. أشار أحد رجال الشرطة إلى

أمين أن يركن على جانب الطريق. اقتربَ ببطء من السيارة وخلع نظارتيه الشمسيتين ليفحص وجوه الراكبين، فتفحَّصَتْهُ عائشة بفضولٍ أربَكَ الموظَّفَ. كان يبدو عاجزاً عن فهم تلك الأسرة الماثلة أمام ناظريه، والتي كان أفرادُها ينظرون إليه بكل هدوء ودون أن ينبسوا ببنت شفة. تساءلتْ ماتيلد عن الحكاية التي تدور في خلده. أيحسبُ أميناً سائقاً؟ أيتصوَّرُ ماتيلد زوجةَ مُعمِّرٍ ثريَّةً كُلِّفَ هذا الخادمُ بمرافقتها؟ غير أنَّ الشرطيَّ كان يبدو غير مكترثٍ بالزوجين ويركِّزُ اهتمامه على الطفلين. تأمَّلَ يدي عائشة اللتين تحيطان بخصر شقيقها الأصغر، كأنها تريد أن تحميَهُ. أنزلتْ ماتيلد نافذتَها ببطء وابتسمتْ للرجل الشاب.

«سَيُعلَنُ حظرُ التجوُّل. عودوا إلى بيتكم. هيّا». ضرب الشرطيُّ ضربةً على غطاء السيارة فانطلق أمين.

ارتدتْ كورين، في حفل 14 يوليو الراقص، فستاناً أحمر وحذاءين خفيفَين من جلد مجدول. ولم ترقص في الحديقة، حيث أقيمتْ فوانيس ملوَّنة، إلا مع زوجها، رافضةً بإشارة مهذَّبةٍ جميعَ دعواتِ الضيوف الآخرين. كانت تحسبُ أنها بتلك الطريقة ستنأى بنفسها عن غيرة الزوجات، وتضمن صداقتهنَّ، غير أنَّهنَّ، على العكس، وجدنَ أنها متعالية وسوقية. «أزواجُنا، قُلْنَ في أنفسهن، ليسوا من مقامها؟» كانت كورين، في تلك الظروف، تَتَّسِمُ بالحذر. تحتاطُ من الكحول ومن الحماس، لأنها تعرفُ الصباحات الأليمة التي تعقبُ ذلك. تخشى ذلك الإحساسَ بأنَّها أهانتْ نفسَها، وبالغتْ في الكلام، واستبدَّتْ بها رغبةٌ يائسةٌ في إرضاء الآخرين. قبل منتصف الليل، جاء أحدُهم في طلب دراغان، الذي كان يشرب مستنداً إلى المنضدة. امرأةٌ على وشك أن تلدَ طفلَها الثالث، وينبغي الإسراع. رفضتْ كورين أن تستمرَّ في الحفل. «إذا لم تكن أنتَ هنا، لن أرقص»، فرافقَها إلى البيت قبل أن يتوجَّهَ إلى المستشفى. وعندما استيقظت في صباح اليوم الموالي، لم يكن زوجها قد عاد. ظلَّتْ مُمَدَّدَةً في الحجرة المغلَقة مصاريع نوافذها، تُنصِتُ لصوت ريش المروحة، وقد تبلَّلَ قميصُ نومها بالعرق. وفي الأخير، نهضتْ

واتَّجهَتْ متثاقلةً إلى النافذة. شاهدتْ، في الشارع، حيث كانت الحرارةُ قاهرةً، رجلاً يكنسُ الرصيفَ بسعف النخيل. وفي البيت المقابل، كان الجيرانُ منشغلين بهمة. يجلس الأطفالُ فوق درج المدخل بينما كانت أُمُّهُمْ تجري من حجرة إلى أخرى، تغلقُ مصاريع النوافذ، وتصيح بالخادمات اللواتي يتباطأنَ في ملء الحقائب. أما الأب الذي كان يجلس في مقدمة السيارة وهو يدخِّنُ، فكان يبدو مرهَقاً بذلك السفر الطويل حتى قبل أن ينطلق. كانوا عائدين إلى الوطن الأم، وكانت كورين تعلمُ أنَّ المدينةَ الجديدةَ ستصيرُ خالية عمّا قريب. أخبرتْها معلِّمةُ البيانو، قبل بضعة أيام، أنها راحلة إلى بلاد الباسك. «أسْعِدْ بها من أسابيع سأقضيها بعيداً عن هذا الحَرِّ وعن هذا الحقد!».

غادرتْ كورين الشرفةَ وفكَّرتْ في أنها ليس لديها مكان ترحل إليه. لا مكان تؤوبُ إليه، ولا بيتَ طفولةٍ تسكنُهُ الذكرياتُ. ارتعدتْ اشمئزازاً إذ تذكَّرتْ شوارعَ دانكيرك السوداء، والجاراتِ اللواتي كُنَّ يتجسَّسْنَ عليها. تراهنَّ الآن من جديد، واقفاتٍ عند درج عتبات بيوتهنَّ، ممسكاتٍ بالأيدي أوشحة غليظة تُغطِّي أكتافهنّ، وشعرهنَّ الوسخ المشدود إلى الخلف. كُنَّ لا يثقن في كورين التي فاضَ جسدُها فجأةً في سنّ الخامسة عشرة. كان على كتفيها، كتفَي فتاةٍ صغيرةٍ، أن تتحمَّلا ثدييْها العظيمين، وأن تحمل رجلاها الهشَّتان ثقلَ وَرِكَيْها المكتنزتين. كان جسدُها مَغْواةً، وفَخّاً يأسرُها. صار أبوها لا يجرؤ على النظر إليها عند جلوسهم إلى المائدة. وكانت أمُّها تردِّدُ ببلاهة: «كيف للمرء أن يعرف ماذا يُلبِسُ هذه الصغيرة». وكان الجنود يتطلَّعون إليها باشتهاء، والنساءُ يرونَها خليعةً. «جسدٌ من هذا الصِّنف يبعثُ أفكاراً خبيثةً!». كانوا يتصوّرونها شرهةً،

وشهوانية. ويرونَ أنَّ امرأةً من ذلك القبيل لم تُخلَق إلا من أجل اللذة.

أغلقتْ كورين مصراعي النافذة وقضت الصباحَ في الظِّلِّ، مُمَدَّدَةً فوق فراشها، تُدَخِّنُ السجائرَ عن آخرها إلى أن يحرقَ العقبُ شفتيها. لم يتبقَّ من طفولتها ومن طفولة دراغان سوى ركامٍ من الحجارة، عماراتٍ تهدَّمتْ تحت قصف القنابل، وجُثَثٍ مدفونةً في مقابر مهجورة. انتهى بهم المطاف هنا، وعندما وصلتْ إلى مكناس اعتقدتْ أنَّ بإمكانها، ربما، أن تبنيَ حياةً جديدةً. تصوَّرتْ أنَّ الشمسَ، والجوَّ الجميلَ، والحياة الهادئةَ، سيكون لها الأثر الحميد على جسمها، وستستطيع أخيراً أن تمنح دراغان طفلاً. لكن مرّت الشهورُ ثم الأعوامُ. ولا يُسمعُ في البيت سوى طنين المروحة ولم يتردَّد أبداً ضحكُ طفل بين جنباته.

وعندما عاد زوجُها، قُبيل الغداء، طرحتْ عليه ألفَ سؤال يُضاعِفُ من عذابها: «كم كان وزنُهُ؟»، «هل بكى؟»، «أخبِرْني يا حبيبي، هل كان الوليدُ جميلاً؟». أجابها دراغان بلطف، دامعَ العينين، وهو يحتضنُ بقوةٍ جسدَ محبوبته. كان قد عزم أن يزور أسرة بلحاج في فترة ما بعد الظهيرة من ذلك اليوم، واقترحتْ كورين أن ترافقه. كانت تحبُّ ماتيلد الشابّةَ، بعصبيّتها، وخُرْقِها. تأثَّرتْ لسماعها ما حكتْهُ لها المرأة الشابّةُ عن حياتها. قالت ماتيلد: «لا خيار لي سوى الوحدة. كيف تريدين أن تكون لنا، في وضعيتي هذه، حياةٌ اجتماعية؟ لا تتخيَّلين ما معنى أن تكوني زوجة رجلٍ من الأهالي، في مدينة مثل هذه». كادتْ كورين أن تجيبها أنَّ حياتها أيضاً لم تكن سهلة، زوجة ليهوديٍّ، مهاجرٍ، محرومٍ من الجنسيّة، وزوجة بلا أطفال. لكن ماتيلد كانت صغيرةً ورأتْ كورين أنها لن تفهم.

عندما وصلتْ كورين إلى المزرعة، وجدَتْها مُمَدَّدَةً تحت شجرة الصفصاف، وقد نامَ طفلاها إلى جانبها. اقتربتْ بصمتٍ كي لا تُزعِجَ نُعاسَ الصغيرين، وأشارتْ لها ماتيلد بالجلوس فوق المُلاءة الممدودة فوق العشب. وأخذتْ تتأمَّلُ، في الظِّلِّ، تُهدهِدُها الأنفاسُ الطفوليةُ، الأشجارَ التي تنمو في الأسفل والتي تمتزج على أغصانها فواكه مختلفٌ ألوانُها.

زارتْ كورين التَّلَّةَ، في ذلك الصيف، كلَّ يومٍ تقريباً. كانت تحبُّ أن تلعبَ مع سليم الذي كان يفتنُها جمالُهُ وكانت تعضُّهُ برفقٍ على خدَّيه وفخذيه. وأحياناً، كانت ماتيلد تشغِّلُ المذياعَ وتتركُ بابَ البيت مشرعاً، فتصل الموسيقى إلى الحديقة وتأخذُ كلٌّ واحدةٍ منهما بيد أحد الطفلين وتجعلانه يدور ويرقص. وفي الكثير من المرّات استبقتْها ماتيلد للعشاء، وعند هبوط الليل، يلتحق بهما الرجلان لتناول العشاء في الحديقة تحت سقيفةٍ، شيَّدَها أمين، بدأتْ شجيرة وستارية تنمو فوقها.

كانت أصواتُ المدينة تصلُ إليهم مُحَرَّفَةً، شوَّهَتْها الإشاعةُ. لم تكن ماتيلد ترغبُ في أن تعرف أيَّ شيء عن بقيّة العالم، فالأخبار كانت تجُرُّ معها الكثيرَ من العفن والشقاء. غير أنها لم تجد الجرأةَ على إسكات كورين يوم جاءتها شاحبة الوجه. «الحمّى في المغرب»، كان عنواناً في صحيفة تحملها في يدها. وهمستْ، حتى لا يسمع الطفلان الفظاعات التي وقعت يوم 2 أغسطس، في بوتيجون[1]. «لقد قتلوا يهوداً»، وسردتْ، مثل تلميذة مجتهدة،

(1) Petitjean، الاسم الذي كان يُطلق على مدينة سيدي قاسم في عهد الاستعمار، وتوجد قرب مدينة مكناس. (المترجم)

تفاصيلَ المجزرة. جذع جسد أبٍ لأحد عشر طفلاً مشطور إلى نصفَين. نهبُ المنازل ثم حرقُها. ووصفتْ الجثث المشوَّهَةَ التي حُمِلَتْ إلى غاية مكناس لدفنها، وردَّدتْ على مسمعها كلمات الحاخامات التي تُلِيَتْ في جميع المعابد اليهودية. «الرَّبُّ لن يَنسى. أمواتُنا سَيُثْأَرُ لهم».

V

عادتْ عائشة إلى المدرسة في شهر سبتمبر، ومنذ تلك اللحظة صارتْ تُلقي بالمسؤولية عن تأخُّراتها على المرضى. منذ حادث ربيعة، انتشر الخبرُ بأنَّ ماتيلد تملكُ مهارات معالِجة، تعرفُ أسماءَ الأدوية وكيفيةَ استعمالها. وأنَّها هادئة وكريمة. هذا ما يُفسِّرُ تواردَ البدويين، منذ ذلك اليوم، على بيت أسرة بلحاج كلَّ صباح. في المرّات الأولى، ذهب أمين ليفتح الباب، وهو يسأل بلهجةٍ يملأها الشكُّ:

«ماذا تفعلُ هنا؟

- صباح الخير سيّدي. إنما حضرتُ للقاء السيِّدة».

كان طابورُ مرضى ماتيلد يزداد طولاً كلَّ صباح. في موسم الجني، تكاثرَ عددُ العاملات اللواتي حضرن لطلب المساعدة. لسعَ بعضَهُنَّ القُرادُ، وأخرياتٌ مصاباتٌ بالتهابات وريدية، أو لم يعدن قادراتٍ على إطعام رُضَّعِهِنَّ بسبب نضوب حليب أثدائهنَّ. لم يكن أمين تُعْجبُهُ رؤية طوابير النساء فوق درج بيته. يكرهُ فكرةَ أن يدخلن إلى بيته، ويتجسَّسْنَ على أفعاله وحركاته، وأن يذهبن إلى القرية ليُخبِرن بما رأينه في بيت السيِّد. وكان يُحذِّرُ زوجَتَهُ من أعمال السِّحر، والغيبة، والحسد الذي يرقُدُ في صدور جميع النّاس.

كانت ماتيلد تُحسِنُ معالجةَ الجروح، أو تنويمَ القُراد بالأثير، أو تعليمَ النساء كيفية تنظيف دَوْرَقِ حليب الأطفال والاهتمام بنظافة أبنائهنَّ. كانت تُخاطِبُ البدويِّين بقدرٍ من القسوة. ولا تُشاركهنَّ الضَحكَ عندما يُرسِلنَ دُعاباتٍ شَبِقَةً تعليقاً على حَمْلٍ جديد. وترفعُ عينيها نحو السماء عندما يحكين لها، مرة بعد مرة، قصص الجنِّ، أو الجنين الراقد في بطن أمِّهِ، أو النساء الحوامل اللواتي لم يمسسهُنَّ رجل. كانت تستشيطُ غضباً ضدّ قدريّة البدويين، الذين يتوكَّلون على الله في كل أمر، ولا تستطيع أن تفهم استسلامهم للقدر. كانت تُرَدِّدُ طوال النهار نصائحَها حول النظافة. «أنتِ وسخة!» كانت تصيح. «جرحُك يتعفَّنُ. تعلّمي الاغتسال». بل رفضتْ أن تستقبل عاملةً جاءت من بعيد، قدماها يكسوهما البراز اليابسُ، وارتابت في اجتياحها بالقمل. وهكذا صار صراخُ أطفال النواحي تتردَّدُ أصداؤه في البيت كلَّ صباح. يصرخون من الجوع، في غالب الأحيان، لأنَّ النساء كُنَّ يفطمن أطفالهنَّ بغتةً، إمّا ليستأنفن عملهُنَّ في الحقول، وإمّا بسبب حمل جديد. وينتقل الصغيرُ من حليب أمه إلى الخبز المغموس في الشاي، فيضمُرُ جسمُهُ يوماً بعد يوم. كانت ماتيلد تهدهد أولئك الأطفال ذوي العيون الغائرة، والخدود الشاحبة، وتصعد الدموعُ إلى عينيها لعجزها عن مواساتهم.

وسرعان ما تجاوزت الحاجاتُ إمكاناتِ ماتيلد، وأدركتْ سَخْفَ ذلك المستوصف المرتجَل حيث لم يكن لديها سوى الكحول، ومادةٍ لتطهير الجروح، ومناديلَ نظيفةٍ. وذات يوم، وصلت امرأةٌ، تحمل صغيراً بين ذراعيها. كان الطفلُ ملفوفاً في لحافٍ متّسخ، وعندما دنَتْ منه ماتيلد لاحظتْ أنَّ بشرةَ خدَّيه سوداء

وتتقلَّعُ مثل جلد الفلفل الذي تشويه النساء على الفحم الخشبيِّ. كانت النساء يطبخن في تلك البيوت فوق الأرض، ويحدث أن يتلقى الأطفالُ إبريقَ الشاي على الوجه، أو تتعرَّضَ أفواهُهُم أو آذانُهُم لعضَّةِ فأرة.

«لا يمكننا أن نظلَّ مكتوفين، لا نفعل أيَّ شيء»، كانت تُردِّدُ ماتيلد، وقرَّرَتْ أن تُمَوِّنَ المستوصَفَ. «لن أطلب منك مالاً، أقسمتْ لأمين. سأتدَبَّرُ الأمر».

رفع أمين حاجبيه وأخذ يضحك.

«الصدقة، قال لها، واجب المسلم.

- وواجب المسيحيِّ كذلك.

- إذاً اتَّفقْنا. لا حاجة إلى مزيد من الكلام».

*

اعتادت عائشة على إنجاز واجباتها في المستوصف، حيث يفوح الكافور والصابون. ترفعُ رأسَها عن دفاترها فتلمحُ البدويين يحملون الأرانبَ من آذانها ويأتون لتقديمها عربونَ شُكْرٍ. «يحرمون أنفسَهم من أجلي، لكنني أعلمُ أنهم يتألمون إن رفضتُ هديَّتهم». شرحتْ ماتيلد الأمرَ لابنتها. كانت عائشة تبتسمُ للأطفال الذين يهزُّهم سُعالٌ رطبٌ ويُغطِّي الذبابُ عيونَهم. وكانت تتعجَّبُ من أمِّها التي تتحسَّنُ قدرتُها على الحديث بالأمازيغية، وتشتُمُ طامو لأنها تبكي عند رؤية الدم. وكانت ماتيلد تضحكُ أحياناً، وتجلس فوق العشب، تستند قدماها إلى أقدام النساء. تطبع قبلاتٍ فوق خَدَّيْ عجوزٍ نحيفَين، وتُلبِّي رغبات صغير يطالب بالسُّكَّر. وتطلبُ منهنَّ أن يقصصن عليها حكاياتٍ قديمةً، فتحكي النساءُ، وهنَّ ينقرنَ باللِّسان

على لثّتِهِنَّ الدرداء، ضاحكاتٍ، وقد أخفين وجوههنَّ خلف أيديهنَّ. يحكين بالأمازيغية ذكرياتٍ حميمةً وينسين أنَّ ماتيلد إنما هي سيِّدتهُنَّ وغريبة عنهنَّ في الآن نفسه.

«إنَّ أناساً يعيشون في زمن السِّلم، لا ينبغي أن يعيشوا عِيشَةَ كهذه»، كانت تُردِّدُ ماتيلد التي يُحْفِظُها البؤسُ. كان يجمعها بزوجها تطلُّعٌ مشتركٌ إلى التقدُّم من أجل جميع الناس: جوعٌ أقلّ، وأَلَمٌ أقل. كلُّ واحد منهما يتحمَّسُ للحداثة، أملاً في أن تُوفِّر الآلاتُ أفضلَ المحاصيل، وأن تقضيَ الأدوية على الأمراض. غير أنَّ أميناً حاول مراراً أن يثنيَ زوجتَهُ. كان يخشى على صحَّتها ويقلق من المكروبات التي يمكن أن يزرعها بينهم أولئك الغرباءُ، فيتعرَّض الطفلان للخطر. ذات مساء، حضرتْ عاملةٌ رفقتها طفلٌ محمومٌ منذ بضعة أيام. أمرتْها ماتيلد أن تخلع ملابسه وتجعله ينام عارياً، وتُغطّيه بلحافٍ بارد. عادت المرأةُ في فجر اليوم الموالي. كان الطفل يتَّقد حرارةً، وقد رَجَّتْهُ التشنُّجاتُ في أثناء الليل. أركَبَتْ ماتيلد البدويَّةَ في السيارة وأجلستِ الطفلَ إلى جانب عائشة. «سأوصِلُ ابنتي إلى المدرسة، ثم نذهبُ إلى المستشفى، هل فهمتِ؟» جعلوهم ينتظرون طويلاً في قاعة الانتظار في المستشفى الأهليِّ، وفي الأخير فحصَ طبيبٌ، أشقر الشعر، الطفلَ. وعندما عادت ماتيلد، في آخر النهار، لإحضار ابنتها من المدرسة، كانت شاحبةَ الوجه، وحنكُها يرتعشُ. اعتقدت عائشة أنَّ أمراً قد طرأ. «مات الولدُ الصغير؟» سألتْ أُمَّها. أخذتْ ماتيلد ابنتَها في حضنها، وقرصَتْها في فخذيها وذراعيها. وبكتْ، فسالتْ دموعُها على وجه الطفلة. «صغيرتي، ملاكي الصغير، كيف أنت؟ انظري إليَّ حبيبتي. هل أنتِ بخير؟» لم يجد النومُ سبيلاً إلى عينَي ماتيلد في تلك الليلة، ولأول مرة توجَّهَتْ

بالدُّعاء إلى الله. قالت في نفسها إنَّها إنما تنال عقابَ كِبْرِها. حسبتْ نفسَها معالِجةً وهي لا تعلمُ أيَّ شيء. لم تُفلِحْ سوى في تعريض طفلتها للخطر، وقد تجدُ ابنتَها غداً شديدةَ الحمّى، فيقول لها الطبيبُ، مثلما قال هذا الصباح: «إنه شلَلُ الأطفال، سيدتي. احترسي، إنه شديد العدوى».

وصار المستوصفُ مثار نزاع مع الجيران كذلك. جاء رجالٌ إلى أمين، يشتكون ويتذمَّرون. لقد نصحتْ ماتيلد زوجاتهم بأن يتملّصن من واجبات فراش الزوجية، وحَشَتْ رؤوسَهنَّ بأمور غريبة. لا يحقُّ لتلك المسيحية، الأجنبية، أن تحشر أنفها في هذه الأمور، وأن تُشعل فتيلَ الشِّقاق داخل الأُسَر. وذات يوم، جاء روجيه مارياني يطرق باب بيت أسرة بلحاج. كانت تلك أول مرة يعبُرُ فيها جارُهم الغنيُّ الطريقَ الذي يفصل بين المزرعتين. كانت ماتيلد، في سائر الأيام، تراهُ راكباً الحصان، فوق أراضيه، معتمراً قبّعةً تُغطّي جبهته. وَلَجَ الصالةَ حيث تجلس عاملاتٌ على الأرض، يحملن أطفالهنَّ بين أذرعهنَّ. ما أن وقعتْ أعينُ بعض العاملات على الزائر حتى انصرفن هارباتٍ دون أن يلقين حتى السلام على ماتيلد، التي كانت منهمكةً في وضع ضمّادة فوق ما احترق من جسم طفل صغير. قطع مارياني الحجرةَ، شابِكاً يديه وراء ظهره، واتّخذ مكانه خلف ماتيلد. كان يمضغ ساق قمح، فآذى ما يُصدرُهُ من صوت المرأةَ الشابةَ ومنعها من التركيز فيما كانت تقوم به. وعندما التفتتْ نحوه، ابتسم في وجهها. «واصِلي، أرجوكِ». جلسَ فوق كرسيٍّ وانتظرَ أن تنتهي ماتيلد من معالجة الطفل الصغير، الذي أوصَتْهُ بأن يبقى في الظِّلِّ ويأخذ قسطاً من الراحة.

وعندما صارا وحيدَين، نهضتْ ماتيلد. انتابَهُ بعضُ الارتباك

بسبب طول قامتها وعينيها الخضراوين اللتين لم يلمح فيهما أيَّ مسحة خوف تجاهه. خشيَتْهُ النساءُ طوال حياته، ينتفضن لسماع رنَّة صوته الغليظ، ويفزعن إلى الهرب عندما يمسكُهنَّ من وسطهنَّ أو من شَعرهنَّ، ويبكين بصوت خفيض عندما يضاجعهنَّ قهراً داخل إسطبل أو خلف دَغَلٍ. «الاهتمامُ بهؤلاء الماعز لن يعود عليكِ إلا بالأذى»، قال مصارحاً ماتيلد. أمسكَ، دون اهتمام، قارورةَ كحول، وطرقَ الطاولةَ برأس مقصٍّ. «ماذا تعتقدين؟ أنهم سيتَّخذونكِ قدِّيسةً؟ وسيقيمون لكِ معبداً مثل الأولياء؟ هؤلاء النسوة، همسَ وهو يشير إلى العاملات اللواتي يعملن في الخارج، لهنَّ قدرة على تحمُّل الألم. فلا تحاولي أن تُعلّميهنَّ الإشفاقَ على ذواتهنَّ، أتفهمين ما أقول؟».

*

لكن لم ينل شيءٌ من عزمِ ماتيلد. ذات سبتٍ، في أوَّل شهر سبتمبر، ذهبت إلى عيادة الدكتور بالوزي، التي كانت توجد في شارع رين، في الطابق الثالث من عمارة رائعة. كانت أربع أوروبيات يجلسن في قاعة الانتظار، ووضعت إحداهنّ، وكانت حاملاً، يدَها على بطنها عندما أبصرتْ ماتيلد، كأنها تحمي الجنين من سوء ذلك اللقاء. طال انتظارُهُنَّ في تلك الحجرة الشديدة الحرارة، حيث يسود صمتٌ ثقيل. نامتْ إحداهنَّ مستندةً بوجهها إلى يدها اليمنى. وحاولت ماتيلد أن تقرأ الرواية التي حملتْها معها لكنَّ القيظَ كان شديداً يمنعها من التفكير، فيهذي ذهنُها، متنقِّلاً من فكرة إلى أخرى، دون أن يستقرَّ عند واحدة.

وأخيراً، خرج دراغان بالوزي من مكتبه، وعندما أبصرتْهُ

ماتيلد، نهضَتْ وتنفَّست الصعداء. كان وسيماً ببذلته البيضاء، وشعره الأسود المُسَرَّح إلى الخلف. يختلفُ عن الرجل المرِحِ الذي التقتْهُ أوَّل مرة، وبدتْ لها عيناهُ، المحاطتان بهالة تميل إلى السواد، حزينتَين بعض الشيء. كان يحمل على وجهه ذلك التعبَ الذي لا يظهر إلّا على أَجْوَدِ الأطباء. يرى المرءُ وجوههم كأنها تشِفُّ عن آلام مرضاهم، ويُخَمِّنُ أنَّما تحني أكتافَهم اعترافاتُ مرضاهم، ويُبطئُ حركاتِهِمْ وكلامَهم ثقلُ تلك الأسرار وعجزُهم.

اقترب الطبيبُ من ماتيلد وتردَّد قليلاً قبل أن يطبع قبلتَين على خدَّيها. لاحظَ احمرار وجنتيها، فتفحَّصَ غلافَ الرواية، التي في يدها، ليدفع ذلك الانزعاج.

«**موتُ إيفان إيليتش**»، قرأَ بصوت خفيض. كان لديه صوت عميقٌ، صوتٌ مليءٌ بالوعود، ويشعر المرءُ أنَّ هذا الجسدَ، وهذا القلبَ، يطفحان بقصصٍ خارقة. «أتحبّين تولستوي؟».

هزَّتْ ماتيلد رأسها، وبينما كان يرافقها إلى داخل مكتبه الرّحب، قصَّ عليها نادرةً. «عندما وصلتُ إلى المغرب، عام 1939، أقمتُ في مدينة الرباط عند صديقٍ روسيٍّ هاربٍ من الثورة. ذات مساء، دعا بعضَ الأصدقاء للعشاء. شربنا، ولعبنا الورق، ونامَ أحدُ الضيوف، وكان يُدعى ميشيل لفوفيتش، فوق كنبة الصالة. وكان يشخر بقوة أثارتْ ضحكَنا، فقال لي مُضيفي حينئذ: «عندما يفكِّرُ المرء بأنَّ هذا الشخص هو نجل تولستوي العظيم!»».

فتَّحَتْ ماتيلد عينيها، واستأنف دراغان حكيه.

«تماماً. ابن ذلك العبقريِّ، قال متعجِّباً وهو يرشد ماتيلد إلى أريكة من جلد أسود. ماتَ عند نهاية الحرب. لم أرهُ أبداً بعد ذلك اليوم».

عَمَّ الصمتُ، وانتبه دراغان إلى ما في الوضع من حرج. وأدارتْ ماتيلد وجهها نحو السّاتر الذي تخلعُ المريضاتُ خلفه ثيابهنَّ.

«لأكون صادقة معكَ، قالت له، لم أحضرْ من أجل أن تفحصني، إنما أتيتُ أطلبُ المساعدَةَ».

وضع دراغان ذقنه فوق يديه المشبوكتَين. كم مرة عاش هذا الوضعَ؟ «إن الطبيب النسائيَّ ينبغي له أن يتوقَّعَ كلَّ شيء»، قال له أحدُ أساتذته في كلّية بودابست. أن يتوقعَ النساءَ المستعِدّات لإجراء أدهى التجارب من أجل إنجاب طفل. والنساء المتوسِّلات المستعدّات لتحمُّل أبشع الآلام من أجل التخلُّص من طفل. والمريضات اليائسات اللواتي يكتشفن بفضل أعراضٍ مُخجِلة خيانةَ أزواجهنَّ. وأخيراً، تلك اللواتي قلقنَ، بعد فوات الأوان، من انتفاخ تحت الذراع، وألمٍ أسفلَ البطن. «لكن لا بدَّ أنكِ تألَّمتِ بشكل فظيع، كان يسأل الأخيرات. لماذا لم تحضري من قبل هذا؟».

نظر دراغان إلى وجه ماتيلد الجميل، ولونه الذي لا يلائمُ هذه الأجواءَ، والذي كانت تغمره بُقَعٌ وورديّةٌ. ما الذي كانت تنتظرُ منه؟ هل ستطلب منه مالاً؟ هل جاءت من طرف زوجها؟

«حدّثيني بالأمر».

تكلّمتْ ماتيلد. وكانت تتكلَّمُ بسرعة متصاعدة، وبحماسٍ أربكَ طبيبَ النساء. تحدَّثتْ عن ربيعة، التي كانت لديها بقع غريبة فوق البطن والفخذين ويُصيبها الغثيانُ. وذكرتْ حالة جْميعة التي لا يقوى ابنُها ذو الثمانية عشر شهراً على الوقوف. واعترفتْ له بإحساسها بالعجز، وبكونها غير قادرة على مواجهة الخُناق، والسُّعال الديكي،

والرَّمَد، التي تعلّمت كيف تتعرّف أعراضها، ولكنها لا تعرف كيف تعالجها. كان دراغان ينظر إليها، فاغراً فاه، واسع العينين. تأثَّر بالجدّيّة التي كانت تصف بها كلَّ مرض، فأخَذَ دفتر ملاحظاتٍ وقلماً، وشرع يُدوِّنُ ما كانت تقوله. يقاطعُها أحياناً ليطرحَ عليها سؤالاً: «تلك البُقع، أتسيلُ أم يابسة؟» كان متأثِّراً بحماس تلك المرأة من أجل الطِّبِّ، وبما تُبديه من رغبة في فهم آلة الجسم الخارقة.

«عادةً، لا أمنحُ نصائحَ أو أدويةً إن لم أفحص المريضات بنفسي. لكن تلك النساء لن يسمحن أبداً بأن يفحصهُنَّ رجلٌ، بله أن يكون الرجلُ أجنبيّاً». أخبرها أنَّ تاجراً ثريّاً طلبه، ذات يوم، من أجل زوجته التي كانت تعاني من نزيف حادّ. قادَهُ بوّابٌ رَثُّ الثياب داخل البيت، واضطرَّ دراغان إلى أن يسألَ المريضةَ من خلف ستار غليظ. ماتت المرأةُ في اليوم الموالي، وقد فرغتْ من دمائها.

نهضَ دراغان وأخذ كتابين كبيرين من مكتبته. «رسوم التشريح باللغة الهنغارية، أنا آسف. سأحاول أن أعثر لكِ عليها بالفرنسية، لكن في انتظار ذلك، يمكنك أن تتعرَّفي إلى آلية الجسم». وكان الكتاب الآخر يتعلّق بالطِّبِّ الكولونيالي، وكانت توضِّحُهُ صورٌ بالأبيض والأسود. في أثناء طريق العودة، تصفَّحتْ عائشة المجلَّد الكبيرَ، وتوقَّفَتْ عند صورةٍ عنوانُها: «حَصْرُ عدوى التيفوئيد في المغرب، 1944». كان رجال بجلابيب يصطفّون بعضهم خلف بعض، وقد أحاط بهم سحابُ غبار أسود، وأفلحَ المصوِّرُ في أن يلتقط على وجوههم مزيجاً من الرعب والدهشة.

ركنتْ ماتيلد السيارةَ أمام البريد. فتحت البابَ ومدَّتْ ساقيها، وقد وضعتْ قدمَيها فوق الرصيف. لم يسبق لها أبداً أن عرفتْ شهر سبتمبر بكلِّ ذلك الحَرِّ. أخرجتْ من حقيبتها ورقةً وقلماً وشرعت تُتِمُّ كتابةَ رسالة كانت بدأَتْها ذلك الصباح نفسه. كتبتْ في الفقرة الأولى إنه لا ينبغي تصديق كلّ ما تقولُهُ الجرائدُ. وإنَّ ما حدث في بوتيجون بشعٌ، أكيد، لكن الأمر، في الوقت نفسه، شديد التعقيد.

«عزيزتي إيرين، هل سافرتِ في العطلة؟ أظنُّ ذلك. لكن قد أكونُ مخطئةً، ولعلَّكِ في الفوج، قرب إحدى تلك البحيرات حيث كنّا نسبح ونحن طفلتان. لا أزالُ أحتفظُ، فوق طرف لساني، بطعم الحلوى بالعنب البرّي التي كانت تقدِّمُها تلك المرأةُ الطويلةُ صاحبةُ الوجه المليء بالثآليل. بقي ذلك المذاق عالقاً بذاكرتي وأفكِّرُ فيه عندما أكونُ حزينةً، لأواسيَ نفسي».

انتعلتْ حذاءيها من جديد وصعدت درجات السلّم المؤدِّي إلى مكتب البريد. وقفت في الصَّفِّ أمام شبّاكٍ تقومُ عليه امرأةٌ باسمةٌ. «ميلوز، فرنسا»، شرحتْ ماتيلد. ثم اتّخذتْ سبيلها داخل القاعة المركزية التي تؤوي مئات صناديق البريد. تنتشرُ فوق الجدران العالية الأبوابُ النحاسيةُ الصغيرةُ التي تحمل كلُّ واحدة منها رقماً، وتوقَّفتْ

عند الصندوق رقم 25، وكانت قد نبَّهتْ أميناً إلى أنه نفس رقم سنة ميلادها، لكنه لم يكن يحفل بمثل تلك المصادفات. أولجَتْ في المغلاق المفتاحَ الصغير الذي تحتفظ به في جيبها، لكنه لم يَدُرْ. أخرجَتْهُ، وأولَجَتْهُ من جديد لكن لم يحدث شيء ولم ينفتح الصندوق. كرَّرت ماتيلد الحركات نفسها بعنف متصاعد، وبعصبية أثارت انتباهَ المستخدِمين الآخرين. ربما تسعى إلى سرقة رسائل تبعثُها عشيقةٌ لزوجها؟ أو قد يكون صندوقَ رسائل عشيقها الذي تريد أن تنتقم منه؟ اقتربَ منها موظَّفٌ على مهل، مثل حارسِ حديقةِ حيوان مُكَلَّفٍ بإرجاع حيوان متوحِّشٍ إلى قفصه. كان شابّاً صغيراً، أشقر الشعر، بارز الفكَّين. بدا لماتيلد دميماً وسخيفاً برجليه البالغتي الطول وذلك المظهر الجِدِّيِّ الذي اتَّخذَهُ ليخاطبها. لا يزال طفلاً، قالت في نفسها، لكنه نظر إليها بقسوة:

«ما الذي يجري سيدتي؟ أيمكنني مساعدتكِ؟». أخرجَت المفتاح بسرعة كادت معها أن تغرس مرفقَها في عين الشّاب الذي كان أصغر منها قامة بكثير. «الباب لا يفتح»، قالت متضايقةً.

أخذ موظَّفُ البريد المفتاحَ من ماتيلد، لكنه اضطر إلى أن يقف على أطراف قدميه ليصل إلى المغلاق. تضايقتْ ماتيلد من تباطؤه. وتكسَّر المفتاحُ في الأخير داخل المغلاق، وكان على ماتيلد أن تنتظر أن ينادي على رئيسه. ستتأخَّرُ في عملها؛ كانت قد وعدَتْ أميناً أن تُسرع في الكتابات من أجل دفع أجور العمّال، وسيغضب زوجُها كثيراً إن لم تكن جاهزةً في الموعد لتقدِّمَ له الغداء. عاد موظَّفُ البريد أخيراً مسلَّحاً بسُلَّمٍ وبمفكِّ البراغي، وشرع يفُكُّ ببالغ الجِدِّ مفاصلَ الصندوق. وقال بصوت اليائس إنه لم يسبق أن واجهَتْهُ «حالة كهذه»، وودَّتْ ماتيلد أن تسحبَ السلَّم من تحت رجليه.

وأخيراً انخلع البابُ فسلَّمَهُ الولدُ لماتيلد. «كيف أعلمُ أن مفتاحك هو مفتاح الصندوق؟ لأنَّكِ إن كنتِ قد أخطأتِ فإنَّ مصاريف الإصلاح ستكون على عاتقكِ». دفعَتْهُ ماتيلد بحركة، وأمسكت كومةَ الرسائل، وتوجَّهت نحو باب الخروج، دون أن تلقي عليه حتى السلام.

في اللحظة التي غشيَها الحَرُّ، وأحَسَّتْ بوطأةِ الشمس الحارقة فوق رأسها، علمتْ بوفاة والدها. برقيةٌ، حرَّرَتْها إيرين باقتضاب شديد، أُرْسِلتْ إليها في اليوم السابق. قلبت الورقةَ، وأعادت قراءة عنوان المظروف، وفحصتْ حروفَ البرقية كأنَّ الأمر ما كان ليكون إلا دعابة. أيمكن أن يكونوا الآن، في هذه اللحظة، على بُعد آلاف الكيلومترات، في بلدها المُذَهَّبِ بلون الخريف، يدفنون أبيها؟ فبينما يشرح الأشقرُ لرؤسائه حادثَ الصندوق رقم 25 المؤسفَ، يحملُ رجالٌ تابوتَ جورج في مقابر ميلوز. تساءلتْ ماتيلد، وهي تقود السيارةَ بانفعال وعدم تصديق، متوجِّهةً إلى المزرعة، كم ستستغرق الديدانُ من وقت لتقضيَ على كِرْشِ والدها الضخمة، وتسُدَّ أنفَ ذلك العملاق، وتغمُرَ تلك الجُثَّةَ وتلتهمها.

*

قال أمين، عندما علمَ بوفاة حَمْوِهِ: «أنتِ تعلمين أنّي كنتُ أحبُّهُ كثيراً»، ولم يكن كاذباً. كان استشعر منذ اللحظة الأولى صداقةً قويّةً إزاء ذلك الرجل الصريح والبهيج، الذي آواهُ في أسرته دون حُكم مسبق ودون تعالٍ أبويٍّ. تزوّجَ أمين وماتيلد في كنيسة القرية الألزاسية حيث وُلِدَ جورج. ولم يعلم أحدٌ بذلك في مكناس، وطلب أمين من زوجته أن تَعِدَهُ بأن تحفظ السِّرَّ. «إنها جريمة. لن

يتفهّموا الأمر». لم يطَّلِعْ أحدٌ على الصُّور الملتقَطَةِ عند خروج العريسَين من باب الكنيسة. طلبَ المصوِّرُ من ماتيلد أن تنزل درجتين لتكون في مستوى قامة زوجها. «وإلّا، قال مفسِّراً، سيكون المشهد سخيفاً بعض الشيء». وعند تنظيم الحفل، رضخ جورج لجميع رغبات ابنته، وكان يدُسُّ في يدها أوراقاً نقديةً سِرّاً من وراء ظهر إيرين التي كانت تتضايق من النفقات غير الضرورية. أما هو فقد كان يفهم الحاجةَ إلى الاستمتاعِ، والتجمُّلِ، ولا ينتقد خِفَّةَ ابنته.

لم يَرَ أمين في حياته أناساً ثملين بذلك الشكل. لم يكن جورج يمشي، بل يتأرجحُ، يتشبَّثُ بأكتاف النساء، ويرقُصُ ليُداريَ دوخَتَهُ. عند منتصف الليل، ارتمى على خَتْنِهِ وطَوَّقَ عنقه بمرفقه، مثلما يُصنَعُ بولد مشاكس. لم يكن جورج واعياً بقوَّتِهِ، واعتقَدَ أمين أنَّهُ يمكن أن يقتله، أن يَدُقَّ عنقَهُ من فرط المحبّة. جَرَّ أميناً نحو عمق القاعة الشديدة الحَرِّ، حيث كان بعض الأزواج يرقصون تحت أكاليل من مصابيح صغيرة. ارتفقا المنضدةَ الخشبيةَ وطلب جورج زجاجتَيْ جعّة دون أن يلتفت إلى أمين الذي كان يُحرِّكُ يديه إشارةً إلى رفضه. كان يشعر أنه بالغَ في السُّكر، بل اضطرَّ إلى التّواري، دقائق من قبل، ليقيءَ خلف الإسطبل. جعلهُ جورج يُكثر الشربَ ليختبر صمودَهُ، وليدفعهُ للكلام. جعله يشربُ لأنَّ تلك كانت الطريقة الوحيدةَ التي يعرف لعقد صداقة، وإقامة رباط ثقة. أراد جورج، مثل الأطفال الذين يقطعون معاصمهم ليُوَثِّقوا عهداً بالدَّم، أن يُغْرِقَ عاطفتَهُ نحو خَتْنِهِ في لتراتٍ من الجعّة. كان أمين يشعر بالغثيان، ولا يتوقف عن التجشُّؤ. بحثَ عن ماتيلد بعينيه لكن العروس كانت مختفية على ما يبدو. أمسك به جورج من كتفه واستطرد معه في أحاديث السكارى. وأشهد على كلامه الحاضرين، وهو يصيح بلهجته الألزاسية القوية:

«اللهُ وحدهُ يعلمُ أني لستُ ضدَّ الأفريقيين ولا ضدَّ المؤمنين من جنسكَ. ثمَّ إني لا أعرفُ شيئاً عن أفريقيا إذا كنت تريد الحقيقة». قهقهَ الرجالُ من حولهما، وقد أرهقهمُ السُّكْرُ، فتدلَّتْ شفاهُهُمْ المُبَلَّلَة. ظلَّ اسمُ تلك القارة يتردَّدُ صداهُ داخل رؤوسهم، يستدعي نساءً عارياتِ الصدور، ورجالاً يسترون عورتهم بالمئزر، ومزارعَ ممتدَّةً إلى أبعد مدى تدركُهُ العينُ، وتحيطُ بها نباتاتٌ استوائيةٌ. عندما يسمعون «أفريقيا» يتخيَّلون مكاناً يمكنهم أن يصيروا فيه سادةَ العالم إن نجوا من الأمراض والأوبئة. «أفريقيا»، فتنبعثُ فوضى الصور التي تُخبر عن استيهاماتهم أكثر ممّا تخبر عن تلك القارة. «لا أعلمُ كيف تُعامَلُ النساءُ في بلدك، لكنَّ صغيرتي هذه، قال جورج، ليست سهلة المِراس، أليس كذلك؟» وضرب بمرفقه الشيخَ المتهالكَ إلى جانبه، كأنه يسألُهُ أن يشهد بوقاحة ماتيلد. أدار الرجلُ عينيه الذاهلتين نحو أمين ولم يقل أيَّ شيء. «أنا كنتُ كثير التسامح في تربيتها، قال جورج الذي بدأ يجد صعوبة في النطق كأنما لسانه قد انتفخ. كانت الصغيرة قد فقدتْ أُمَّها، فماذا تريدني أن أفعل؟ استسلمتُ للحنان. تركتُها تجري على ضفاف الراين، وكثيراً ما قُبِضَ عليها وحُملتْ إليَّ، إمّا لأنها سرقت الكرز وإمّا لأنها سبحتْ عاريةً في النهر». لم ينتبه جورج إلى احمرار أمين ونفاد صبره. «هكذا، لم أجد الشجاعة قط لتأديبها بالضرب. وكانت إيرين توبِّخني كثيراً على سلوكي ذاك، غير أنني لم أستطع أن أحيد عنه. لكن أنتَ، لا ينبغي لك أن تتساهل معها. يجب أن تعرف ماتيلد من الذي يُمسكُ بزمام الأمور. أليس كذلك يا بنيّ؟» واصلَ جورج الحديثَ وانتهى به الأمر إلى أن نسيَ أنه يخاطب خِتْنَهُ. نشأتْ بينهما رفقةٌ رجوليةٌ فاستباح لنفسه أن يحدِّثه عن نهود النساء وأعجازهنَّ، التي واستْهُ عن جميع

أوهامه. ضرب بقبضته على المائدة واقترح بمُجونٍ، أن يذهبوا في زيارة لبيت الدّعارة. ضحكَ جيرانُهُ في المجلس، فتذكَّر أنها ليلة زفاف أمين، وأنَّ الأمر إنما يتعلق هذا المساء بدخْلة ابنته.

كان جورج زيرَ نساءٍ وسكِّيراً، وكافراً ومخادِعاً كبيراً. بيد أنَّ أميناً كان يحبُّ ذلك العملاقَ الذي، كان في أثناء الأمسيات الأولى التي عُيِّنَ فيها الجنديُّ الشّابُّ في القرية، يظل متوارياً في الصالة، يُدخِّنُ غليونه جالساً على أريكته. كان يراقبُ، دون أن ينبس بكلمة، قصةَ الحبِّ الناشئةَ بين ابنته وذلك الأفريقيِّ، ابنته التي علَّمها، عندما كانت صغيرةً، ألّا تثق في الحماقات التي تُكتَبُ في كتب الحكايات. «ليس صحيحاً أن السُّودَ يأكلون الأطفال الشِّرّيرين».

*

كان حزن ماتيلد، في الأيام التالية، لا عزاء له، ولم يسبق لعائشة أن رأتْ أمَّها على تلك الحال. تجهشُ بالبكاء وسط وجبة الطعام، أو تحتدُّ غضباً من إيرين التي لم تُطلعها على حال والدهما. «كان مريضاً منذ شهور. لو أنها أعلمَتْني مبكِّراً، لكان في إمكاني أن أهتمَّ به، أن أودِّعَهُ». وجاءت مِّي لالَّة لتقديم العزاء: «لقد تحرَّرَ الآن. يجب علينا نحن أن نستمرَّ لأننا أحياء».

انصرمتْ أيامٌ على تلك الحال، فنفدَ صبرُ أمين، ولامَها على إهمال المزرعة والطفلَين. «هنا، لا نقضي أيّاماً في التباكي. نودِّعُ موتانا ونواصلُ الحياةَ». وذات صباح، بينما كانت عائشة تشرب حليبها الساخن الحلو، أعلنت ماتيلد قرارها: «يجبُ أن أسافر وإلا سأصابُ بالجنون. يجب أن أذهب لزيارة قبر أبي، وعندما سأعود، سيصير كل شيء على ما يرام».

حدَّثَها أمين، قبل سفرها الذي وافَقَ عليه ودفَعَ ثمنَهُ، عن مشكلٍ يؤرِّقُهُ. «فكّرتُ فيه من جديد عندما مات جورج. زواجنا في الكنيسة لا قيمة له في نظر القانون هنا. سيحصل البلد على استقلاله قريباً، ولا أريد أن تجدي نفسك، إذا ما متُّ، لا حقَّ لكِ لا في الطفلين ولا في المزرعة. عندما سترجعين ينبغي أن نُسَوِيَّ ذلك».

استيقظ أمين، أسبوعَين بعد ذلك، في وسط شهر سبتمبر 1954، رائقَ المزاج، واقترح على عائشة أن ترافقه في جولته، وأن تقطع الحقول إلى جانبه. قال لها: «لا وجود ليوم الأحد بالنسبة إلى ساكن البادية». فاجأتْهُ في البداية قدرةُ ابنته على التحمُّل، وطريقتُها في الجري بين يديه، فتتجاوزه لتصلَ إلى ممرّات أشجار اللوز والاختباء فيها. كان يبدو أنها تعرفُ تلك الأشجار شجرةً شجرةً، تتفادى قدماها الصغيرتان، برشاقة مدهشةٍ، أدغالَ القُرّاص ومستنقعاتِ الوحل الصغيرةَ التي خلّفَتْها أمطارُ الخير في تلك الليلة. كانت عائشة تتلفَّتُ نحوه، أحياناً، كأنّما أتعبَها انتظارُهُ، وتتفحَّصُهُ بعينَيها المستديرتَين في اندهاش. تصوَّرَ، لثانيةٍ أو لدقيقةٍ، فكرةً مجنونةً ثم تراجع عنها. «المرأةُ، قال في نفسه، لا تستطيعُ أن تُديرَ مزرعةً مثل هذه». كان يحتفظ لها بطموحاتٍ أخرى، أن تصير من سكّان المدينة، امرأة متحضِّرة، بل طبيبة أو حتى محامية. سارا على جانب حقل، ولمّا شاهد البدويّون الطفلةَ أطلقوا صيحاتٍ عاليةً، وشرعوا يُلوِّحون بأذرعهم، خوفاً من أن يبتلع لسانُ الحصّادةِ الفتاةَ الصغيرةَ، فقد حدث ذلك من قبل، وليس في وسعهم أن يغامروا بأن يتكرر الأمرُ مع ابنة رَبِّ المزرعة. التحق أبوها بالعمّال واشتبكوا في

نقاشٍ بدا لعائشة بلا نهاية. تمدَّدَتْ فوق الأرض المبلَّلة وأبصرَتْ، في السماء المثقلة بالغيوم، سرباً غريباً من الطيور. وتساءلتْ إن لم تكن رُسُلاً آتيةً من الألزاس لتُبَشِّرَ بعودة أمِّها.

وصل عاشور، الذي يعمل مع أبيها منذ اليوم الأول، ممتطياً حصاناً رماديَّ اللون، ملطَّخ الذيل بالوحل. وأشار أمين لابنته. «تعاليْ إلى هنا»، قال لها. أوقفوا محرِّكَ الحصّادة، والتحقتْ عائشة بجماعة الرجال، بخطى متوجِّسة. امتطى أمين ظهر الحصان وابتسم لها. «هيّا!» رفضتْ عائشة بصوتها الرقيق، متعلِّلةً بأنها تفضِّلُ العَدْوَ، وأنها ستظلُّ قريبةً منه، لكنه لم يُنصتْ لكلامها. ظنَّ أنها تريد أن تلعب، مثلما كان يلعبُ في طفولته؛ ألعاباً عنيفةً، يتحاربون فيها، وينصبون المصايدَ، ويقولون عكس ما يعتقدون. هَمَزَ بكعبه عجيزة الحصان الذي انطلقَ، وانحنى فوق الدابة، واضعاً خدَّهُ على عنق الحصان الذي انفرج منخراهُ. شرع يطوفُ بسرعة حول الطفلة، مثيراً النَّقْعَ، وحاجباً الشمسَ. كان يمثِّلُ دورَ السلطان، وزعيم القبيلة، والصليبيين، وقريباً سيعمدُ، منتصِراً، إلى اختطاف تلك الطفلة، التي ليست أكبر من معزاةٍ. وأمسكَ عائشةَ، بيدٍ واثقةٍ، من تحت ذراعها، ورفعَها مثلما تَرفعُ ماتيلد القططَ من جلدة عنقها. أجلسَها أمامه فوق الصهوة، وأطلق صيحةَ كاوبويْ أو هنديٍّ، صيحة خالَها مسلِّيةً لكنها أرعبت ابنته. أخذت تبكي وانتفض جسمُها النحيفُ من النحيب، فاضطرَّ أمين إلى أن يضمَّها إليه بقوة. مرَّرَ يدهُ فوق رأس ابنته، وقال لها: «لا تخافي. اهدئي!» لكن الطفلة تعلَّقتْ بعنفٍ بعُرْف الحصان، ونظرتْ إلى الأسفل فأصابها إحساسٌ بالدُّوار. أحسَّ أمين عندئذ بسائل دافئ يسيلُ على فخذه. رفع بعنف جسم الطفلة التي لم تتوقف عن الصراخ ونظر إلى أسفل سرواله

المُبلَّل. «لا أصدِّق!» صاح، وهو يرفع عائشةَ بأطراف أصابعه، كأنه يشمئزُّ منها، كأنما تضايقه الرائحةُ والجُبْنُ الصادران عن ابنته. أوقفَ الحصانَ بشدٍّ لجامه وترجَّلَ. وعندما تقابلَ الرجلُ وابنتُهُ ظلّا مُطْرِقَيْن، غاضّين من بصرهما. حكَّ الحصانُ الأرضَ بحافره فارتمتْ عائشة، مرعوبةً، على ساق والدها. «لا ينبغي أن تكوني جبانة هكذا». أخذ بذراع الصغيرة ونظر إلى البول يسيلُ من على صهوة الحصان.

وبينما كانا يسيران متوجِّهين إلى البيت، تفصل بينهما مسافة، قال أمين في نفسه إنَّ مكانَ عائشة ليس هنا، وهو لا يعرف كيف يتعامل معها. حاول، منذ سافرتْ ماتيلد إلى أوروبا، أن يتقرَّبَ من ابنته، أن يكون أباً محبّاً وصالحاً. غير أنه كان عصبيّاً، وغير موفَّقٍ في مسعاه، فتلك المرأةُ الصغيرةُ كانت تُربِكُهُ. تحتاج ابنتُهُ إلى حضورٍ أنثويٍّ، إلى شخص يفهمها، وليس إلى حنان طامو فحسب، تلك البلهاء الوسخة. كان قد فاجأَ الخادمةَ في المطبخ، تصبُّ الشايَ من الإبريق مباشرة في فمها، وَوَدَّ لو يصفعها. عليه أن يُجَنِّبَ ابنتَهُ تلك المؤثِّراتِ المسيئة، ثم إنه لم يعد قادراً على الاضطلاع وحده بذلك الذهاب والإياب اليوميّ بين المزرعة والمدرسة.

في مساء ذلك اليوم، دخل إلى حجرة عائشة، وجلس فوق السرير الصغير لينظر إليها جالسةً إلى مكتبها.

«ماذا ترسمين؟» سألها دون أن يتحرَّكَ من حاشية السرير. لم ترفع عائشة عينيها نحوه، وقالت فحسب: «أرسمُ من أجل ماما». ابتسم لها أمين، وهَمَّ مراراً بالكلام، ثم تراجع. نهضَ وفتحَ أدراجَ الدولاب حيث تضعُ ماتيلد الملابس. أخرجَ سروالاً قصيراً من تلك

السراويل الصوفية التي حاكَتْها زوجتُهُ، وبدا له ذلك اللباسُ فادحَ الصِّغَرِ. جمَعَ تلك الملابسَ في كومةٍ ودسَّها في كيسٍ كبير بُنِّيٍّ. «ستذهبين للنوم في بيت جدّتكِ في برّيمة بضعةَ أيّامٍ. أعتقد أن الأمر سيكون أفضل بالنسبة إليكِ وسيمكنُكِ الذهابُ بيُسرٍ إلى المدرسة». طَوَتْ عائشة رسمَها نصفين، ببطء، والتقطت الدمية الملقاةَ فوق السرير. سارتْ خلف والدها في المَمَرِّ وذهبت لتضعَ قبلةً على جبين أخيها النّائمِ ملتصقاً ببطن طامو.

كانت تلك المرّة الأولى التي جلسا فيها معاً وحدهما في عزِّ الليل، وكانت تلك الخلوةُ تثير أعصابَهما. أدار أمين، في السيارة، وجهه أحياناً نحو ابنته وابتسم لها كأنه يقول «ستسير الأمور بخير»، «لا تقلقي». ردَّتْ عليه عائشة بابتسامة، ثم تشجَّعت بفضل هدوء الليل، وطلبتْ منه: «أخبرني عن الحرب». كان صوتُها وهي تقول ذلك صوتَ إنسان بالغٍ، صوتاً واثقاً، أكثر رزانةً من كل يوم. تفاجأ أمين. قال، وعيناه لا تحيدان عن الطريق: «هل سبق لكِ أن انتبهتِ إلى هذه النَّدَبَةِ؟» ووضع إصبعَهُ خلف أذنه اليمنى وأنزلها ببطء نحو كتفه. لم يكن الظلامُ يسمح بتمييز بروز النَّدَبة الأسمر، لكن عائشة كانت تحفظ عن ظهر قلب الرّسمَ الغريب فوق بشرة أبيها. هَزَّتْ رأسَها، وقد استثار حماسَها قربُ انجلاء ذلك اللغز أخيراً. « أثناء الحرب، قُبيل لقائي بأمِّكِ (قهقهتْ عائشة)، قضيتُ بضعة شهور في معسكر حيث كان يأسِرُنا الألمانُ. كان يوجد هناك الكثير من الجنود من أمثالي، مغاربة من الجيش الكولونيالي. كانت المعاملةُ لا بأس بها بالنسبة إلى الأسرى. لم تكن وجباتُ الطعام جيّدةً ولا كافيةً ففقدتُ الكثيرَ من وزني. لكننا لم نكن نتعرَّضُ للضرب، ولا نُجبَرُ على العمل. في الحقيقة، كان المَلَلُ أشدَّ ما نعانيه في تلك الفترة.

وذات يوم، نادى ضابطٌ ألمانيٌّ على الأسرى، وسألَ إن كان بيننا حلّاقٌ، ودون تفكير مني، ولا أعرف لِمَ فعلتُ ذلك حتى اليوم، تجاوزتُ الحشد بسرعة، وانتصبْتُ أمامَ الضابط وقلتُ: «أنا سيدي، كنتُ حلّاقاً في قريتي». أخذ الرجالُ الآخرون، الذين يعرفونني، يضحكون. وقالوا لي: «ألقيتَ بنفسكَ في ورطة». لكن الضابط صدَّقني وأمرَ بنصب طاولة وكرسيٍّ وسط المعسكر. منحوني مِجَزّاً قديماً، ومقصّاً، ومادة لزجةً يتهافتُ عليها الألمانُ لإلصاق شعرهم». مرَّرَ أمين يده على رأسه محاكياً حركة الضباط الألمان. «جلس ضابطي الأول، وعندئذ يا صغيرتي، بدأت المشاكل. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن طريقة استخدام ذلك المِجَزّ، وعندما وضعتُه فوق قَفا الألمانيِّ انفلتَ مني، فبرزَتْ حفرةٌ كبيرةٌ وسطَ رأس العسكريِّ. كنتُ أعرقُ، وقلتُ في نفسي من الأفضل أن أقصَّ الشعر كلَّهُ من جذوره، غير أن ذلك المِجَزَّ الملعون لا يفعل إلّا ما يحلو له. وبعد برهة، اضطرب الرجلُ، مرَّرَ يدهُ فوق رأسه وكان باديَ الغضب. كان يتكلم بالألمانية ولم أكن أفهم شيئاً ممّا يقول. دفعني أخيراً بعنف، وأخذ مرآةً صغيرةً، موضوعة فوق الطاولة. وعندما اكتشف انعكاسَ صورته عليها، شرع يصيحُ، وفهمتُ أنه يشتمني على الرغم من جهلي الألمانية، وأنه يرميني بأقذع النعوت. أمر بإحضار الرجل الذي شغَّلني، وطلب مني هذا الأخير أن أقدِّمَ له توضيحاً لما جرى. أتعرفين ماذا كان جوابي؟ رفعتُ ذراعيَّ إلى السماء، وابتسمتُ وقلتُ: «قَصَّةُ أفريقيا، سيدي!»».

أخذ أمين يضحكُ، وضربَ بيده على المقود ليؤكِّدَ حماسَهُ، لكن عائشة لم تكن تضحك. لم تفهم المغزى الكوميدي للحكاية. «لكن ما خبر هذه النَّدَبة إذاً؟» فكَّرَ أمين في أنه لا يستطيع أن يُخبر

الصغيرةَ بالحقيقة. فالجالسةُ إلى جانبه فتاةٌ صغيرةٌ وليس رفيقاً من رفاق الزنزانة. كيف يحكي لها الهروبَ، ووقْعَ الأسلاك الشائكة على عنقه، ولحمَهُ الذي علق بها ولكنه لم يحسَّ بالتَّمَزُّق لأنَّ الخوفَ كان أشدَّ من الألم الجسدي؟ ينبغي أن يحتفظ بتلك الحكاية لفرصة لاحقة، قال في نفسه. «هكذا إذاً»، قال بصوتٍ رقيق لم تعهدْهُ منه عائشة. كانت أضواءُ المدينة قد بدأتْ تلوحُ، وصار في إمكانها أن تُميّزَ وجهَ والدها والبَثْرَةَ على عنقه. «عندما هربتُ من المعسكر، مشيتُ مدة طويلةً في الغابة السوداء. كان الجو بها شديد البرودة ولم أجد بها أحداً. وذات ليلة، بينما كنتُ نائماً، سمعتُ صوتاً، نوعاً من الزئير، صيحة حيوان متوحِّش. وعندما فتحتُ عينيَّ، وجدتُني أمام أسدٍ من البنغال. ارتمى عليَّ ومزَّقَ عنقي بمخلبه الحادِّ». أطلقتْ عائشة صيحة فرح صغيرة. «لحسن حظّي، كنتُ قد احتفظتُ ببندقيتي إلى جانبي، فقضيتُ عليه». ابتسمتْ عائشة ووَدَّتْ أن تلمسَ الجرحَ الذي يمتدُّ من جذور الشعر إلى التَّرْقُوَة. كادت أن تنسى الغايةَ من ذلك السفر الليليِّ وتفاجأتْ عندما ركنَ أبوها السيارة على بعد أمتار قليلة من بيت مِّي لالَّة. كان أمين يحمل الكيسَ البنيَّ بِيَدٍ، وبيده الأخرى يمسكُ بمعصم عائشة. في البيت، أخذت الطفلةُ تصرخُ وتتوسَّلُ إلى أبيها ألّا يتركها هناك. دفعت النساءُ أميناً إلى الخارج، ولاطَفْنَ الطفلةَ. ثم سئمتْ مِّي لالَّة من مشهد عائشة وهي تتلوّى فوق الأرض، وتُلقي بالوسائد، وتدفعُ بحنقٍ خبيثٍ طبقَ الحلوى الذي يُقَدَّمُ إليها. «الفرنسيةُ الصغيرةُ عصبيّةٌ»، استنتجت العجوز.

وضعوا الطفلةَ في حجرة ملاصقة لحجرة سلمى، ووافقتْ ياسمين أن تنام تلك الليلة الأولى على الأرض بجانب سريرها.

وعلى الرغم من حضور الخادمة، التي كان من المفترض أن تُطمئنَها أنفاسُها، فقد وجدت عائشة صعوبةً في النوم. كان يبدو لها ذلك البيتُ مثل بيت الخنزير الصغير، الذي يُصِرُّ على بناء مأوى من تبن، ينجح الذئبُ دائماً في أن يُطَيِّرَهُ بنفخةٍ منه.

وفي اليوم الموالي، داخل الفصل، وبينما كانت الأخت ماري-سولانج تكتب أرقاماً على السبورة، قالت عائشة في نفسها: «أين هي أمي ومتى ستعود؟» تساءلت إن لم يكذبوا عليها، وإن لم يكن ذلك السفر واحداً من تلك الأسفار التي لا يعود منها المسافرون، مثل السفر الذي قام به زوجُ الأرملة ميرسييه. همستْ مونيت، جارتُها في المنضدة، في أذنها فضربت المعلِّمةُ بالعصا على جانب المكتب. كانت مونيت طفلةً حيويةً وثرثارةً تُرهِبُ جميعَ التلميذات بقامتها الطويلة. رَبَّتْ عاطفةً تجاه عائشة، لم تجد هذه الأخيرةُ تفسيراً لها. كانت مونيت لا تكلُّ من الكلام، على كراسي الكنيسة الصغيرة، وفي ساحة الفسحة، وفي مطعم المدرسة، وفي أثناء الاختبارات، وفي حجرة الدرس. كانت تُغيظُ الكبارَ. وذات يوم، صاحت الأمُّ الرئيسةُ: «تباً!»، واحتقنَ خدَّاها المتغضِّنان حياءً. لم تكن عائشة تستطيع أن تفصل في حديث مونيت بين الحقيقة والخيال. هل كان لمونيت شقيقةٌ ممثِّلة في فرنسا؟ هل سافرتْ حقّاً إلى أميركا، ورأتْ حُمُراً وحشيةً في حديقة الحيوان في باريس، وقبَّلَتْ أحدَ أقربائها على فمه؟ هل حقّاً أبوها، إيميل بارت، يعملُ طيّاراً؟ كانت مونيت تصفهُ بقدر كبير من التفاصيل والحماس حتى أنَّ عائشة انتهتْ إلى الاقتناع بوجود ذلك العبقريِّ المنتمي إلى نادي الطيران. فسَّرَتْ لها مونيت الفرقَ بين T-33، وبايبر كوب (Piper Cub)، وفامباير (Vampire)، ووصفت لها بتفصيل أشكالَ الطيران الخطيرة التي كان يُتقِنُها والدُها.

كانت تقول لها: «سآخُذُكِ معي يوماً إلى هناك، وسترين بعينيكِ». صار ذلك الوعدُ هاجساً مُقيماً بالنسبة إلى عائشة. لم يعد يشغلُ عقلَها سوى فكرتَين: قضاء عشية في نادي الطيران وعودة والدتها. تخيَّلَتْ أنَّ في إمكان والد صديقتها أن يذهب على متن إحدى طائراته ليُحضِرَ أُمَّها. لو طلبتْ منه الأمرَ بلطفٍ، لو توسَّلَتْ إليه، لا بدَّ أنه سيقبل أن يُؤدِّيَ لها ذلك الجميل.

كانت مونيت ترسُمُ في كتاب قُدّاسها. تَخُطُّ شواربَ سوداءَ وغليظةً للشخصيات المرسومة في الصُّور المقدَّسَة. تُضْحِكُ عائشةَ التي لم تكن تتصوَّرُ، في الشهور الأولى من صداقتهما، أن تتجرَّأَ تلميذةٌ على السُّلطة كلَّ تلك الجرأة. كانت عائشة تراقبُ حماقات صديقتها، فاغرةً فمَها، رافعةً حاجبيها، مُفْعَمَةً بالإعجاب. توسَّلتْ إليها الأخواتُ، في مرّاتٍ عديدةٍ، أنْ تشِيَ بصديقتها. لم تعترف عائشة قطُّ، وأبانتْ عن وفائها. وذات يوم، سحبَتْها مونيت إلى مراحيض الإقامة الداخليّة. كان الجوُّ بها شديد البرودة بحيث تُفضِّلُ الفتياتُ الصغيراتُ الإمساكَ عن قضاء حاجتهنَّ مدة ساعاتٍ طويلة، حتى لا يضطررن إلى خلع بعض ملابسهنَّ وأن تصطكَّ أسنانُهُنَّ، جالساتٍ القُرْفُصاء فوق الحفرة. تلفَّتَتْ مونيت يميناً وشمالاً. «راقبي البابَ»، أمرتْ عائشةَ التي كان قلبُها يكاد ينفجر. كانت تقول: «أسرعي»، «هل ستفرغين قريباً؟»، «لكن، ما الذي تصنعينه، سنواجه مشاكل!» أخرجت مونيت الطويلةُ من وزرتها قنّينةً من زجاج. ورفعَتْ تنُّورَتَها الصوفيةَ ممسِكَةً حاشيتَها بين أسنانها. وأنزلَتْ تُبَّانَها وألصَقَتْ به القنّينَةَ الصغيرةَ وتبوَّلَتْ فيها. انزلقَ السائلُ الدافئُ من فم القنّينة إلى غاية قعرها الزجاجيِّ، فأخذتْ عائشة ترتعدُ، من الخوف والإثارة. ثم شعرتْ أنَّ رجليها لم تعودا قادرتين على حملها. كادتْ

أن ترجع القهقرى خطواتٍ، استعداداً للهروب لِظَنِّها أنها وقعتْ في فَخٍّ وأنَّ مونيت ستُجبِرُها على شرب بولها. لا بدَّ أنها كانت شديدة السذاجة، فقريباً ستنادي مونيت على فتيات الفصل الأخريات، وسينقضضن على عائشة، ويُلصِقْنَ فَمَ القنّينة بأسنانها، ويَصِحْنَ: «اشربي! اشربي!». لكن مونيت أعادتْ رفع تُبّانها، وسَوَّتْ تنُّورتَها، وأمسكتْ، بيدها المبلَّلةِ، يدَ عائشة. «اتبعيني»، قالت لها، وشرعتا تعدُوان في مَمَرٍّ الحصى، في اتجاه الكنيسة الصغيرة. كُلِّفَتْ عائشة بالحراسة أمام الباب، لكنها كانت تلتفتُ خلفها كلَّ دقيقة لترى ما كانت تفعلُهُ مونيت في الداخل. وهكذا شاهدتْ صديقتَها تصُبُّ محتوى القنّينة في جرن الماء المقدَّس. ومنذ ذلك اليوم، صارتْ عائشة لا تستطيعُ أن تمتنع عن الارتعاش كلّما رأتْ أصابعَ، هَرِمةً أو طفوليةً، تنغمسُ في الطّاس وترسم علامةَ الصليب.

مكتبة
t.me/t_pdf

«كم هو شهرٌ؟» سألتْ عائشة مِّي لالَّة التي ضمَّتْها إلى جسدها الضّامر. «ماما سترجعُ»، أقسمت العجوزُ. لم تكن عائشة تحبُّ رائحةَ جدَّتها، والخصلاتِ البرتقاليةَ الكبيرةَ المُنْفَلِتَةَ من وشاحها، والحنّاءَ التي كانت تدهن بها أَخْمَصَيْ قدميها. ثم، توجد يداها الخشنتان، الغليظتان، اللتان لا تصلحان للمداعبة. اليدان اللتان تآكَلَتْ أظفارُهما بمياه الغسيل، وغطَّت بشرَتَهما النَّدَباتُ الموروثةُ من المعارك المنزلية. هنا أثرُ احتراقٍ، وهناكَ جرحٌ يعود ليوم عيد حيث نزفتْ في المطبخ الخلفيِّ. وكانت عائشة، على الرغم من كلِّ ذلك الاشمئزاز، إنما تلجأ إلى حجرة العجوز، عندما يستبدُّ بها الخوفُ. وكانت مِّي لالَّة تضحكُ من طبع حفيدتها، وتنسبُ تلك العصبيةَ إلى أصولها الأوروبية. عندما ترتفع الأصواتُ من عشرات مساجد المدينة، تأخذ عائشة في الارتعاش. وكان المؤذِّنون، عند نهاية الأذان، ينفخون في مزامير هائلة يُرْهِبُ الطفلةَ صوتُها الأجوفُ. كانت قد رأتْ في كتابٍ، أطْلَعَتْها عليه إحدى الأخوات في المدرسة، المَلَكَ جبريل، يمسكُ في يده آلةً محاطَةً بالذّهب. يوقِظُ الموتى من أجل يوم القيامة.

وذات مساء، بينما كانت عائشة تُنجِزُ واجباتها مع سلمى،

سمعتْ اصطفاقَ الأبواب، وأطلقَ عمرُ صرخةً كبيرة. تخلَّت الفتاتان عن دفاترهما وأطَلَّتا من الدَّرابزين لتُراقبا الفِناءَ. كانت مِّي لالَّة تقفُ أسفلَ شجرة الموز، وتُهدِّدُ ابنَها بالعقاب، بصوتٍ خفيض، وبقسوةٍ لم تَعْهَدها فيها عائشة. اقتربتْ من الباب الخارجيِّ وتوسَّلَ إليها ابنُها. «لا أستطيعُ أن أطردهم الآن! يتعلَّقُ الأمرُ بمستقبل البلاد، يا أمي». قبَّلَ كتف والدته، وأخذَ بالقوة يَدَها التي كانت تمنعُهُ منها، وشكرها.

ارتقت العجوزُ درجاتِ السُّلَّم، وفيها الشتائمُ والمرارةُ. سيقتُلُها أبناؤها! ما الذي اقترَفَتْهُ في حقِّ الله، وأيُّ جرائم لتستحقَّ هذين الابنين في بيتها؟ جليل يملكُهُ الجِنُّ، وعمر لا يفتأ يَجُرُّ عليها المشاكل. كان، قبل الحرب، تلميذاً في ثانويةٍ بالمدينة الجديدة حيث تمكَّنَ قدُّور من أن يُسَجِّلَهُ بفضل واسطة صديقٍ أوروبيٍّ. وبعد أن مات أبوهُ، وغابَ أخوهُ في ساحة الحرب، لم يعد عمرُ يجد من يحاسبُهُ على أفعاله. عاد مراراً إلى برّيمة دامي الوجه، منتفخ الشفتين. يحبُّ المشاجرةَ ويُخفي سكّيناً في جيبه. إنَّ ولداً دون أبٍ إنما هو خطرٌ عموميٌّ، كانت تقول مِّي لالَّة لنفسها. كان أخفى عن أُمِّهِ، مدَّةَ أسابيع عديدة، كونَهُ قد طُرِدَ من الثانوية، ثم علمتْ في الأخير من جارةٍ أنَّ عمر وصلَ إلى الفصل متأبِّطاً جريدةً، وهو يصيح في ظَفَرٍ: «سقطتْ باريس في أيدي الألمان! هتلر، هذا رجلٌ قويٌّ!» وكانت مِّي لالَّة أقسمتْ حينئذ أن تُخبر أميناً بكلِّ شيء عند عودته من الحرب.

كان عمر لا يَقِلُّ وسامةً عن شقيقه الأكبر، لكنه كان ذا مظهر غريب، بارز عظام الوجه، عالي الوجنتين، رقيق الشفتين، كَثَّ الشعر أسودَهُ. وكان، على الخصوص، يطولُهُ كثيراً، ويصطنع دوماً

تعبيراً شديد الجِدِّ والعداء، بحيث يُحسَبُ في غالب الأحيان أكبر من عمره الحقيقي. يضع نظّارة منذ سِنِّ الثانية عشرة، لكنهما لم تكونا ناجعتين على الرغم من شدة سمك الزجاج، فيُضفي عليه قِصَرُ النَّظر مظهر امرئ تائهٍ على وشك أن يمدَّ يديه طالباً العونَ. وكانت تلك العصبيةُ تُفْزِعُ عائشةَ، كأنما تقتربُ من حيوان جائعٍ أو ضُرِبَ للتّوِّ.

وما كان عمر ليعترف في العلن بأنه، في سنوات الحرب، بارَكَ غيابَ شقيقه الأكبر. وكثيراً ما رأى في الحلم جسدَ أمين المتعفِّنَ، سحَقَتْهُ قذيفةٌ، ينتن في قعر خندق. لم يكن يعرف عن الحرب إلّا ما أخبرهُ به والدُهُ. الغاز، والحفر المليئة بالوحل والفئران، ويجهلُ أن القتال لم يعد على ذلك النحو. نجا أمين من الموت. بل عاد من الحرب بطلاً، تُثقِلُ النّياشينُ صدرَهُ، ولا يفتُرُ فمُهُ عن سرد القصص الخارقة. في عام 1940 وقع أمين في الأسر، وكان على عمر أن يتظاهر بالتفجُّع واليأس. وفي عام 1943، عاد من الحرب، فكان عليه أن يمثِّلَ موقف الارتياح لتلك العودة، ثم أن يؤدِّيَ دور الإعجاب عندما قرَّرَ شقيقُهُ أن يرجع إلى الحرب متطوِّعاً. كم مرة اضطر عمر إلى أن يتحمَّلَ الإنصاتَ إلى حكي إنجازات أخيه البطولية، والهروب من المعسكر، والفرار عبر الحقول المتجمِّدة حيث أخفاهُ بدويٌّ مسكينٌ مدَّعياً أنه عاملٌ لديه؟ كم مرة كان عليه أن يصطنع الضحكَ عندما كان أمين يحاكي بالحركات سفرَهُ داخل عربة فحم ولقاءَهُ بمومسٍ آوَتْهُ؟ كان عمر يبتسمُ عندما ينبري شقيقُهُ للتمثيل، ويضربُ على كتفه قائلاً: «إنه من أسرة بلحاج فعلاً، هذا بلحاج حقيقي!» لكنه كان يموتُ من الحسد وهو يرى الفتيات تتدلّى شفاهُهُنَّ، ويُخرجن ألسنتهنّ قليلاً، ويتضاحكن، ويودَدْنَ لو يُعجَب بهنَّ بطلُ الحرب.

كان عمر يكره شقيقَهُ كراهيته لفرنسا. وكانت الحربُ انتقامَهُ، وفترةَ نعيم. بنى الكثير من الآمال على ذلك القتال، واعتقد أنه سيخرج منه حرّاً مرَّتين. سيموتُ شقيقُهُ وتنهزم فرنسا. وفي عام 1940، إثر الاستسلام، بدأ عمر يُظهر، بتلذّذ، احتقارَهُ لكلِّ واحد تذلَّلَ أمام الفرنسيين. كان يجد متعةً في الاصطدام بهم، ودفعهم عندما يقفون في الصف في المتاجر، والبصق على أحذية السيّدات. وكان يسبُّ، في المدينة الأوروبية، الخَدَمَ، والحرّاسَ، والبستانيين الذين يقدِّمون، مطأطئي الرؤوس، وثائقَ العمل لرجال الشرطة الفرنسيين، الذين كانوا يُهدِّدونهم: «إذا انتهيتَ من العمل، تعود من حيث أتيتَ: أفهمتَ؟». كان يدعو إلى التمرُّد، ويشيرُ بإصبعه إلى اللافتات المنصوبة في أسفل العمارات، تُحَرِّمُ المصاعدَ والسباحةَ على الأهالي.

كان عمر يلعن تلك المدينة، وذلك المجتمع الفاسدَ والمحافظ، وأولئك المعمِّرين والجنودَ، وأولئك الفلاحين وتلاميذ الثانويات الواثقين بأنهم يعيشون في الفردوس. كان الظمأُ إلى الحياة لا ينفصل، عند عمر، عن الرغبة في التدمير: تدمير الأكاذيب، وتكسير الصُّور، وطحن اللغةِ، وكلِّ داخِلٍ عَفِنٍ لاستنباتِ نظامٍ جديد يمكنه أن يكون أحدَ أسياده. في عام 1942، في أثناء «عام البُونْ»[1]، اضطرَّ عمر للاعتماد على نفسه والتصرّف إزاء الخصاص في التموين وتقنينه. فبينما كان أمين في الأَسْرِ، كان هو مجبَراً، على مضضٍ،

---

(1) عام البُونْ، من الكلمة الفرنسية Bon، وتعني القسيمة. وهي الورقة التي تُخوِّل لحاملها الحصول على مواد بعينها محدَّدة في الورقة، خصوصاً الدقيق والزيت والسكّر والأرز... إلخ، بسبب الأزمة والمجاعة التي سادت البلاد. (المترجم)

على أن ينخرطَ في ذلك الصراع الوضيع. يعلم أنَّ الفرنسيين لهم الحقُّ في أن يحصلوا على ضِعْفَيْ ما يأخذه المغاربة. قيل إنهم لا يمنحون الشوكولاتة لسكان البلد الأصليين بذريعة أنَّ ذلك ليس من عاداتهم في الطعام. صنعَ لنفسه معارفَ بين تجّار السوق السوداء، واقترح عليهم أن يساعدهم في تسويق بضاعتهم. لم تكن مِّي لالَّة تسألُ عن مصدر الدجاج الذي يلقي به عمر فوق منضدة المطبخ، ولا عن مصدر السكّر أو البُنّ. كانت تَهُزُّ رأسَها، بل قد تُبْدي أحياناً سخطَها فيُجَنُّ جنونُ ابنها. كان ذلك الجحود يقتُلُهُ. هل الأمر أفضل مما يمكن أن تتحمَّل؟ ألا يمكنها أن تشكره، أن تُعبِّرَ له عن امتنانها لما يبذلُهُ من أجل إطعام شقيقته، وشقيقه الأهبل، وتلك الخادمة الشديدة الشراهة؟ لا، لا أحد يملأُ عينَي أمِّهِ سوى أمين وتلك البلهاء سلمى. كان عمر يشعر أن لا أحد يفهمه، مهما يفعل من أجل بلده وأسرته.

عند انتهاء الحرب، كان قد اكتسب أصدقاء كثيرين داخل المنظَّمات السّرّية التي تشكَّلتْ لمقاومة المحتَلِّ الفرنسيِّ. وكان رؤساؤه، في أول الأمر، يتردَّدون في أن يُكَلِّفوه بمسؤوليات. كانوا يرتابون في ذلك الولد المندفع، الذي لا يصبرُ على الإنصات للخطب التي تتحدَّثُ عن المساواة أو تحرير النساء، والتي تدعو، بأصوات مبحوحة، إلى المقاومة المسلَّحة. كان عمر يقول: «حالاً! الآن!»، ويدفع بفارغ الصبر الكتبَ والجرائد التي كان رؤساؤه ينصحونه بقراءتها. وذات مرة، استشاطَ غضباً ضدّ إسبانيٍّ، مشوّه الوجه، شاركَ في الحرب ضدّ فرانكو ويدّعي أنه شيوعيٌّ. كان الرجلُ، الذي يدعو إلى ثورة حشود البروليتاريا، يدافع عن فكرة

الاستقلال لجميع الشعوب. شتمهُ عمرُ، وعيَّرَهُ بالكافر، وسخر من ثرثرته، مدافعاً، مثل كل مرة، عن العمل بدل الكلمات.

كان يُعوِّضُ نقائصهُ بإخلاصٍ لا يتزعزعُ، وشجاعةٍ جسدية أفلحتْ في إقناع رؤساء الخليّة. تزايد عدد المرات التي يغيبُ فيها عن البيت مدَّةَ بضعة أيام أو أسبوع كامل. لم تُخبرهُ مِّي لالَّة قطُّ أنَّ القلق كان ينهشها كلما اختفى من البيت. كانت تنهضُ من سريرها بمجرد أن تسمع صرير الباب. وكانت تصبُّ جامَ غضبها على المسكينة ياسمين، ثم ينتهي بها الأمرُ باكية بين ذراعي العبدة على الرغم من اشمئزازها من بشرتها السوداء. استغرقَتْ الليالِيَ في الدعاء، وتخيَّلَتْ ابنَها مرمياً في السجن أو ماتَ بسبب حكاية مع فتاة أو بسبب السياسة. لكنه كان دائماً يعود، وكلامُهُ أشدّ قسوةً، وأفكارهُ أكثر رسوخاً، ونظرتُهُ سوداء.

في ذلك المساء، فرضَ عمرُ اجتماعاً تحت سقف بيت أمِّهِ، واستحلفَ الأخيرةَ ألّا تخبر أميناً بالأمر. رفضتْ مِّي لالَّة أوّلَ الأمر؛ لا تريد مشاكل في بيتها، وترفضُ أن تُخَبَّأَ أسلحةٌ بين جدران البيت التي بناها قدّور بلحاج بنفسه. لم تُرِدْ أن تسمع خُطَبَ عمر الوطنية الطويلة، وكاد أن يبصقَ على الأرض وأن يقول لها: «لكنكِ عندما كان ابنُكِ يُقاتِلُ من أجل الفرنسيين، كنتِ مسرورةً». لكنَّهُ هدَّأَ أعصابَهُ، وتوسَّلَ إليها، وقد مَدَّ نحوها شفتيه، مقبّلاً يديها المجعَّدتين، على الرغم من كلِّ الخجل الذي كان يستشعره من ذلك المشهد. «لا أستطيع أن أتراجَعَ عن كلمتي أمام الآخرين. نحن مسلمون! نحن وطنيّون. عاش سيدنا محمد بن يوسف!».

كانت مِّي لالَّة تُكِنُّ للسلطان تعظيماً كبيراً. كان محمد بن

يوسف يحيا في قلبها، وازداد ذلك الحضورُ عندما نُفِيَ بعيداً عن بلده. وكانت، كغيرها من النساء، تصعدُ في الليل إلى السطح لتشاهد وجهَ العاهل فوق القمر. لم يُعجِبها الأمرُ عندما ضحكتْ ماتيلد عند بكائها بسبب نفي سيدنا محمد عند مَدَامْ غاسكار. كان من الواضح أنَّ زوجة ابنها لم تُصدِّقها عندما أخبرتْها أنَّ السلطان المخلوعَ وأسرتَهُ، عندما وصلوا إلى تلك الجزيرة الغريبة، المأهولة بالسُّود، سجدتْ لهم الفيلةُ والحيواناتُ المتوحِّشة. وقد حقَّقَ محمدٌ، حفظه اللهُ، معجزةً في الطائرة التي كانت تحمله إلى ذلك المكان الملعون. كادت الطائرةُ أن تتحطَّمَ بهم، هو وأسرته، بسبب عطب في الكيروسين، لكن السلطان وضع منديله فوق مقصورة الطيّار فوصلت الطائرةُ إلى وجهتها دون أيِّ ضرر. ولم ترضخ مِّي لالَّة لطلب ابنها إلا استحضاراً للسلطان والرسول. وأسرعت تصعدُ درجات السلَّم، كي لا تلتقي بالرجال الداخلين إلى بيتها. تبعَها عمر وعندما رأى عائشة، جالسةً فوق إحدى الدرجات، دفعَها بجفاء.

«هيّا، اذهبي، تحرَّكي، كأنَّكِ كيسٌ كبيرٌ من السَّميد. أتفهمين العربية أيتها النصرانية؟ إيّاكِ أن أضبطكِ تتجسَّسين، أفهمت؟».

رفع يدهُ، وواجَهها براحة كفِّهِ، فقالت عائشة في نفسها إنه قادرٌ على أن يُحطِّمَها على الجدار، مثل الذباب الأخضر الضخم الذي تسحقُهُ سلمى بأظفارها. هرعت عائشة إلى غرفتها وأقفلت البابَ خلفها، وقد غطّى العرقُ جبينها.

في يوم 3 أكتوبر 1954، ركبت ماتيلد الطائرةَ إلى مطار لو بورجيه، ثم امتطتْ طائرةً صغيرةً قديمةً متوجِّهةً إلى ميلوز. بدا لها السَّفَرُ بلا نهاية من شدّة تَوْقِها إلى أن تَصُبَّ جَامَ غيظِها على إيرين وأن تُصفِّيَ معها حساباتها. كيف استطاعت شقيقتُها أن تُبعِدها عن موت أبيها؟ اتّخذتْ جورج رهينةً، احتفظتْ بأبيها الحنون لها وحدَها وغمرتْ جبينَهُ بقبلاتٍ منافقة. بكتْ ماتيلد في الطائرة وهي تُفكِّرُ في أنَّ أباها قد يكون طلبَ حضورَها وأن إيرين، على الأرجح، قد كذبت عليه. تخيَّلتْ الكلمات التي ستستخدمها، والحركات التي ستقوم بها، عندما ستقف أمام شقيقتها وجهاً لوجه. كانت تعيش من جديد مشهداً من مشاهد الطفولة، حيث كانت تستشيطُ غضباً أمام إيرين، وحيث كانت تسمعُها وهي تضحكُ: «بابا، تعال لترى الصغيرةَ. يبدو أنها أصابها مَسٌّ!».

وعندما نزلت بها الطائرةُ في ميلوز، وداعبتْ ريحٌ باردةٌ وجهها، اختفى غضبُها دفعةً واحدة. نظرتْ ماتيلد حولها، مثلما يتأمَّلُ المرءُ في الأحلام المنظر الذي يحيط به، وهو يخشى أن تتسبَّبَ حركةٌ طائشةٌ، أو كلمةٌ زائدةٌ في إخراجه من الحلم. قدَّمتْ جواز سفرها إلى موظَّف الجمارك ووَدَّتْ لو تقول له إنها بنت البلد، وإنها عادت.

بل كانت مستعدَّةً لتُقبِّلَهُ على خدَّيهِ من شدَّةِ إعجابها بلهجته الألزاسية. كانت إيرين في انتظارها، نحيفةً وشاحبةً، في لباس حدادها الأنيق. لوَّحَتْ برفق بيدها ذات القفاز الأسود فمشتْ ماتيلد نحوها. شاختْ شقيقتُها. تضع الآن نظارة واسعة تُضفي عليها مظهراً قاسياً وذكوريّاً. ينفلتُ بعضُ الزغب الأبيض اليابس من شَامةٍ تحت منخرها الأيمن. قبَّلتْ ماتيلدَ بحنان لم تعهدهُ فيها هذه الأخيرةُ. خطرتْ لها فكرةٌ «ها قد صرنا الآن يتيمتين»، فأبكَتْها تلك الفكرةُ.

ظلَّتْ ماتيلد صامتة وهما تقطعان بالسيارة مسافة العودة إلى البيت. كان انفعالُ عاطفتها بالرجوع شديداً، لكنها حرصت على ألّا تبالغ في التعبير عن ذلك حتى لا توقِظَ سخريةَ شقيقتها. البلد الذي هجرتْهُ، بُنِيَ من جديد، دونها، والناسُ الذين عرفَتْهُم لم يحتاجوا إلى حضورها. جُرِحَ كبرياؤها لأنَّ غيابَها لم يمنع الليلكَ من أن يُزهر، والساحةَ من أن تُبَلَّطَ. ركنتْ إيرين سيارتها في المَمَرِّ الصغير، قبالة بيت طفولتهما. ووقفتْ ماتيلد على الرصيف، وتأمَّلَت الحديقةَ حيث ما أكثر ما لعبتْ، ورفعتْ رأسها، لتحدِّقَ في نافذة المكتب حيث كثيراً ما كانت تلمحُ جانبَ وجه والدها المهيب. انقبض قلبُها، وشحب وجهها، ولم تدْرِ إن كان ما يؤثِّرُ فيها أُلفةُ ذلك المكان، أو على العكس، إحساسٌ مزعِجٌ بالغربة. كأنها، بمجيئها إلى هذا المكان، لم تنتقل في المكان فحسب، بل في الزمان كذلك، وإنما هذا السفرُ عودة إلى الماضي قبل كل شيء.

تلقَّتْ في الأيام الأولى كثيراً من الزيارات. وأمضتْ أُمْسِيَاتِها تشربُ الشايَ وتأكل الحلوى، ولم يمضِ أسبوعٌ حتى استردَّتْ ما فقدَتْهُ من وزن إبّان مرَضِها. كانت رفيقاتُها في فصول الدراسة، سابقاً، تَجُرُّ بعضُهنَّ طفلاً معها، وأخريات حوامل، وأغلبُهنَّ تحوَّلْنَ

إلى زوجاتٍ سلطويّاتٍ، ويشتكين من ميل أزواجهنَّ إلى الخمر وإلى كل امرأة سهلة الأكناف. يأكلن الكرز المغموس في شراب ماء الحياة، ويمنحن منه لأطفالهنّ الذين تتلطَّخُ أفواههم بالأحمر وينتهي بهم الأمرُ نائمين، في ذهولٍ، فوق كنبة المدخل. حكتْ جوزيفين، وكانت رفيقتَها المقرَّبَة، أنها فاجأتْ زوجَها مع امرأة، ذات مساء، كان من المفروض أن تزور فيه والديها. «كانا يفعلان ذلك فوق سريري ذاته!». كانت الصديقات يأتين لزيارة ماتيلد ليرون إن كانت الحياةُ قد هيَّأتْ لها من الخيبات مثلما هيَّأتْ لهنَّ. كنَّ يُردن أن يعرفن إن كانت هي الأخرى قد جرَّبَتْ فظاظةَ الحياة، والصمتَ القسريَّ، وآلامَ الوضع والجِماع بلا حنان.

وذات مساء، انفجرت فيه الأعاصيرُ، دَنَت المرأتان من المدفأة. كانت إيرين مُرْهَقَةً قليلاً من تلك الزيارات المتواصلة، وممَّا تُبديه ماتيلد في أثناء ذلك من غنج ودلال. لكن ماتيلد بَدَتْ شديدة الحزن، جاثيةً على ركبتيها أمام قبر أبيها، فلم تستطع إيرين أن تحرمها من تلك التسليات البريئة. «احكِي لنا عن الحياة في أفريقيا، كيف تكون! يا لكِ من محظوظة! نحن لم نتعدَّ قَطُّ عتبةَ هذه البلدة.

- الحقيقةُ أنه ليس غريباً كلَّ الغرابة، قالت ماتيلد في تدلل. في بداية الأمر، نشعر كأنَّنا قد نزلنا في كوكب آخر، لكن سرعان ما نجد أنفسنا مضطرِّين للاهتمام بأشغالنا اليومية التي لا تختلف عن الأشغال اليومية في أيِّ بلد آخر».

جعلتهُنَّ يتوسَّلن إليها أن تخبرهنَّ بالمزيد، واستمتعَتْ بما لمستْهُ من انتظار في نظراتِ ربّات البيوت اللواتي كنَّ يظهرن أكبر منها سنّاً. وكذبتْ ماتيلد. كذبتْ حول حياتهم، وحول طبع زوجها، واختلقتْ أحاديثَ متنافرة توقِّعُها بضحكٍ حادٍّ. كرَّرَتْ باستمرار أنَّ زوجها

رجلٌ حداثيٌّ، فلّاحٌ عبقريٌّ يُديرُ بيدٍ من حديد مزرعةً هائلة. تحدَّثَتْ عن «مرضاها» ووصفتْ مستوصَفَها، حيث كانت تصنع المعجزات، لكنها دارتْ عن جمهورها قلَّةَ معارفها وإمكاناتها.

في اليوم الموالي استقدمتْها إيرين إلى مكتب والدها وقدَّمتْ لها مظروفاً. «هذا قسمٌ من حقِّكِ في الإرث» لم تجرؤ ماتيلد على فتحه، لكنها تحسَّستْ سُمْكَهُ فأسرَّ بهجتَها. «أنتِ تعلمين أنَّ بابا لم يكن رجلَ أعمالٍ شديدَ التدقيق. عندما فتحتُ دفاتر حساباته، وجدتُ بها اختلالاتٍ كبيرةً. بعد أيامٍ نذهب عند كاتب العدل، وسيُجلي جميعَ هذه الأمور، ويمكنكِ أنْ تعودي مطمئنَّةَ البال». كانت قد مضت، تقريباً، ثلاثةُ أسابيع على وجود ماتيلد في الألزاس، ولا تفتأ إيرين تشيرُ إلى رحيلها. تسألها إن كانت قد حجزتْ بطاقة السفر، وهل توصَّلتْ برسالة من زوجها، وتفترضُ أنَّ هذا الأخير ينتظرها بفارغ الصبر. لكن ماتيلد لم تلتفتْ إلى كلِّ ذلك، وأفلحتْ في أن تستبعد من ذهنها فكرةَ أنَّ لها حياةً أخرى في مكان ما وأنهم ينتظرونها هناك.

طلعتْ من المكتب، وفي يدها المظروف، وقالت لأختها إنها ذاهبة إلى المدينة. «ينبغي أن أقوم ببعض المشتريات قبل عودتي». وارتمتْ في الحيِّ التجاريِّ ارتماءها في حضن رجل. كانت ترتعش من الإثارة، واضطرَّتْ إلى أن تستنشق نَفَسين عميقَين قبل أن تلج متجراً أنيقاً يُدعى صاحبُهُ أوغست. جرَّبَتْ فستانَين. أحدهما أسود اللون، والآخر بنفسجيٌّ، احتارتْ في الاختيار بينهما. اقتنت البنفسجيَّ، لكنها خرجت من المتجر معكَّرةَ المزاج، غاضبةً من اضطرارها إلى الاختيار بينهما، نادمةً على الأسود الذي يُظهِرُها أكثر نحافة. وظلَّتْ، في طريق عودتها إلى البيت، تُحرِّكُ كيسَ المشترياتِ

مثل فتاة صغيرة تعود من المدرسة وتحلم بأن ترميَ دفاترَها في حفرة. ولمحتْ في واجهة بائع القبّعات الأكثر أناقةً في البلدة قبَّعةً من القَشِّ إيطاليةً، ذات حواشٍ رحبة ورخوة ومزيَّنة بشريط أحمر. ارتقت ماتيلد الدرجات القليلة المؤدية إلى المتجر، ففتح بائعٌ لها البابَ. كان رجلاً مُسِنّاً ومتأنِّقاً، فقالت ماتيلد في نفسها إنه شاذٌّ، وبدا لها المتجرُ من الداخل حزيناً ومُخَيِّباً.

«رغباتُكِ آنستي؟».

أشارتْ بصمتٍ إلى القبعة بطرف سبّابتها.

«حاضر».

انسحب الرجلُ فوق الأرضية واقتلع برفقٍ القبعةَ من الواجهة. جرَّبَتْها ماتيلد، وعندما نظرتْ إلى نفسها في المرآة انتفضَتْ. كان مظهرُها مظهرَ امرأة، امرأة حقيقية، باريسية أنيقة، بورجوازية. تذكَّرتْ شقيقتَها التي تقول إنَّ الشيطانَ يقفُ خلف المختالات ولا يَحْسُنُ بالمرأة أن تتأمَّل نفسها في المرآة. هنَّأها البائعُ باقتضاب ثم بدا كأنه يفقد صبره لأنَّ ماتيلد لا تتوقف عن تعديل القبعة فوق رأسها، تُميلها مرةً إلى اليمين وأخرى إلى اليسار. واستغرقت دقائق طويلة تنظر إلى الملصق الصغير الذي كُتِبَ عليه الثمن، وتاهتْ في تفكير معقَّد وعميق. ودخل المتجرَ زبونٌ فمَدَّ البائعُ يدَهُ، متضايقاً، راغباً في استرداد القبعة.

دنا الزبونُ من ماتيلد وقال لها: «رائعة».

احمرَّ وجهُها ونزعت القبعةَ وأنزلَتْها ببطء فوق صدرها، بحركة لم تُدرِكْ شبقيتَها الحارقة.

«أنتِ، آنستي، لستِ من هنا. أُقسمُ إنَّكِ فنّانة. هل أنا مصيبٌ؟

- تماماً، أجابتْهُ. أشتغل في المسرح. حصلتُ مؤخَّراً على تعاقد من أجل الموسم».

تقدَّمتْ نحو المنضدة وأخرجت مظروف الأوراق المالية من حقيبتها. وبينما كان البائع يضع القبَّعَةَ في علبةٍ ببطء شديد، رَدَّتْ ماتيلد على أسئلة الشّابِّ. كان يرتدي معطفاً أنيقاً وقبَّعَةً من اللَّبْد بلون الكاكي تُخفي نظرَتَهُ قليلاً. وتوغَّلَتْ في الكذب بمزيج من الخجل والإثارة. عبر البائعُ المتجَرَ وعندما وصل أمام الباب الزجاجيِّ قدَّمَ العلبة لماتيلد. وأجابتْ الرجلَ الذي اقترح عليها أن يلاقيها مرة أخرى: «للأسف، إني جِدُّ منشغلة بالتدريبات. لكن تعال لتشاهدني على خشبة المسرح ذات مساء».

وعندما وصلتْ أمام البيت أصابها الخجلُ من كلِّ ما تحمله من مشترياتٍ. عبرت الصالةَ بسرعة وأغلقت خلفها بابَ حجرتها، سعيدةً وخجولةً. استحمَّتْ وغيَّرَتْ مكانَ الغرامافون الذي كان فوق مكتب أبيها ووضعتْهُ قريباً من سريرها. كانت مدعوَّةً في ذلك المساء إلى حفلٍ، فاستعدَّتْ وهي تُنصِتُ إلى أغنية ألمانية قديمة كان جورج يعشقها. وعندما وصلتْ إلى مكان الحفل، هنَّأَتْها المدعوّاتُ على فستانها البنفسجيِّ، وتَطَلَّعَ الرِّجالُ مبتسمين إلى جوربَيها الحريريَّين المثيرَين. شربتْ خمراً مزبِداً قويّاً فلم تمُرَّ سوى ساعة حتى جفَّ ريقُها واحتاجت لمزيد من الشرب لتُواصِلَ حكيها. كان الجميع يسألونها عن حياتها في أفريقيا، وعن الجزائر التي ظلّوا يخلطون بينها وبين المغرب باستمرار. «إذاً أنتِ تتحدَّثين بالعربية؟» سألها رجلٌ لطيفٌ. شربتْ كأسَ الخمر الأحمر، الذي قُدِّمَ لها، دفعةً واحدةً، وتلفَّظَتْ بجملة باللغة العربية تحت وابلٍ من التصفيق.

عادتْ إلى البيت وحيدةً واستمتعتْ بالمشي في الشارع، دون مُرافق ودون رقيب. كانت تتعثَّرُ قليلاً وتتغنّى بلحن فاحِشٍ يُضحِكُها. صعدت الدرجات على طرفي قدميها واستلقتْ فوق سريرها، دون أن تخلع لا فستانها ولا جوربيها. كانت سعيدة بذلك السُّكْر وبتلك الوحدة، سعيدة بأن تختلق لنفسها حياةً دون أن يعارضها أحدٌ. استدارتْ، ودفنتْ وجهَها في الوسادة لتُهدِّئَ الغثيانَ الذي استبَدَّ بها. وتصاعَدَ بداخلها نشيجٌ، نشيجٌ كان ثمرةَ تلك البهجة ذاتها. كانت تبكي لأنها فرحةٌ في غيابهم. سمحَتْ، وهي مغمضة العينين، غارسةً أنفَها في الوسادة، لفكرةٍ سريَّةٍ أن تطفو، فكرة مُخْجِلة، ظلَّتْ تُعَشِّشُ منذ أيّامٍ في ذهنها. فكرةٌ، لا بدَّ أنَّ إيرين قد اكتشفَتْها، وهو ما يفسِّرُ ما كانَ يظهر عليها من آيات القلق. في ذلك المساء، وبينما ماتيلد تُنصتُ إلى الريح تعصفُ في أوراق شجر الحور، قالتْ في نفسها: «سأبقى هنا». أجل، فكَّرَتْ في أنَّ في إمكانها ألّا ترجع، وأنها تستطيع -على الرغم من استحالة أن تنطق تلك الكلمات- أن تتخلّى عن طفليها. ولَّدَتْ تلك الفكرةُ لديها الرغبةَ في أن تصرخ فاضطرَّتْ إلى أن تعضَّ على اللحاف. لكن الفكرةَ لم تنفلتْ. بل، على العكس، ازداد السيناريو وضوحاً في عقلها. تبدو لها حياةً جديدةً ممكنةً، وتتصوَّرُ جميعَ محاسنها. طبعاً هناك عائشة وسليم، وبشرة أمين، والسماء اللامتناهية الزرقة في بلدها الجديد. لكن، يمكن للألم أن يتلاشى بمرور الزمن وبُعد المسافة. ثم إنَّ طفليها، بعد أن يُبغِضاها، وأن يتألَّما، قد ينتهيان إلى نسيانها، ويصيرون هي وهما سعداء، كلٌّ في ناحيته من خلف البحر. بل قد يأتي يومٌ يحصل لديهم فيه انطباعٌ أنهم لم يلتقوا قطُّ، كأنَّ مصائرهم كانت دائماً متباينة، غرباء بعضهم عن بعض. لا وجود لمأساة لا يمكن

للمرء أن يتعافى منها، قالت ماتيلد في نفسها، ولا وجود لدمارٍ لا يمكن أن يُعادَ البناءُ فوق أطلاله.

بالتأكيد، سيحاكمونها. سيواجهونها بكلِّ أحاديثها الجميلة عن حياتها هناك. «إنْ كنتِ سعيدةً كلَّ تلك السعادة، فلِمَ لا ترجعين إلى هناك؟» بل إنها بدأتْ تشعُرُ بنفاد الصبر يتصاعد لدى الجيران؛ آنَ الأوانُ لأن تعودَ إلى حياتها وأن يستعيد اليوميُّ الكئيبُ حقوقَهُ. وتقول ماتيلد في نفسها، وقد اشتدَّ غضبُها من نفسها، ومن القدر، ومن العالم أجمع، إنها سترحلُ مرةً أخرى، ستذهبُ إلى ستراسبورغ أو حتى إلى باريس، حيث لا يعرفها أحدٌ. يمكنها أن تستأنف دراستَها، وأن تُصبح طبيبةً وحتى جرَّاحة. بَنَتَ في ذهنها سيناريوهاتٍ مستحيلةً تتلوَّى لها أحشاؤُها. من حقِّها أن تفكِّرَ في نفسها، وأن تجتهد من أجل خلاصها. جلستْ وسطَ السرير، يهيمنُ عليها الغثيانُ والسُّكْرُ. ينبضُ دمُها بقوّةٍ في صدغَيها ويمنعُها من التفكير. هل أصابها الجنون؟ أهي واحدةٌ من ذلك الصِّنف من النساء اللواتي لم تَحْبُهنَّ الطبيعةُ بالغريزة؟ أغمضتْ عينيها وتمدَّدَتْ فوق السرير. رافَقَتْها في انحدارها في النوم صورٌ غامضةٌ. حلمتْ، في تلك الليلة، بمكناس، وبالحقول الممتدَّةِ حول المزرعة. رأت البقرات ذوات العيون الحزينة والضلوع البارزة، تحطُّ فوقها طيورٌ بيضاء جميلة لتلتقط الطُّفيليات. وانقلَبَ حُلمُها كابوساً، يعبُرُهُ خُوارٌ رهيبٌ. ينزلُ فلاحون، هَزْلى هُزَالَ قطعانهم، بعِصِيِّهم على رقاب البقرات التي تمضغُ نباتات مُضِرَّةً. ويُمسِكون، مقرفصين، بلفافة حبل ويربطون قوائمَ الأنعام بالشِّكال ليمنعوها من الهروب.

استيقظتْ، في صباح الغد، في فستانها، وقد انحَسَرَ جورباها

إلى كعبَيْها. وكان الصُّداع شديداً لم تستطع معه أن تفتح عينَيها عند تناول الفطور. وكانت إيرين تشربُ شايَها على مهل، وتقضمُ شريحة خبز مدهونة بالمربّى وهي تحرصُ على ألّا تُلطِّخَ صحيفتَها. صارتْ إيرين تهتمُّ بالوضع في المستعمرات منذ هاجرت شقيقتُها. وعندما دخلتْ ماتيلد إلى حجرة الطعام، كانت منشغلةً بقَصِّ مقالٍ حول اصطداماتٍ في البوادي، ومفاوضاتٍ بين السلطان والمقيم العام. رفعتْ ماتيلد كتفيها. «قد يكون ذلك صحيحاً. لا علم لي». لم تكن لديها رغبة في الحديث. كانت المرارةُ، بين الفينة والأخرى، تحرقُ حنجرتَها فتضطرُّ إلى أن تستنشق بعمق لكي لا تقيء.

منذ وصلتْ، لم تتشاجر مع إيرين. قضتْ أيّامَها الأولى قلقةً من أن تُقال كلمةٌ تُفيض الكأسَ، وأنْ يفسدَ الأمرُ كلُّهُ، ويطفُوَ الشِّقاقُ من جديد. غير أنَّ علاقةً متواطئةً جديدةً نشأتْ بينها وبين شقيقتها. ظلّ التنافسُ بينهما، في طفولتهما، على الاستئثار بمحبَّة الوالدين، عائقاً يمنع الحنانَ بينهما. أما الآن فإنهما وحيدتان في العالم، ولا أحد سواهما يملك ذكريات الراحلَين. عادت المسافةُ والعمرُ بالأشياء إلى أساسها ومَحَتْ كلَّ الصغائر.

تمدَّدَتْ ماتيلد فوق كنبة الصالة ونعستْ بقيَّةَ النّهار. بقيتْ إيرين إلى جانبها، وغطَّتْ قدميها الحافيتين وتخلَّصَتْ من الزائرين الملحاحين. وعندما استيقظتْ كان الليل قد أرخى سدوله. تستعر النَّارُ في المدفأة، وإيرين تحيكُ الصُّوفَ. شعرت ماتيلد أنها حزينة وثقيلة. تذكَّرتْ سلوكَها في حفل أمس ووجدتْ نفسَها سخيفة. ما هي إلّا طفلة، هذا ما تقولُهُ عنها الآن إيرين. اعتدلتْ ماتيلد جالسةً، وأدارتْ قدميها جهة النار. أحسَّتْ بحاجتها إلى الكلام. هنا ملجأُها حيث يمكن أن تجد المواساة. فَتحدَّثَتْ، في تلك الصالة، بين

صوت مخيطيْ الحياكة واضطرام النار، عن طبع زوجها. عن غضباته. لم تقل شيئاً محدَّداً، يمكن أن يُعَدَّ كذباً أو مبالغةً. لم تقل سوى الضروريِّ، وأدرَكَتْ أنَّ إيرين قد فهمَتْ. تحدَّثَتْ عن عزلةِ المزرعة، عن الخوف الذي يستبدُّ بها عندما لا يمزِّقُ صمتَ الليل سوى صياح ابن آوى. حاولت أن تشرح لها معنى أن تعيش في عالم لا مكان لها فيه، عالم تحكُمُهُ قوانين ظالمة ومُقزِّزَة، حيثُ الرجالُ لا يُسألون قطُّ عمَّا يفعلون، ولا يحقُّ للمرأة أن تبكي بسبب كلمة جارحة. أخذتْ تبكي وهي تتذكَّرُ طولَ النَّهار وهولَ الوحدة، وحنينَها إلى بلدها وإلى طفولتها. لم تتخيَّلْ قطُّ حقيقةَ المنفى. طوَتْ ماتيلد ساقيها تحتها وأدارت وجهها نحو شقيقتها التي كانت لا تحيد ببصرها عن لهب النار. لم تكن ماتيلد خائفةً، لأنها تعتقد أنَّ صراخَتَها ستحُلُّ كلَّ أمر. لم تخجل من خدَّيها اللذين تغطّيهما الدُّموعُ، ولا من عباراتها المتقطِّعة. إنها الآن لا تودُّ أن تؤدِّيَ دوراً، إنها تقبلُ أن تظهر على حقيقتها: امرأة شاختْ من الفشل وانقشاع الوهم، امرأة بلا كبرياء. رَوَتْ كلَّ شيء، وعندما فرغت التفتتْ ناحية إيرين التي لم تتحرَّكْ.

«أنتِ اخترتِ، وينبغي أن تتحمَّلي مسؤوليةَ اختياركِ. الحياة قاسية على الجميع».

طأطأت ماتيلد رأسَها. يا لحماقتها إذ حلمتْ بنظرة متعاطفة. كم كانت خجولة من اعتقادها، ولو للحظة، أنَّ أختها قد تفهمها وتواسيها. لم تعرف ماتيلد كيف تتصرَّفُ إزاء كلِّ تلك اللامبالاة. كانت تفضِّلُ لو أنَّ أختها سخرتْ منها، وغضبتْ، وقالت: «ألمْ أقل لكِ ذلك؟». كانت ستجد الأمر طبيعيّاً لو أنَّ إيرين نسبتْ مسؤولية تعاسة ماتيلد إلى المسلمين والعرب. لكنَّ كلَّ تلك القسوة جعلَتْها

جامدةً صامتة. وتشكَّل لديها اقتناعٌ بأنَّ شقيقتها قد أعدَّت الرَّدَّ منذ زمن طويل، وأنها ظلّتْ تلوكُهُ وتلوكُهُ، وتنتظرُ بفارغ الصبر أن تجد الفرصةَ لتُلقيَ به في وجهها. كان يكفي القليلُ لكي لا تعود. لكي تتراجع عن تلك الفكرة المجنونة بأن تكون غريبةً، وأن تعيش بعيداً، وأن تتعذَّبَ في وحدة لا مثيل لها. نهضتْ إيرين دون أن تُلقيَ نظرةً واحدةً ناحية شقيقتها. لن تمدَّ إليها يدَها. يمكن لماتيلد أن تغرق. وعند أسفل السُّلَّم نادتْ عليها إيرين: «هيّا بنا للنوم الآن. غداً، لنا موعد عند كاتب العدل».

*

خرجتا بعد الفطور. وعندما ركبتْ إيرين في السيارة، كان لا يزال بعض فتات الخبز عالقاً بشفتيها. وصلتا قبل الموعد إلى مكتب كاتب العدل، في الطابق الأول من عمارة فخمة. فتحتْ لهما البابَ فتاةٌ في مقتبل الشباب وأجلسَتْهُما في صالةٍ شديدة البرودة. احتفظتا بمعطفيهما ولم تتحدَّثا بعضهما إلى بعض. صارتا غريبتَين من جديد. عندما انفتح البابُ، التفتا جهتَهُ ولم تستطع ماتيلد أن تحبس صرخةً. قبالتَها، يقفُ رجلُ المتجر. رجل القبَّعة. مدَّتْ له يدَها ترشح عرقاً ورمتْهُ بنظرة متوسِّلةٍ. لم تنتبه إيرين للأمر وتقدَّمتْ نحوه.

«طاب يومُكَ، أستاذ». تركهما تمرّان قبله وأشار لهما إلى كرسيَّين يقابلان مكتبه المصنوع من الخشب الثقيل. كان الرجل الشابُّ قد ورثَ المكتبَ عن كاتب العدل الشيخ الذي كانت تعرفه ماتيلد من قبل، ومات من إدمان الكحول. كان يبتسمُ ابتسامَ المبتز في وجه ضحيةٍ لا حول لها ولا قوة.

«أخبريني سيدتي، كيف تسيرُ الحياةُ في المغرب؟ سألها.

- بخير، أشكركَ.

- أنتِ تعيشين في مكناس، كما شرحتْ لي شقيقتُكِ».

هزَّتْ رأسَها، وهي تتهرَّبُ من نظرة الرجل الذي يميل على مكتبه مثل قطٍّ يهمُّ بالانقضاض على فريسته. فتَّشَ في ملفٍّ، وأخرجَ منه وثيقةً والتفتَ من جديد نحو ماتيلد:

«أخبريني، أتوجدُ مسارح في المدينة حيث تقطنين؟

- أكيد. أجابتْهُ بصوتٍ جامدٍ. لكننا أنا وزوجي نعمل كثيراً. لا أجد الوقتَ للتسلية».

VI

يوم 2 نوفمبر، عادتْ ماتيلد. في ذلك اليوم، حصلتْ عائشة على رخصة الغياب عن المدرسة، وانتظرتْ أمَّها على الطريق، جالسةً فوق صندوق من خشب. وعندما شاهدتْ سيارةَ والدها تصلُ، نهضتْ ولوَّحتْ بذراعَيها. كانت الورود التي قطَفَتْها ذلك الصباح قد ذبلتْ، فتراجعت عن فكرة إهدائها. أوقف أمين السيارة بضعة أمتار قبالة البوابة فنزلتْ ماتيلد. كانت ترتدي معطفاً جديداً، وحذاءين أنيقين من الجلد البُنِيِّ، وقبّعةً من القشِّ لا تلائمُ الفصل. تأمَّلَتْها عائشة وقلبُها يطفح بالحُبِّ. كانت أمُّها جنديّاً يعود من الجبهة، جنديّاً ظافِراً ومجروحاً، يُخفي أسراراً تحت نياشينه. ضمَّتْ ابنتَها إليها، ودسَّتْ أنفَها في عنق الطفلة، وأصابعَها في شعرها المجعَّد. بدتْ لها عائشة شديدة الخِفَّة، وشديدة الهشاشة حيث خشيت أن تكسر لها ضلعاً وهي تضمُّها.

سارتا يداً في يد حتى مدخل البيت، وهناكَ ظهر سليم، بين ذراعي طامو. تغيَّرَ كثيراً في شهر واحدٍ، وقالتْ ماتيلد في نفسها إنَّه سمنَ بسبب الخادمة وما تُحَضِّرُهُ من ألوان الطعام الدَّسِم. لكن لا شيء كان يمكن أن يضايقها في ذلك اليوم، ولا أن يُغضِبَها. كانت

هادئةً ومطمئنَّةً، لأنها رضيتْ بمصيرها، ورضيتْ أن تخضعَ له وتصنعَ منه أمراً جليلاً. وبينما كانت تدخل إلى البيت، وتعبُرُ الصّالةَ المغمورةَ بشمس الشتاء، وتأمرُ بنقل حقيبتها إلى حجرتها، فكَّرتْ في أنَّ الضَّرَرَ إنما يأتي من الشّكِّ، ولا يخلق الألمَ ولا ينخر الأرواحَ سوى الاختيار. أما الآن، وقد قَرَّ قرارُها، ولم يعد في إمكانها أن تعود إلى الخلف، صارتْ تشعر أنها قوية. قويّة لكونها غير حرّة. تذكّرتْ هذا البيت من مسرحية **أندروماك** الذي حفظتْهُ في المدرسة، وليس ممثِّلةً في المسرح كما ادَّعتْ من قبل بشكل مثير للشفقة: «أُسْلمُ أمري مثل عمياء للقدَر الذي يحملني».

لم يتركها الطفلان طوال النهار. يتعلّقان بساقيها، فتلاعبهما بالمشي على الرغم من ذينك الثِّقْلين فوق ربلتيها. فتحتْ حقيبتَها مثلما يُفتح صندوق الكنز، بإجلال، وأخرجتْ منها دُمىً وَبْرِيَّةً، وكتباً للأطفال، وحلوياتٍ بالتُّوت مكسوَّةً بمسحوق السُّكَّر. تنازلتْ في الألزاس عن طفولتها، ربَطَتْها، وأسْكَتَتْها، وخبَّأَتْها في قعر درج من الأدراج. فلن يتعلَّقَ الأمرُ من الآن فصاعداً بطفولتها هي، أو بأحلامها الساذجة، أو برغباتها. وقرَّبَتْ منها صغيرَيها، ورفعَتْهما كلَّ واحد منهما في ذراع، وتكوَّرتْ بهما على السرير. قبَّلَتْهما بشغف على خدَّيهما، ولم تَضَعْ في تلك القبلات قوة حُبِّها فحسب، ولكن حمَّلَتْها أيضاً كثافةَ حسراتها. كانت تحبُّهما حبّاً يزداد شدةً لأنها تنازلت عن كلِّ شيء من أجلهما. قالت في نفسها: «أكرهُ نفسي مقيَّدَةً بهذا الشكل. أكرهُ نفسي لأني لا أُفضِّلُ شيئاً عليكما». أجلستْ عائشةَ فوق ركبتيها وقرأتْ لها قصصاً. «زيديني»، ردَّدَت الطفلةُ، وقرأتْ ماتيلد من جديد. حملتْ معها حقيبةً كاملةً من الكتب التي داعبتْ عائشة بمهابةٍ أغْلِفَتَها قبل أن تفتحها. كان من

بينها ستروولبيتر[1] الذي حيَّرَها وأخافَها بشعره المتشابك وأظفاره الهائلة. قال لها سليم: «إنه يشبهُكِ»، فأبكاها قولُهُ.

*

احتفلتْ عائشة بعيد ميلادها السابع يوم 16 نوفمبر 1954. وقرَّرتْ ماتيلد أن تقيمَ حفلاً بالمناسبة في المزرعة. صنعتْ بنفسها بطائقَ دعواتٍ جميلةً دسَّتْ وسطها ورقة صغيرة يمكن للآباء أن يؤكِّدوا فيها حضور أطفالهم. وكانت تسأل كلَّ مساء عائشةَ إنْ كانت رفيقاتُها في المدرسة قد أجَبْنَها. «جونفييف لن تأتيَ. يمنعُها والداها من الذهاب إلى البادية. يقولون إنها ستُصابُ بالبراغيث والمغص». رفعتْ ماتيلد كتفيها. «جونفييف حمقاء، ووالداها غبيّان. لن نحتاج إليهم، لا تقلقي».

لم تتحدَّث ماتيلد طوال الأسبوع إلّا عن الحفل. أشارتْ، صباحاً، في السيارة، إلى الكعكة التي ستطلبُها من أشهر حلوانيٍّ في المدينة، وإلى الأكاليل التي ستقصُّها من الورق الحريريِّ الملوَّن، وإلى ألعاب طفولتها التي ستُلقِّنُها لهم والتي ستُسلِّيهم كثيراً. كانت تبدو شديدة الفرح والحماس فلم تستطع عائشة أن تخبرها الحقيقة. تسخر منها رفيقاتُها باستمرار. كانت الفتياتُ الصغيراتُ، في القسم الابتدائيِّ، حيث كانت هي أصغرهنَّ، يشددنها من شعرها، ويدفعنها في السلَّم. يمقُتْنَها أكثر لكونها الأولى في الصّفِّ وتستحوذ على

---

(1) *Struwwelpeter*: كتاب للأطفال ألَّفَهُ الطبيب الألماني هاينريش هوفمان عام 1845، يضمُّ عشر قصص للأطفال مزينة بالصور. و«ستروولبيتر» هو اسم الشخصية الرئيسة في القصة الأولى من المجموعة. (المترجم)

جميع الجوائز في اللاتينية، والرياضيات، والخطّ. «لحسن حظّكِ أنكِ ذكيّة. فأنت شديدة القبح بحيث لن يقبل أحدٌ أبداً بالزواج بك». كانت عائشة، في الكنيسة الصغيرة، جاثيةً إلى جانب مونيت، تستغرقُ في دعواتٍ سيِّئة، وتوسلاتٍ حاقدة. كانت تطلبُ أن تموتَ الفتياتُ الصغيراتُ. وتحلمُ أنهنَّ يختنقن، وتصيبُهُنَّ أمراضٌ لا علاج لها، ويسقطن من شجرة فتتكسَّرُ سيقانُهُنَّ. «**واغفرْ لنا خطايانا لأننا نحن أيضاً نغفرُ لكلِّ من يُسيء إلينا**». لكنها كانت تمتنع عن ارتكاب الحماقات، وتنفيذ ما تتمنّاهُ في السِّرِّ من ثأرٍ. كانت تُلجِمُ غيرَتَها من سليم وتشدُّ قبضتيها عندما تشعر بالرغبة في أن تقرصَ ظهر الولد الصغير الذي تحضُنُهُ عينا أمِّها بحنان يجرحُها. منذ رجعت أمُّها، سمعتْ أباها يشتكي أكثر من مرة من التنقُّل اليوميِّ بين البيت والمدرسة. «كلُّ ذلك يُهلِكُ صحَّتنا، كان يقول. ويُتْعِبُ الطفلَين». عندئذ صارتْ عائشة حريصةً على ألا تثير أيَّ أمر، وأن تظلَّ هادئةً ما أمكنها ذلك، لأنها كانت تعيش في رعبٍ مستمِرٍّ من أن يُسَجِّلَها والداها في القسم الداخليِّ ولا تتمكَّن من رؤية أمِّها إلّا السبت والأحد، مثل معظم فتيات المدرسة.

*

حلَّ يومُ الحفل. كان يومَ أحدٍ متجهِّماً وماطِراً. عندما استيقظتْ عائشة، وقفتْ فوق سريرها ونظرتْ من النافذة إلى أغصان شجر اللوز يضطربُ في الريح. كانت السماء حزينةً ومتجَعِّدَةً مثل لحافٍ غِبَّ ليلة من الكوابيس. مرَّ رجلٌ يرتدي جلباباً من الصوف الغليظ بُنيِّ اللون، وقد أدلى غطاءَ رأسه، وسمعَتِ الطِّفلةُ صوتَ الوحَل ينتثِرُ تحت حذاءيه. وعند انتصاف النهار، هدأت الريحُ،

وأمسكَ المطرُ، لكنَّ السماء كان لا يزال أديمُها كالحاً بسحاب قاتمٍ، وفي الجوِّ ما يشبهُ الإعصار. «هذا ليس عدلاً أبداً، قالتْ ماتيلد في نفسها. لِمَ تجافينا الشمسُ في هذا البلد الذي يملُّ فيه المرءُ من صفو السماء؟».

كان يقع على عاتق أمين أن يذهب عند الحلوانيِّ لجلب الكعكة، ثم إلى المدرسة حيث تنتظرُهُ ثلاثُ فتياتٍ صغيراتٍ لم يرجعن إلى بيوتهنَّ في عطلة نهاية الأسبوع، وقبلنَ دعوةَ عائشة. تأخَّرَ أمين. اضطرَّ مرتين أن يتوقَّفَ لينتظر انحباسَ المطر لأنَّ ماسح الزجاج لا يعمل جيّداً فلا يُبصر الطريق. وعند الحلوانيِّ، طلبوا منه الانتظار. وقع لَبْسٌ، فسُلِّمَتْ كعكتُهُ لشخص آخر. «لم يعد لدينا فراولة»، شرحتْ له الأمرَ البائعةُ. هزَّ أمين كتفيه. «لا يهمُّ. إنما أريد كعكةً».

في المزرعة، كانت ماتيلد تنتظر فارغة الصبر. زيَّنَتْ الصالةَ، ووضعَت فوق مائدة حجرة الطعام، صحوناً رُسِمَتْ فوقها مشاهدُ من الحياة اليومية في الألزاس. ومشتْ في البيت، عصبيّةً، مُخْنَقَةً، تتخيَّلُ في ذهنها أكثر السيناريوهات رعباً. وأما عائشة، فلم تكن تتحرَّكُ. كانت تُركِّزُ نظرها في السماء، وقد ألصقتْ أنفها بزجاج النافذة، كأنها تريد أن تطرد الغيومَ، وكأنها تستطيع، بقوة رغبتها فحسب، أن تُطلِعَ شمساً كبيرةً. ماذا سيصنعن داخل هذا البيت المغبّر؟ أية ألعاب يمكن أن تُلعَبَ بين أربعة جدران؟ ينبغي أن يكون في إمكانهنَّ العَدْوُ في البراري، وأن تُطلِعَهُنَّ على مخابئها في الأشجار، وأن تُقدِّمَ إليهنَّ حمارَ الإسطبل، العاجزَ عن العمل لِكِبَرِ سِنِّهِ، وحَشْدَ القِطَطِ التي دَجَّنَتْها ماتيلد. «**يا ربِّ امنحْني القوّةَ، أنت الحبُّ الخالص**».

أخيراً وصلَ أمين، مُبَلَّلَ الثِّياب، حاملاً بين يديه صندوقَ الحلويات تُغطِّيه بُقَعُ القشدة. وخلفهُ مونيت وثلاث فتيات صغيرات يُطِلُّ الرعبُ من عيونهنَّ.

«عائشة، هيّا للسلام على صديقاتِكِ»، قالتْ ماتيلد وهي تدفع ابنتَها في ظهرها.

وَدَّتْ عائشة لو تختفي من الوجود. كانت مستعدَّةً لأن تتنازل عن كل شيء مقابل أن تُعاد تلك الفتياتُ إلى بيوتهنَّ، وتستعيدَ وحدتَها المُنَزَّهَةَ عن المخاطر. لكن ماتيلد، كأنما أصابَها مَسٌّ، أخذتْ تُغنّي أغنياتٍ وصفَّقَتْ سلمى بيديها. وردَّدَت الفتياتُ الألحانَ، ويُخطئن في الكلمات، فيضحكن. وغمَّضوا عينَي عائشة وجعلتْها ماتيلد تدور حول نفسها. فصارتْ تتقدَّمُ، عمياءَ، وهي تمدُّ يديها أمامها، تقودُها قهقهاتُ التلميذات المكتومةُ. وعند الخامسة ضعفَ ضوء النهار، فصاحتْ ماتيلد: «أظنُّ أنَّ الوقت قد حان»، واختفتْ في المطبخ، مُخَلِّفَةً في الصالة أولئك الأطفال الذين لا يجدون ما يقوله بعضهم لبعض. وعندما فتحت صندوق الحلوى، كادتْ أن تجهش بالبكاء. لم تكن الحلوى التي طلبتْ. وضعت الكعكة، بيدين ترتعشان من الغضب، فوق طبق، وسمعتْ عائشة صوتَ أمِّها يغنِّي: «سنة حلوة... سنة حلوة...» مالتْ عائشة فوق الشموع، جاثيةً على ركبتيها فوق كرسيِّها، وبينما كانت تَهُمُّ بأن تنفخ، استوقفتها أمُّها. «ينبغي أن تتمنَّيْ أمنيةً وتحتفظي بها لنفسكِ في السِّرِّ».

أضيئت المصابيحُ. وشرعتْ جينيت، التي كان أنفها يسيلُ باستمرار، في البكاء. كانت خائفة في هذا المكان وتريد أن ترحل. انحنَت ماتيلد نحوها، تُطمئِنُها، غير أنَّ ما كانت تودُّهُ هو أن تَرُجَّ

تلك الفتاة الخرقاء، وأن تقول لها أن تكون أقلّ أنانية. ألا ترى أنَّ الأمر لا يتعلَّقُ بها اليوم؟ لكن الطفلات الأخريات، باستثناء مونيت، تغيَّرَتْ وجوهُهنّ.

«نريد أن نعود نحن أيضاً. اطلبي من سائقكِ أن يرافقنا.

- السائق؟». تذكَّرتْ ماتيلد وجه أمين القاتمَ، والطريقةَ العنيفة التي رمى بها صندوقَ الحلواني فوق طاولة المطبخ. كانت أولئك الفتياتُ قد حسبنَهُ السائقَ وتركَهُنَّ على ظنِّهِنَّ.

أخذت ماتيلد تضحكُ، وهمَّتْ بأن توضِّحَ لهنَّ الموقفَ إذ عائشة تخاطبها:

«ماما، هل يمكن للسائق أن يرافقهنَّ؟».

كانت عائشة تُثَبِّتُ في أمِّها تلك النظرةَ السوداء ذاتَها التي تنظُرُ بها عندما تتعرَّضُ للعقاب فتبدو كأنها تحقد على العالم أجمع. انقبضَ قلبُ ماتيلد وهزَّتْ رأسَها ببطء. تبعتْها الفتياتُ الصغيراتُ، مثلما تتبع الطيورُ أمَّها، إلى غاية المكتب حيث ظلَّ أمين مقفلاً عليه الباب. كان قد قضى ما بعد الظهيرة فريسةَ حَنَقٍ ظلَّ يسكِّنُهُ بالتدخين وقَصِّ المقالات من مجلة. ودَّعت التلميذاتُ عائشةَ بتراخٍ وركبن في مقاعد السيارة الخلفية.

سار أمين متمهِّلاً بسبب الأمطار التي عاودت الهطول. نامت الفتياتُ الثلاث، بعضُهنَّ فوق بعض، وشخرت جينيت. وقال أمين في نفسه: «لسن سوى طفلاتٍ. ينبغي أن أغفر لهنَّ».

*

يوم الخميس الموالي، أخذتْ ماتيلد طفليها عند استوديو للتصوير في شارع لافاييت. أجلسهم المصوِّرُ فوق كرسيٍّ، أمام

لوحة كبيرة تمثِّلُ كاتدرائية نوتردام دو باري، ورفض سليم أن يهدأ في جلسته فغضبتْ ماتيلد. وقبل أن يتهيّأ المصوِّرُ، سَوَّتْ تسريحةَ شعر عائشة، ومرَّرَتْ يدَها على ياقة فستانها الأبيض. «طيّب، هكذا، إيّاكم أن تتحرّكوا». دوّنتْ ماتيلد على ظهر الصورة التاريخ والمكان. ودسَّتْها داخل مظروف وكتبتْ لإيرين: «عائشة هي الأولى في صفِّها الدراسيِّ، وسليم يتعلَّمُ بسرعة كبيرة. احتفلتْ أمس بعيد ميلادها السابع. إنهما سعادتي وبهجتي. ينتقمان لي من الذين يُهينوننا».

ذات مساء، بينما كانوا يفرغون من تناول طعام العشاء، طرق رجلٌ بابهم. لم يتعرَّف أمين، في ظلمة المدخل، رفيقه في السلاح. كان مراد مُبَلَّلاً بالمطر، ويرتعشُ في ثيابه. يمسكُ بيدٍ طرفَي معطفه، وبيده الأخرى، يَهُزُّ قبَّعَتَهُ التي تقطر ماء. فقدَ مراد أسنانَهُ ويتكلَّمُ مثل شيخ، وهو يمضغ وجنتيه من الداخل. جذبهُ أمين إلى داخل البيت وضمَّهُ إليه ضمَّةً قويّةً جعلتْهُ يُحِسُّ بكل ضلع من ضلوع رفيقه القديم. شرع يضحكُ ولم يأبه لما يصيب ثيابه من بلل. «ماتيلد! ماتيلد!» صاحَ وهو يجُرُّ مراداً خلفه إلى الصالة. أطلقت ماتيلد صرخةً. تذكُرُ جيّداً مُعاوِنَ زوجها، رجل خجول ورقيق، كانت تُكِنُّ له صداقةً لكنها لم تستطع أن تُعبِّر له عن ذلك قطُّ. «يجب أن يُغيِّر ملابسه، وصل البللُ إلى عظامه. أحضري له، ماتيلد، بعض الملابس». رفض مراد، ووضع يديه أمام وجهه وحرّكَهما بعصبية. لا، لن يأخذ قميصَ رائِدِه، ولن يستعير جوربَين، وخصوصاً لن يأخذ قميصاً داخليّاً. لن يستطيع أبداً أن يعتاد على هذا الأمر، لن يكون ذلك ملائماً. «لا تكن سخيفاً، قال له أمين، الحرب قد انتهتْ». صدمتْ تلك الجملةُ مراداً. أحدثَتْ ما يشبه الصفير في رأسه، وأربَكَتْهُ، وخطر بباله أنَّ أميناً إنما قال ذلك ليزيد من حزنه.

تعرّى مراد داخل الحمّام الذي كانت تغطّي جدرانَهُ مربّعاتٌ خزفية زرقاء، وتفادى أن ينظر إلى صورته الهزيلة في المرآة الكبيرة. أيّ حاجة له في أن يتأمّل ذلك الجسدَ الذي هَدَّتْهُ الحربُ، والطفولةُ البئيسةُ، والتيهُ في طرق غريبة؟ كانت ماتيلد قد وضعت فوق حاشية الحوض منشفةً نظيفةً وقطعةَ صابون على شكل مَحار. غسلَ إبطيه، وعنقه، ويديه إلى المرفقين. خلع حذاءيه، وغمسَ قدميه في طَسْتٍ مليء بالماء البارد. ثم ارتدى، على مضض، ملابسَ رائدِهِ.

خرج من الحمّام وعَبَرَ مَمَرَّ ذلك البيت المجهول، تقودُهُ الأصواتُ. صوت الطفل الذي يسألُ «من هو ذلك الرجل؟» و«إِحْكِ لي مرة أخرى قصةَ الحرب!». وصوت ماتيلد، التي تتوسَّلُ أن يفتحوا النافذةَ بسبب دخان المطبخ. وصوت أمين، أخيراً، الذي كان ينتظر بفارغ الصبر. «ماذا يفعل؟ أتعتقدين أنَّ عليَّ أن أذهب لأرى هل الأمور بخير؟». توقَّفَ مراد، قبل أن يدخل إلى المطبخ حيث كانوا مجتمعين، وتأمَّلَ من خَلَلِ الباب الموارَب، الأسرةَ الصغيرة. دفئَ جسمُهُ رويداً رويداً، وأغمضَ عينيه واستنشقَ رائحة القهوة التي كانت تُطبَخُ. غمرَهُ إحساسٌ رقيقٌ ودوَّخهُ. كان ذلك شبيهاً بنشيج يستحيلُ كبحُهُ. أمسكَ بحنجرته، وفتَّحَ جفنيه ليزيح طعمَ الملح الذي اجتاح فمه. كان أمين يجلس قبالةَ ابنته الشَّعْثاء. فكَّرَ مراد أنه لم يَرَ ذلك منذ قرون؛ حركاتِ النساء وهنّ يعملن في البيت، وعاداتِ الطفولة، واندفاعاتِ الحنان. وقال مراد في نفسه، إنه ربما وصل إلى نهاية سباقِهِ. وصل أخيراً إلى مرفأ النجاة، حيث إنَّ الكوابيس ستتجَنَّبُهُ بين جدران هذا البيت.

دخل، فقال الأبوان: «آه»، بينما كانت الفتاةُ الصغيرةُ تتفحَّصُهُ. جلسَ أربعَتُهُمْ حول المائدة التي مَدَّتْ فوقها ماتيلد غطاءً طَرَّزَتْهُ

بنفسها. شرب مراد قهوتَهُ على مهل، رشفةً بعد رشفة، ويداهُ مشدودتان حول الفنجان المصنوع من المينا. لم يسألْهُ أمين من أين أتى، ولا ماذا يفعل هناك. ابتسم له ووضعَ يدَهُ على كتفه وهو يردِّدُ «يا لها من مفاجأة!» و«يا لها من فرحة!». استحضَرا، طوال السهرة، ذكرياتٍ أمامَ الطفلة المفتونة، التي توسّلتْ إليهم ألّا يرسلوها لكي تنام. فتحدَّثا عن رحلتهما، على متن السفينة التي حملتْهما إلى الناس المتحضِّرين والمولعين بالحروب، في سبتمبر 1944. وأنشدوا الأغنيات في ميناء لا سيوتات ليتشجَّعوا. «كيف كنتَ تغني، بابا؟ وماذا كنتَ تغني؟».

كان أمين يسخر من مُعاونِه، جنديِّ الدرجة الثانية مراد الذي كان يندهشُ منِ كلِّ شيء ويجذبُهُ من كُمِّهِ ليهمسَ له بأسئلة. «لديهم فقراء هنا؟» كان يسأل. وفي حقول جنوب فرنسا أدهشَتْهُ رؤيةُ نساء بيضاوات يعملن، نساء يُشبهن أولئك اللواتي لا يتوجّهن إليه بالكلام، في بلده، إلا إذا اضطُررن إلى ذلك اضطراراً. كان مراد يحبُّ ترديد قوله إنه إنما تَجَنَّدَ من أجل فرنسا، ليدافع عن ذلك البلد الذي لا يعرف عنه شيئاً، ولكنَّ مصيره مرتبط به، دون أن يُدرك سببَ ذلك الارتباط. «فرنسا، هي أمي. فرنسا، هي أبي». والحقيقةُ أنه لم يكن له الخيار. يوم اقتحم الفرنسيون قريتهم، على مسافة ثمانين كيلومتراً من مكناس، جمعوا الرجالَ، واستبعدوا الشيوخَ والأطفالَ والمرضى. وأمروا الآخرين بالصعود إلى ظهر شاحنة: «إمّا الحرب وإمّا السجن». فسار مراد إلى الحرب. ولم يدر بخلده قَطُّ أن زنزانة السجن قد تكون أكثر راحةً وأمناً من ساحات الحرب في بلد الثلوج. غير أنَّ ما أقنعَهُ لم يكن ذلك الابتزاز، ولا مكافأة التجنيد والأجرة اللتين بعثَ بهما إلى والدته التي حمدَتْهُ كثيراً

عليهما. أدركَ، فيما بعد، عندما التحق بكتيبة السباهية حيث كان أمين جندياً من الدرجة الأولى، أنه كان مُحقّاً في اختياره. ما حدث له أمرٌ عظيمٌ، سيُضفي معنى على حياته، حياة البدويِّ البئيسة، عظمةٌ لم يكن يطمح إلى مثلها، ولم يكن حتى يستحقُّها. أحياناً، لم يكن يعرفُ هل هو مستعدٌّ للموت من أجل أمين أو من أجل فرنسا.

وعندما يتذكَّرُ مراد الحربَ، تستبدُّ به ذكرى الصمت. صوتُ القنابل، والبندقيات، والصياح، كله اختفى ولم يفضل في عقله سوى ذكرى سنواتٍ صامتة، والقليل من الكلمات المتبادلة بين الرجال. كان أمين يقول له أن يخفض بصره، ألّا يُثير الانتباهَ إلى شخصه. عليهما أن يقاتلا، وينتصرا، ويعودا إلى البلاد. لا ينبغي إصدارُ أيّ صوت. ولا ينبغي طرح أيِّ سؤال. صعدوا من لا سيوتات إلى جهة الشرق حيث استقبلوهم استقبال المُحَرِّرين. كان الرجال يفتحون قنيناتٍ جيّدة على شرفهم، والنساءُ يلوِّحْنَ بأعلامٍ صغيرة. «عاشت فرنسا! عاشت فرنسا!». وذات يوم أشار طفلٌ إلى أمين بإصبعه وقال: «العبد».

كان مراد حاضراً عندما رأى أمين ماتيلد أوَّلَ مرّة في خريف 1944. كانت كتيبتُهم مقيمةً في قرية صغيرة تبعد بضعة كيلومترات عن ميلوز. دعتهما في المساء نفسه للعشاء في بيتها. واعتذرتْ مسبقاً: «تقنين البضائع»، شرحت لهما الأمرَ، ووافق الجنديان. وعند حلول المساء، أُدخِلا إلى صالة مليئة بالناس. بدويون، جنود آخرون، شيوخٌ يبدو عليهم السُّكْرُ منذ البداية. جلسوا حول مائدة خشبية طويلة، وجلستْ ماتيلد قبالةَ أمين ورَمَتْهُ بنظرة جائعة. كان يبدو لها أن السماء بعثتْ إليها بذلك الضابط، واستجابتْ لصلواتها، هي التي تلعنُ الحربَ أقلَّ من لَعْنِها غيابَ المغامرات. هي التي

تعيش مدفونةً منذ أربعة أعوام، دون أن تجد ما ترتديه، ودون كتاب جديد تقرأه. كان عمرها تسعة عشر عاماً، وجائعةً لكلِّ شيء، والحربُ حرَمَتْها من كل شيء.

دخل والدُ ماتيلد إلى الصالة وهو يغني أغنية فاحشةً ردَّدَها معه الجميعُ. ظلَّ أمين ومراد صامتَين. يُنعِمان النظر إلى ذلك العملاق ذي البطن الضخم، والشّارِبِ الأسودِ مثل الأبنوس على الرغم من سِنِّه. واتَّخذَ كلٌّ واحدٍ مكانَهُ من أجل الطعام. دُفِعَ مراد فازداد التصاقاً بأمين. وجلس رجلٌ إلى البيانو فتماسكَ المدعوّون من المرافق وغنّوا أغنيةً. ونادوا بالأكل، فوضعت النساءُ اللواتي يغطي اللون الوردي خدودَهُنَّ، صحونَ لحوم باردة وكرنباً. وقُدِّمَتْ أكوابُ الجعّة، ورفَعَ والدُ ماتيلد صوتَهُ يقترحُ الشنابسْ. دفعت ماتيلد الصَّحنَ أمام أمين. كانوا جنود التحرير، فهُمْ من يستحقُّ افتتاحَ الأكل. غرسَ أمين شوكتَهُ في قطعة مقانق، وقال: «شكراً» وشرع يأكل.

كان مراد يرتعد بجانبه، شاحباً مثل خيال، ورقبته ترشح عرقاً. تلك الضوضاء، وأولئك النساء، وذلك الغِناء البعيد عن الحياء، كل ذلك يضايقه ويُذكِّرُهُ بِبوسبيرْ(1) في الدار البيضاء، إلى حيث جَرَّهُ جنودٌ فرنسيون ذات يوم. ومنذئذ، صار يلاحقه ضحكُ أولئك الرجال، والكيفيةُ العنيفةُ التي عاملوا بها الموسمات، مثل حيوان يسعون إلى استنزافه. كانت أجساد الفتيات تميلُ إلى الزرقة، تُغطِّيها آثارُ تلك المعاملة.

---

(1) حيٌّ في الدار البيضاء كان مُخَصَّصاً للدعارة في عهد الحماية الفرنسية. (المؤلِّفة)

كان مراد قد التصقَ برائِدِهِ، وجذبَهُ من كُمِّهِ، فتضايقَ منه أمين. «ماذا بك؟ سأله بالعربية. ألا ترى أنني أتحدَّثُ؟» لكنَّ مراداً ألَحَّ. ثبَّتَ على أمين عينَين مرعوبتَين. «هذا، قال وهو يشير إلى الصحون بإصبعه، هذا خنزير، أليس كذلك؟ وهذا، قال وهو يرفع حاجبيه في اتجاه الأكواب، هذا كحولٌ، أليس كذلك؟». نظر إليه أمينِ، وقال له بصوت صارمٍ: «كُلْ، واصمُتْ».

«ما الذي يمكن أن يصيبنا؟» سألهُ فيما بعد وهما يتمشّيان في أزقَّة القرية المظلمة راجعَين إلى سريرَيهما. «مِمَّ تخافُ؟ من الجحيم؟ كنَّا فيه وعُذْنا منه».

ألمْ يحلما بذلك، بحجرةٍ دافئةٍ، وصحنٍ مليءٍ، وابتسامةِ امرأةٍ شابّةٍ إذ يسيران خلف الجنود الألمان الذين أسروهم بعد معركة لا أورنيْ في مايو 1940؟ مشيا ساعاتٍ، وأيّاماً، وكان مراد يُصِرُّ على حمل عتاد أمين. ما الذي يعنيهم من كلِّ ذلك؟ لا يرجوان سوى استغلال مزرعة صغيرة، فوق تَلَّةٍ بعيدة كلَّ البُعد عن ذلك المكان. ليس لديهما أعداء يمكن أن يذكروهما بالاسم، وهنا أمامهما، رجالٌ ضخامٌ، رجالٌ يتكلمون لغةً لا يعرفونها، وكانوا قد ألقوا أسلحتَهم على الأرض، وانتظموا في صَفٍّ. ذات ليلة، توقّفوا على جانب حقلٍ، وفي الظلام المطبق نبشوا الأرضَ المتجمِّدةَ بأصابعهم. واستخرجوا، في صمت، بطاطسَ لم تكد تُنْبِتُ، وأكلوها وهم حريصون على ألّا يُصدروا صوتاً عند مضغها. في تلك الليلة، تقيَّأَ جميعُ الرجال، وبعضُهُم تبرَّزَ في ملابسه. وعندما طلع النهارُ وتوجَّبَ استئنافُ السير، ألقوا نظرةً أخيرةً على الحقل. كانت تعبُرُهُ أخاديدُ سُعارٍ رفيعةٌ، كأنه حرَثَتْهُ حيواناتٌ حادَّةُ المخالب. ثم ركبوا قطاراً إلى معسكر للأسرى قرب دورتموند. «حدِّثني عن المعسكر!» قالت عائشة

التي كان جفناها يُغْمَضان. «حكايات المعسكر سنؤجِّلها إلى وقت لاحق»، وعدها أمين، الذي أرهَقَتْهُ تلك الذكرياتُ.

قاد أمين مراداً إلى آخر المَمَرِّ وفتحَ باباً يؤدي إلى حجرةٍ صغيرةٍ، تُغطّي جدرانَها أثوابٌ مزيَّنةٌ بالورود. لم يجرؤ مراد على الدخول إليها، مُحْرَجاً بما كانت عليه من عناية وبصمةٍ أنثويّة. فوق طاولة الليل، وُضِعَ إبريقٌ زجاجيٌّ رُسِمَتْ عليه باقةُ بنفسج. كانت ماتيلد خاطتْ ستائرَ هَفْهافَةً وعلَّقَتْها، ورتَّبَتْ فوق السرير عدداً من الوسائد الملوَّنة. اندهَشَ مراد الذي كان يتوقعُ أن ينامَ فوق مقعد أو على الأرض في المطبخ. وطمأَنَهُ أمين بقوله: «يمكنكَ أن تبقى معنا المدَّةَ التي تشاء. فعلتَ خيراً بمجيئكَ».

خلع مراد ملابسه واندَسَّ بين الأغطية الباردة. كان كلُّ شيء هادئاً، غير أنه لم يتمكّن من النوم. فتح النافذة، وألقى الأغطيةَ على الأرض، لكن لا شيء هَدَّأَ من روعه. كان قلقاً لدرجة أنه وَدَّ لو ينهض، ويرتدي سترتَهُ المبلَّلةَ، وينطلق عائداً وسط الليل. هذه الرِّقةُ، وهذا الصَّفاءُ، وهذا الدفءُ الإنسانيُّ، كلُّ هذا لا يلائمُهُ. لم يكن يحِقُّ له، قال في نفسه، أن ينقلَ خطاياه إلى هذا المكان، أن يأتيَ ليُكَدِّرَ مصيرَ هؤلاء الناس بأسراره. استحى مراد في فراشه من أنه لم يُخبرهم بكل شيء. فكَّرَ في أنَّ أميناً عندما سيكتشف الحقيقةَ سيطرُدُهُ خارج البيت، وسيشتُمُهُ، ويتَّهِمُهُ باستغلال طيبته.

وَدَّ مراد لو يضع يدَهُ فوق يد أمين، ولو جرؤَ، أن يترك رأسَهُ تستندُ إلى كتف رائِدِهِ، ويستنشقَ رائحتَهُ. وَدَّ لو أنَّ عناقَهما، عند عتبة الباب، كان عناقاً بلا نهاية. أبدى لماتيلد وللطفلَين فرحةً منافقةً لأنه كان يُفضِّلُ لو أنهم لا يوجدون هناك، ألّا يوجد شخصٌ بينه وبين الرائد. كان قد ارتدى، قبل قليل، لباسَ أمين الداخليَّ

وقميصَهُ، بشهوانية يندم عليها الآن. يا للخجل. صعدت الدموعُ إلى عينيه. حاول أن يطرد تلك الصور من ذهنه. عضَّ على يده مثل مريضٍ صريعِ الألم. لا ينبغي أن يفكِّر في ذلك، مثلما لا ينبغي له أن يُفكِّر في الجُثث، وفي الأجساد المُمَزَّقة التي كانت تتعفَّنُ في مستنقعات الوحل، وفي الرياح الموسمية التي كانت تصيبُ رفاقَهُ في الهند الصينية بالجنون، وفي نزيف الدم الأسود من أولئك الذين فَضَّلوا أن يقتلوا أنفسهم على أن يعودوا للقتال. لا ينبغي له أن يُفكِّر لا في الحرب ولا في ما يراودُهُ من حاجة شيطانية، محمومة، لالتماس الحنان لدى أمين.

أتى اليومَ إلى هذا المكان ويستحيل عليه الآن أن يُكْرِهَ نفسه على أن يغادر هذا البيت. في الحقيقة، لم يكن لهروبه من الجندية، من غاية يسعى إليها، سوى أمر وحيد. في أثناء كلِّ تلك الليالي التي قضاها يمشي، ويختبئ في عربات القطار المخصَّصة للحيوانات، وفي الإسطبلات وفي الأقبية، وفي أثناء تلك الأيام التي كان يهدُّهُ فيها التعبُ، فينسى حتى الخوفَ وينامُ نهاراً في استراحات المحطّات، في أثناء كلِّ ذلك إنما كان يقودُهُ وجهُ أمين. كان يفكِّرُ في ابتسامة رائده، تلك الابتسامة غير المتناسقة التي لا تَفْتَرُّ إلا عن نصف أسنانه البيضاء. تلك الابتسامة التي كان يمكنه أن يقطع من أجلها قارّةً أخرى. وبينما كان الجنود الآخرون يضعون على قلوبهم صورةَ دمية عارية الساقين، كان مراد يُقسِمُ لنفسه أن يلتحق برائِدِهِ.

وفي صباح اليوم الموالي، كان أمين ينتظره في المطبخ. وكانت ماتيلد جالسةً، تحمل عائشةَ فوق ركبتيها، وكلاهما كانتا منهمكتَين في تأمُّل صورة من التشريح تمثِّلُ وظيفةَ الكُلْيتَين. وكان سليم، الذي

تفوح منه رائحةُ البول، يلعبُ بأوانٍ فارغة. «آه، هذا أنتَ!» قال أمين. «لقد فكرتُّ طول الليل ولديَّ اقتراح أقترحهُ عليكَ. هيَّا، سأحدِّثُكَ عنه ونحن نتمشّى». قدّمتْ ماتيلد لمراد فنجانَ قهوة شربه دفعة واحدة. والتقطَ أمين سترتَهُ، ونظارته الشمسية، ووضع قبلةً على كتف ماتيلد وداعبَ بأنامله مؤخِّرة زوجته. «هيّا، اخرجا الآن»، قالت وهي تضحك.

سارا في اتجاه الإسطبلات. «أريدُ أن أُطْلِعَكَ على ما حقَّقْتُهُ في خمس سنوات فحسب. منذ بضعة شهور، وظَّفتُ رئيسَ عمّال، فرنسيّاً شابّاً نصحتْني به جارتي، الأرملة ميرسييه. كان ولداً طيّباً، وأميناً، وخدوماً، لكنه عاد إلى فرنسا بعد انصرام عدة شهور. يوجد عملٌ كثيرٌ وإمكاناتٌ كثيرة. أودُّ أن تساعدني. إذا كان في إمكانك أن تبقى، سأُعيِّنُكَ رئيسَ عمّال». كان مراد يمشي صامتاً، ضابطاً إيقاع خطواته على خطوات رائده. لم يكن يفهم شيئاً في الفلاحة، لكنه كَبُرَ في الفضاء الطلق ولا تبدو له أيُّ مهمّةٍ مستحيلةَ الإنجاز إن يكن أمين من يطلب ذلك. أراهُ أمين مغارسَ الأشجار المثمرة التي صارت تغطّي جانباً مهمّاً من المزرعة. وحدَّثَهُ عن ولعه بشجرة الزيتون، تلك الشجرة النبيلة التي يُجري عليها العديدَ من التجارب. «أوَدُّ أن أبنيَ دفيئةً زراعيةً لأُنتِجَ شتلاتي الخاصة، وأطوِّر المردودية. ينبغي إنشاء مَشْتَلٍ، وتركيبُ نظامٍ للتدفئة والتّبليل. وأحتاجُ إلى الوقت لأُكَرِّسَ جهدي للبحث وتطوير أنواعٍ جديدة». شدَّ أمين بيده على يد مراد، وقد احتقنَ وجهه من الإثارة. «لديَّ موعد في غرفة الفلاحة. سنستأنِفُ حديثَنا عند عودتي، أيناسبكَ هذا؟».

قبلَ مراد الاقتراحَ في المساء نفسه، واستقرَّ في المخزن الموجود عند أسفل النخلة العملاقة، على بعد أمتار من البيت. وكان

في الليل يسمع صوتَ الفئران وهي تتسلَّقُ اللبلابَ حول جذع الشجرة العظيم. لا يحتاج لشيء في معيشه: سرير مخيَّم، وغطاء يطويه كلَّ صباحٍ بعناية فائقة، وصحن معدنيّ، وإبريق ماء كبير من أجل غسل سريع. ولو طُلِبَ منه أن يقضيَ حاجتَهُ في الخلاء لما أدهشَهُ الأمرُ أو صدمه. غير أنه كان يستعمل المرحاضَ الخارجيَّ، الذي شُيِّدَ في فِناء المطبخ من أجل طامو، الخادمة، التي لم يكن من حقها أن تبولَ حيث تبولُ ماتيلد. وفرض مراد على العمّال صرامةً عسكريّةً، فلم يتطلَّب الأمرُ سوى ثلاثة أسابيع ليكرهَهُ أهلُ البلدة. «الانضباط، كان يُردِّدُ على مسامعهم، هو سِرُّ الجيوش الظافِرَة». كان أدهى من بعض الفرنسيين، من أولئك الذين يحبسون العمالَ السيِّئين داخل حُفَرٍ ضيّقة أو يشبعونهم ضرباً. كان الفلاحون يشتكون بقولهم إنَّ هذا الشخص أسوأ من الغريب. إنه خائنٌ، باع نفسه، ينتمي إلى صنف النخّاسين الذين يُشيِّدون الإمبراطوريات على حساب شعبهم.

ذات يوم، وبينما كان مراد وعاشور يمرّان أمام مزرعة مارياني، تنحنحَ العاملُ بصوت مرتفع وبصقَ. «لعنكَ الله! صاح مُصوِّباً نظرهُ إلى سياج المزرعة. فازَ هؤلاء المعمِّرون بأخصب الأراضي. استولوا على مائنا وأشجارنا». قاطعهُ مراد، وسأله بجدّيّة: «قبل مجيئه، ماذا كان يوجد هنا؟ إنهم هم الذين حفروا الأرض بحثاً عن الماء، وهم الذين غرسوا الأشجار. أليس حقيقةً أنهم عاشوا حياة البؤس، داخل أكواخ من الطُّوب أو تحت القصدير؟ اخرسْ، هيَّا! نحن هنا لا نشتغل بالسياسة. نشتغل بالأرض». قرّرَ مراد أن يراقب كلَّ صباح حضور العمّال، وعاتبَ أميناً لأنه لم يسبق له أن فكَّر في مراقبة ساعات عمل العمّال. «دون سلطة ستعمُّ الفوضى. كيف تريد لمزرعتكَ أن تزدهر إذا كنت تتركهم يفعلون ما بدا لهم؟».

كان مراد يظلُّ فوق آلاته من الفجر إلى غاية المساء ولا يغادر الحقل من أجل الغداء. ولم يكن العمّال يحبّون الأكل رفقته، فكان يجلس وحيداً، مستظِلاً شجرةً، ويمضغُ خبزَهُ، خافضاً عينيه، كي لا يلتقي نظرُهُ بنظرات جماعته الساخرة.

وفي الأيام التي أعقبتْ التحاقَ مراد بالعمل، قرَّرَ أن يُصفِّيَ مشكلةَ الماء. أنشأ، بواسطة محرك بونتياك قديم، محطَّةَ ضَخٍّ واستعملَ عمّالاً للحفر. وعندما انبجس الماءُ، أطلقَ الرجالُ صيحات فرحٍ. بسطوا أيديهم الخشنةَ تحت الماء المتدفِّق، وبلَّلوا وجوههم الملسوعة بالرياح وحمدوا اللهَ على كرمه. لكن مراداً لم يكن كريماً. نظَّمَ «نوبةَ الماء» لحراسة البئر. جعل اثنين من العمّال اللذين يثق فيهما يتناوبان على الوقوف أمام الحفرة، وهما يحملان بندقية على الكتف. يوقدان ناراً لإبعاد بنات آوى والكلاب، ويقاومان النومَ في انتظار أن يحين دورُ الآخر.

كان مراد يريد أن يكون أمين سعيداً، وأن يكون فخوراً. كان لا يأبه لكراهية العمّال، ولا يشغلُهُ سوى هاجس إرضاء رائِدِهِ. أوكَلَ أمين مزيداً من المهامِّ لمراد، وكرَّس وقتَهُ لتجاربه ولمواعيده الكثيرة مع البنك. وكان يغيبُ كثيراً عن العمل، فيُصيبُ مراداً باليأس. تصوَّر مراد، عندما قَبِلَ ذلك العمل، أنَّ ما كان بينهما من روابط في أثناء الحرب ستلتحم عُراها من جديد، وأنهما سيستعيدان مباهجَ الحياة في الفضاء الطلق، والمشي لساعاتٍ، ومواجهةِ الخطر معاً، والضّحك، مثلما يضحك الرجالُ من الدعابات البلهاء. كان يعتقد بانبعاث ما كان بينهما من صداقة قديمة، وأنهما على الرغم من

العلاقة التراتبية التي ستستمرُّ بينهما دائماً، سيستردّان تلك الصداقة التي سيُقصى منها ماتيلد، والعمّال، بل الطفلان كذلك.

حلَّقَ من الفرح عندما اقترحَ عليه أمين، في منتصف شهر ديسمبر، أن يساعده في إصلاح الحصّادة. قضيا ثلاثة مساءاتٍ وحيدَين داخل المخزن. اندهش أمين لحماس مراد الذي كان يُصفِّرُ في سعادة وهو يصعدُ فوق الآلة الهائلة. كان دائماً هو الذي يُصلِحُ الدبّابات إبّان الحرب. وذات مساء، ألقى أمين أداةً على الحائط، ووجهُهُ ملطخٌ بالزيت الأسود، ويداه ترتعشان من التعب والإحباط، غاضباً لأنه أنفق وقته وماله على تلك الآلة. كانت تنقصهما أجزاء ولم يعثرا عليها لدى أيِّ ميكانيكي في الناحية كلها. «من الأفضل أن نتخلّى عن الأمر، أنا سأعود إلى البيت». لكنّ مراداً لحقَ به، وحَثَّ أميناً بصوتٍ قويٍّ، بصوتٍ هزليٍّ، على أن يُظهِرَ الشجاعةَ والتفاؤلَ. زعمَ أنه قادرٌ على أن يصنع تلك الأجزاء الناقصة بنفسه، وقال له إنه مستعدّ أن يقطع ساقه أو ذراعه لو كان ذلك يُسْهِمُ في إصلاح الحصّادة. وأضحكَ كلامُهُ أميناً، الذي لم يكن في ذلك العهد يضحك كثيراً.

كان أمين مسروراً من نجاعة رئيس عمّاله، لكنه كان قلقاً من ذلك الجو الثقيل الذي أَرْسَتْهُ طرائقُهُ العسكريةُ. وغالباً ما يقصدهُ العمّالُ ليشتكوا منه. وكان مراد يطعنُ في الوطنيين، وشوهِدَ مراراً وهو يمشي في الطريق الكبيرة، وإصبعه الصغير يمسك بإصبع المقدَّم(1). وكان رئيس العمّال يفتخر بكونه عميلاً للنظام والتقدُّم.

(1) رجل سلطة في المغرب. موظَّف بسيط، يُعيَّنُ واحدٌ في كل حيٍّ من الأحياء وفي كل قرية من القرى. من بين مهامه جمع المعلومات. (المترجم)

وعندما تأثَّر أمين من تكرار اندلاع المشاجرات في المزرعة، وعندما قال له ما يشعر به من أسفٍ لرؤيته وجه الفلاحين المكفهرَّ صباح مساء، طمأنَهُ مراد. «ليس هذا وقت الضّعف. إنَّ الشبابَ يزرعون الفوضى في جميع أنحاء البلاد، يجب أن نُظهِرَ الصرامة».

«إنه ثقيلٌ على نفسي»، اعترفتْ له ماتيلد ذات يوم. لم تعد تطيقُ حضوره الذي يفرضُهُ أمين في وجبات الأُسرة، حتى يوم الأحد. تجدُهُ شبيهاً بالعُقاب بكتفيه الكبيرتَين النازلتَين، وأنفه المعقوف مثل منقار، وميله إلى الوحدة مثل آكل الجيفة، ولم يجد أمين، لأول مرة، الرغبةَ في معارضتها. يتحدَّثُ باستعاراتٍ حربية، وكثيراً ما اضطرَّ أمين لتنبيهه. «لا تقل مثل هذه الأمور أمام الطفلَين. ألا ترى أنَّكَ تخيفهما؟». كلُّ شيء، بالنسبة إلى رئيس العمّال، يدورُ حول الشَّرف والواجب، وجميع القصص التي يحكيها تتضمَّنُ حصَّتها من المعارك. كان أمين يُشفقُ على مُعاونه الذي ظلَّ عالقاً في الماضي مثل تلك الحشرات التي جمَّدَها العنبرُ في وضع سرمديّ معلَّق. كان يقرأ خَرَقاً، خلف غطرسة مراد، فقال له ذات مساء، وهما عائدان معاً من الحقول: «ستتعشّى معنا في عيد الميلاد. إنها أمسية عيد، والأمرُ مهمٌّ بالنسبة إلى ماتيلد». ووَدَّ أن يُضيف: «لا تتحدَّثْ لا عن فرنسا، ولا عن الحرب»، ولكنه لم يجرؤ على ذلك.

مكتبة
t.me/t_pdf

*

وجَّهت ماتيلد الدعوةَ، في عيد الميلاد، إلى أسرة بالوزي، فلَبَّتْ كورين دعوتَها بسرور. «ما أحزنَ عيد الميلاد دون أطفال، أليس كذلك؟» قالت لدراغان الذي انقبضَ قلبُهُ حينئذ. كانت كورين

تعتقد أنه لا يُدرِكُ معنى أن تعيش محرومةً من الأمومة. وكانت تتصوَّرُ أن ذلك الحزن غير متاح له، وتعتقد أن الرجال عموماً يجهلون كلَّ الجهل تلك المعاناة الحميمة. غير أن كورين كانت مخطئة. ذات يوم، عندما كان هو نفسه طفلاً، ولا يزال يعيش في بودابست، ارتدى دراغان الصغيرُ فستاناً من فساتين شقيقته تامارا. ضحكت الطفلةُ الصغيرةُ، وكادت أن تتبوّل في سروالها وردَّدَتْ: «ما أجملكِ! ما أجملكِ!»، وعندما علمَ والدُ دراغان بالأمر ركبهُ الغضبُ وعاقَبَ ابنَهُ. كان حذَّرَهُ من تلك الألعاب المنحرفة، ومن ذلك المنحدر المريب الذي انجرَّ نحوه. وعندما يتذكَّرُ دراغان ذلك، يغلبُ على ظنِّهِ أنَّ وَلَعَهُ بالنساء إنما نشأ في تلك الفترة. لم يرغبْ قَطُّ في امتلاكهنَّ، ولا حتى أن يكون مثلهُنَّ، إنَّ ما يؤثِّرُ فيه هي تلك القوة السحرية التي يمتلكنها، ذلك البطن الذي ينتفخ مثلما انتفخ بطنُ أُمِّهِ. لم يقل ذلك لأبيه، ولم يَقُلْهُ كذلك لأستاذه في الطِّبِّ الذي سألَهُ، وهو يتطلَّعُ إليه بخبث، عن سبب رغبته في التحوُّل إلى دراسة طبِّ النساء. أجاب فحسب: «لأنَّ النساءَ سيلِدْنَ دائماً أطفالاً».

كان دراغان يحبُّ الأطفالَ ويحبُّونَهُ. وتعشقُ عائشة الدكتورَ الذي يدُسُّ لها الحلويات بنكهة النعناع أو العرقسوس في كفِّها وهو يغمزها بتآمر. وكانت تحمدُهُ على ذلك السِّرِّ المحفوظِ بينهما أكثر مما تحمدُهُ على الحلويات، لأنَّ ذلك يمنحُها الانطباعَ أنها تهمُّهُ، أنها ذات أهمية. وكان يُحيِّرُها أيضاً، بسبب لهجته، وبسبب ذلك «السِّتار الحديديّ» الذي يُكثِرُ الحديثَ عنه، ويَوَدُّ أن يبعثَ خلفه برتقالاً ذات يوم، وربما مشمشاً كذلك. قالت ماتيلد إنه سيكون رفقة شقيقته، تامارا، التي كانت تعيش خلف الستار الحديديِّ هي كذلك، فتخيَّلَتْ عائشة تلكَ المرأةَ خلف مصراعٍ معدنيٍّ كبيرٍ، مثل المصراع

الذي يُسْدِلُهُ البقالُ السُّوسيُّ لحماية متجره. «يا للغرابة، قالت في نفسها. لِمَ قد يعيشُ إنسانٌ على تلك الحال؟».

*

في مساء عيد الميلاد، كان آل بالوزي آخر الواصلين، وتربّصتْ بهم عائشة متواريةً خلف ساقَيْ أمِّها. ظهرتْ تامارا، كانت امرأةً صفراء البشرة، ذات شعر نادر، تجمعهُ إلى الجانب فيما يُشبه تسريحة الكعكة على طريقة موضة الثلاثينيات. كانت عيناها الدائريتان، اللتان تعلوهما رموشٌ طويلةٌ مبيضّة، تلتهمان وجهها، فيحسبُ الناظرُ إليها أنَّ صوراً وذكرياتٍ حزينةً استقرَّتْ فيهما ولا تستطيع تلك المرأة أن تنصرف عن تأمّلها. كانت مثل عجوز عالقةٍ في ناعورة السيرك. ولم يشأ سليم، من شدة فزعه، أن يقتربَ بخدِّه منها عندما هَمَّتْ أن تُقبِّلَهُ بشفتيها الدقيقتين. وترتدي فستاناً قديماً، كثيرَ الرَّفْءِ في الكمّين والياقة. غير أنَّما استرعى نظرَ ماتيلد ما تعرضُهُ من حليٍّ نفيس فوق صدرها ويتدلّى من طرفَيْ أذنيها. بَهَرَتْها تلك الحليُّ الموروثةُ من زمن تليد، ومن عالم منقرضٍ، فعاملتْ تامارا معاملة ضيفة الشرف.

ابتهجَ البيتُ لوصولهم وامتلأ بالضحكات وصيحات العجب والدهشة. وهنَّأَ الجميعُ كورين على لباسها، فستان يُظهِرُ كعبَيها، وفَتَنَ الرجالَ ببروز صدره. حتى الأرملة ميرسييه التي التوى كاحلُها وظلَّتْ جالسة تحت نافذة الصالة، هنّأت الضيفةَ على أناقتها. واضطلع دراغان في تلك الأمسية بدور بابا نُويل. وطلبَ من طامو وأمين أن يساعداه في إفراغ صندوق سيّارته، وعندما ولجوا الصالةَ، وهم يحملون عُلَبَ الهدايا، أسرعتْ ماتيلد إلى استقبالهم. ونظرتْ

عائشة إلى أمها وهي ترتمي فوق الأرض، وقالت في نفسها: «إنها طفلة هي كذلك». «شكراً، شكراً!» ردَّدَتْ ماتيلد عندما اكتشفتْ بدايةَ قنّيناتِ التوكاي الهنغاري التي تمكَّن دراغان من الحصول عليها وفتحَ إحداها واقفاً وسطَ الصالة. «سيُذَكِّرُكِ طعمُهُ بكَرْمِ الألزاس المتأخِّرِ، سَتَرَيْنَ»، وصبَّ السائلَ الذَّهَبِيَّ في كأسٍ وشمَّهُ بتبجيل. «افتحي هذا الصندوق!» مزَّقَتْ ماتيلد الحبلَ ووجدَتْ في الصندوق أنواعاً من الأدوية، والأدوات، وكتباً في الطِّبِّ. أخذتْ كتاباً وضمَّتْهُ إلى صدرها. «إنه كتابٌ بالفرنسية!» صاح دراغان، ورفعَ كأسهُ في نخب صِحَّةِ الأطفال وبهجةِ اللَّمّة التي جمَعَتْهُمْ.

وافَقَتْ تامارا على أن تغنِّيَ، قبل العشاء، من أجل مُضيفَيْها. عرفتْ، إبّان شبابها، مجداً صغيراً في مجال الغناء، حيث أحْيَتْ حفلاتٍ في براغ، وفي فيينا، وفي ألمانيا، على ضفةِ بحيرةٍ لم تعد تذكر اسمها. وقفتْ أمام النافذة الكبيرة، ووضعتْ يداً على بطنها، ومَدَّت ذراعَها الأخرى، موجِّهَةً أصابعَها نحو الأفق. وانبثق من صدرها النحيل الأعجف صوتٌ قويٌّ، تهتَزُّ من قوَّته الأحجارُ الكريمةُ حول عنقها. كانت أغنيةً غايةً في الحزن، مثل شكوى عروس بحرٍ أو حيوانٍ غريبٍ منفيٍّ في الأرض ويسعى، بذلك النِّداء اليائِسِ، إلى العثور على أهله. وهرعت طامو، التي لم يسبق لها أن سمعت شيئاً مماثلاً، إلى الصالة. كانت ترتدي لباسَ خادمٍ أبيض وأسود، وغطاءَ رأس صغيراً مضحكاً، أَجْبَرَتْها ماتيلد على ارتدائه. كانت تصدر منها رائحةُ العرق، ووسَّختْ وزرتَها الجميلةَ المُجَنَّحَةَ بمسحها أصابعها فيها، على الرغم من كثرة ما ردَّدَتْ عليها ماتيلد: «هذه ليست ممسحة!». ألقت الخادمةُ على المغنِّيَةِ نظرةً مندهشةً، وقبل أن تشرع في الضحك أو أن ترفع صوتَها بملاحظة، انقضَّتْ

عليها ماتيلد وأعادَتْها إلى المطبخ. والتصَقَتْ عائشة بأبيها. كان في تلك الأغنية جمالٌ، بل ربما نوعٌ من السحر، لكن جميع عواطف أمين كانت كأنها مدفونةٌ أو مخنوقةٌ بإحساسٍ بالحرج رهيبٍ. كان يستحي من ذلك الحفل، ولكنه لا يعرف السّبب.

بعد العشاء، خرج الرجالُ للتدخين على درج المدخل. كانت الليلةُ مضيئةً، ويمكن تمييز شكل شجر السَّرو البذيء فوق السماء الأرجوانية. وكان أمين ثَمِلاً قليلاً وشعر بأنه سعيد، واقفاً فوق المدخل، أمام بيته وضيوفه. قال في نفسه: «أنا رجلٌ، أنا أَبٌ. أملكُ أشياء». وتركَ ذهنَهُ يسرحُ في حلم يقظة غريبٍ وخفيف. رأى من خلال زجاج النافذة مرآةَ الصالة ينعكسُ عليها خيالُ زوجته وطفلَيه. والتفتَ بنظره إلى الحديقة وشعرَ، نحو الرجال المحيطين به، بصداقة شديدةٍ، ومُتَّقِدَةٍ، ولَّدَتْ لديه رغبةً حمقاءَ في معانقتهم وضَمِّهِم إليه، والتعبير لهم عن مشاعره. أخبرهم دراغان، الذي كان ينتظرُ جَنْيَ أوَّلِ غَلَّةِ برتقال في الربيع المقبل، أنه عثر على تاجر ويكاد يعقدُ معه اتفاقاً. ووجدَ أمين صعوبةً في التركيز بسبب تأثير الخمر، تتفَلَّتُ منه أفكارُهُ مثلما تتطايرُ رؤوسُ نبات الهِنْدِبَاءِ عندما تهُبُّ عليه الريح. لم ينتبه إلى أنَّ مراداً كان ثَمِلاً بدوره، ولا يصمُدُ واقفاً إلّا بصعوبة. كان رئيسُ العمّال قد تعلَّقَ بعُمر ويخاطِبُهُ بالعربية. «إنه رخوٌ»، قال عن دراغان، وعندما قهقهَ تطاير اللُّعابُ من بين أسنانه الناقصة. كان يغار من أناقة الهنغاريِّ، ومن الاهتمام الذي يخصُّهُ به أمين، ويُحِسُّ بنفسه سخيفاً في قميصه الرَّثِّ، وفي تلك السُّترة التي منحَتْها إياهُ ماتيلد، ليس كرَماً، بل لأنها لا تريد أن تشعر بالخجل أمام أولئك الضيوف الأجانب.

وكان عمر لا يطيقُ العسكريَّ القديم. مسحَ اللُّعابَ الذي بلَّلَ عنقه، ورفع عينيه إلى السماء عندما انخرطَ مراد في أحاديثه الأبدية حول الحرب. أَطْرَقَ جميعُ الحاضرين. فلا اليهوديُّ، ولا المسلمُ، ولا أي واحد من الذين عاشوا تلك السنوات، سنوات العار والخيانة، يرغبُ في أن أن تفسد السهرةُ بذلك الحديث. أشار مراد، وعيناهُ تترنَّحان، إلى أعوامه في الهند الصينية. «الشيوعيون الأوغاد!» صاح، ونظر دراغان إلى داخل البيت، باحثاً عن نظرة امرأة متواطئة. وفجأةً، انتزَعَ عمرُ نفسه، ففقد مراد توازنه وتهاوى فوق الأرض.

«ديان بيان فو! ديان بيان فو!» ردَّدَ عمرُ، وهو يَتخبَّطُ مثل شيطان، وقد تقلَّصَ فَمُهُ من الحَنَق. انحنى عمر، وأمسكَ مراداً من ياقته، وبصقَ في وجهه. «أيها الخائن! الجنديّ الحقير، تسمحُ للفرنسيين باستغلالكَ. أنتَ خائنٌ للإسلام، وخائنٌ لوطنكَ». قرفصَ دراغان ليفحصَ الجرحَ الذي أصيب به مراد عند سقوطه. واقتربَ أمين، الذي طارتْ سكرتُهُ، من شقيقه، وقبل أن يحاول أن يُعَقِّلَهُ، وقعتْ عليه نظرةُ عمر الحسيرةُ فجمَّدَتْهُ. «سأنصرفُ. لا أعرف ما الذي أصنعُهُ في بيت الفاسدين هذا، أحتفل بإله ليس حتى بإلهي. ينبغي أن تشعر بالحياء أمام طفليك وعُمَّالكَ. ينبغي أن تخجل من احتقاركَ لشعبكَ. يحسنُ بكَ أن تحذر. سيرى الخونةُ أيَّاماً سوداً عندما سنستعيدُ البلد». ولّاهُ عمرُ ظهرَهُ واختفى في الظلام، وانمحى خيالُهُ الطويلُ شيئاً فشيئاً، كأنَّ البادية التهَمَتْهُ.

كانت النسوةُ سمعنَ الصراخَ وقلقن وهنّ يشاهدنَ مراداً مطروحاً على الأرض. أسرعتْ كورين إليهم، ولم يتمكَّن أمين، على الرغم من غضبه، وعلى الرغم من حزنه، من أن يمسك نفسه عن الضحك

عند رؤيتها. كان ثدياها الضخمان يفرضان عليها أن تجريَ بطريقة مضحكة، تقفز مثل معزاةٍ، مستقيمة الظَّهر، وذقنُها منطلقٌ إلى الأمام. رَبَّتَ دراغان على ظهر مُضيفه وقال بالهنغارية ما معناه: «لا ينبغي أن نفسد الحفلَ. هيّا لنشرب!».

VII

لم يعد عمر. مرَّ أسبوعٌ، ثم شهرٌ، ولم يظهر له أثرٌ.

ذات صباح، وجدتْ ياسمين، أمام الباب المُسَمَّرِ، قُفَّتين مليئتين بالطعام. كانتا جِدَّ ثقيلتين، فاضطرّتْ إلى أن تجرَّهما جرّاً على الأرض إلى غاية المطبخ وصاحتْ مناديةً على مِّي لالَّة. «دجاجتان، بيض ولوبيا. انظروا إلى هذه الطماطم وإلى كيس الزعفران!» انقضَّتْ مِّي لالَّة على العبدة السابقة وضربَتْها. «اجمعي كلَّ هذا! أتسمعين، اجمعيه!» كانت ترتعشُ والدموعُ تغمُرُ وجهها الذابلَ. كانت مِّي لالَّة تعلمُ أنَّ الوطنيّين يوزِّعون على أُسَرِ الشهداء أو السجناء قِفافَ الطّعام وأحياناً بعض المال. «أيتها البلهاء! الغبية! ألا تفهمين أنَّ سوءاً قد حلَّ بابني؟».

وعندما جاء أمين يزورها، كانت العجوزُ جالسةً في الفِناء، ولأول مرة رآها حاسرةً، تتدلّى خصلاتٌ شيباء وشعثاء على ظهرها. نهضَتْ، غاضبةً، ونظرتْ إليه بحنق.

«أين هو؟ لم يعد إلى البيت منذ شهر كامل! النبيُّ يحفظُهُ! لا تخفِ عني شيئاً، أمين. إن كنتَ تعلمُ شيئاً، إن أصابَ ابني شرٌّ، أرجوكَ أخبرني بالأمر». لم تَنَمْ مِّي لالَّة منذ أيّام، وكانت قَسَماتُ وجهها مشدودةً، وأصابَها هزالٌ.

«لا أخفي عنكِ شيئاً. لماذا تتّهمينني؟ عمر منذ شهور وهو يعاشر جماعة من المتمرِّدين، هو الذي عرَّضَ أمْنَ أسرتنا للخطر. فلِمَ تلومينني أنا؟».

طفقتْ مِّي لالَّة تبكي. كانت تلك أول مرة تشتعلُ مشاجرةٌ بينها وبين أمين.

«اعثُرْ عليه يا ولدي، اعثُرْ على شقيقك. أَعِدْهُ إلى البيت». قبَّلَ أمين رأسَ أُمِّهِ، وشدَّ على يديها، وقال لها يعدها:

«سيكون كلُّ شيء على ما يُرام. سأعيدُهُ. أنا واثقٌ من وجود تفسير معقول».

كان غياب عمر، في الحقيقة، يُعذِّبُهُ. طرقَ أمين لأسابيع أبوابَ الجيران، وأبواب أصدقاء الأسرة، وأبواب علاقاته القليلة في الجيش. ذهب إلى المقاهي حيث شوهِدَ أخوه مراتٍ كثيرة، وقضى مساءاتٍ كاملةً جالساً أمام المحطّة الطرقية ينظر إلى انطلاق الحافلات نحو طنجة والدار البيضاء. وكثيراً ما كان ينتفضُ، ويهبُّ واقفاً ويركُضُ ليُلاقيَ رجلاً يُذَكِّرُهُ مظهرُهُ أو مِشْيَتُهُ بشقيقه. يُرَبِّتُ على ظهر الغريب الذي يلتفتُ نحوه فيقول له أمين: «آسف سيدي. أخطَأْتُ».

تذكَّرَ أنَّ عمر حدَّثَهُ مراراً عن عثمان، رفيقه في الثانوية، والذي كان أصله من مدينة فاس، فقرَّرَ السفر إلى هناك. وصل عند أوَّل المساء إلى أعالي المدينة المقدَّسة وتوغَّلَ في أزقَّةِ المدينة العتيقة الرّطبة. كان ذلك في شهر فبراير حزينٍ وشديدِ البرودة، ينشرُ ضوءَهُ الكئيبَ على الحقول المخضَرَّةِ والجوامع الفخمة في المدينة الإمبراطورية. استرشد أمين في طريقه بالمارّة الذين كانوا يُسرعون الخطى وترتعد فرائصُهم من البرد، غير أنَّ كلَّ واحد منهم دَلَّهُ على

اتجاه مختلف، وبعد أن قضى ساعتَين تائهاً استبدَّ به القلقُ. كان يضطرُّ باستمرار إلى الالتصاق بالجدار ليُفسِحَ الطريقَ لحمارٍ أو عربة. «بالَك، بالَك!» فينتفضُ أمين، وقد تبلَّلَ قميصُهُ بالعرق على الرغم من برودة الجو. اقتربَ منه شيخٌ ذو بشرة باهتة واقترح عليه، بصوت رقيق ينطق الراءَ غيناً، أن يرافقهُ. سارا في صمتٍ، يقتفي أمين خطوات ذلك الرجل الأنيق الذي كان يُحَيِّيهِ الجميع. «هُنا»، قال الرجلُ وهو يشير إلى باب، وقبل أن يتمكَّنَ أمين من شُكره، غابَ في زقاق.

فتحتْ له البابَ خادمةٌ لم تتجاوز الخامسة عشرة، وقادَتْهُ إلى صالة صغيرة في الطابق السفليّ. وانتظر طويلاً في ذلك الرياض الخالي والصامت. نهضَ مِراراً وتفقَّد بحذرٍ أرجاءَ الفِناء المركزيّ. ونظر من خلال الأبواب المواربة، وطرقَ الرخام بحذاءيه لعلَّه يوقظُ السكّان الذين ربما يكونون نائمين في ذلك الوقت من بعد الزوال. كان الرياضُ رحباً مُزَيَّناً بذوقٍ رفيع. وتوجد قبالةَ النافورة حُجرةٌ كبيرةٌ، تحوي مكتباً من خشب الماهوجني، وُضعت قربه أريكتان مكسوَّتان بثوب ثمين. وينمو في الفِناء ياسمين عَطِرٌ، ووستاريةٌ تصعد إلى حدود درابزين الطابق الأول. وكانت الجدران، على يمين باب المدخل، في الصالة المغربية، مزيَّنَةً بمنحوتاتٍ من الجبس، والسقفُ مصنوعاً من خشب الأرز تكسوهُ رسوماتٌ ملوَّنةٌ.

كان أمين يهُمُّ بالانصراف إذ بالباب ينفتح ويدخل رجلٌ. كان يرتدي جلباباً مخطَّطاً وطربوشاً. لحيتُهُ مُشذَّبةٌ بعناية، ويحمل تحت ذراعه كومةً من الملفّات، محشورةً داخل غلافٍ جلديٍّ أحمر. اندهش الرجلُ من وجود غريبٍ في بيته وعقد حاجبيه.

«طاب نهاركَ سيدي! أعتذرُ عن إزعاجك. سُمِحَ لي بالدخول».

ظلَّ صاحبُ البيت صامتاً.

«اسمي أمين بلحاج. مرة أخرى أعتذر عن إزعاجكَ في بيتك. أبحثُ عن أخي، عمر بلحاج. أعلمُ أنه هو وابنك صديقان وفكّرتُ أني قد أجِدُهُ هنا. بحثتُ عنه في كل مكان وأمي تكاد تهلك قلقاً عليه.

- عمر، أجل أكيد، أرى الشَّبَهَ الآن. كنتَ في الجبهة عام 40، أليس كذلك؟ شقيقُكَ ليس هنا، أنا آسف. ابني عثمان طُرِدَ من الثانوية ويدرسُ الآن في آزرو. لم يَرَ أخاكَ منذ مدة طويلة».

لم يتمكّن أمين من مواراة خيبته. دَسَّ يديه في جيبيه وظلَّ صامتاً. «تفضَّل بالجلوس»، رجاهُ صاحبُ البيت، وفي تلك اللحظة عادت الخادمةُ ووضعت على الطاولة النحاسية إبريقاً من الشّاي.

كان الحاج كريم رجل أعمال ثريّاً ويُديرُ مكتباً يقدِّمُ استشارات لزبائنه حول الممتلكات العقارية والاستثمارات. كان لديه مستخدَمٌ، وآلة كتابة، ويتمتَّعُ بالثقة في حَيِّهِ، وحتى خارج حيِّهِ. وكان الناس في فاس، وفي المنطقة بكاملها، يطلبون حمايةَ ذلك الوجيه المُهِمِّ، المقرَّبِ من الأحزاب الوطنيّة، ولكنه صديقٌ لكثير من الأوروبيين. يقوم مرّةً كلَّ عامَين برحلة استشفائيّة إلى شاتيل-غويون لعلاج الرّبو والأكزيما. يحبُّ الخمرَ، ويُنصت للموسيقى الألمانية، واشترى من سفيرٍ سابقٍ لإنجلترا أثاثاً من القرن التاسع عشر يُضفي على رياضه مظهراً ممتازاً. كان رجلاً يستعصى الإمساك به، فمرةً يُتَّهَمُ بكونه عميلاً للسلطات الفرنسية، ومرة بكونه من أخطر رؤوس الوطنية المغربية.

«كنتُ أعمل لصالح الفرنسيين في الثلاثينيات، هكذا بدأ

حكيَهُ. كنتُ أحَرِّرُ العقودَ، وأُنْجِزُ قليلاً من الترجمة القانونية. كنتُ موظَّفاً أميناً ولم يكن لديهم ما يؤاخذونني عليه، والحمد لله. ثم ساندتُ في 1944 وثيقةَ الاستقلال وشاركتُ في المظاهرات. فطردني الفرنسيون، وعندئذ أقمتُ مكتبي الخاص باعتباري مدافعاً معتمَداً في القانون المغربي. من الذي يقول إننا بحاجة إليهم، أليس كذلك؟» وتعكَّر وجهُ الحاج كريم. «آخرون كانوا أقلَّ حظّاً مني. بعض أصدقائي نُفوا إلى تافيلالت، وآخرون عُذِّبوا من لدن مسعورين حقيقيين كانوا يضغطون أعقاب السجائر على ظهورهم، ويسعون إلى أن يُحوِّلوهم إلى مجانين. ما الذي كان يمكنني فعلُهُ؟ حاولتُ أن أساعد إخواني. نظَّمتُ جمعَ تبرّعات لتمويل دفاع المعتقلين السياسيين. وذات يوم، ذهبتُ إلى المحكمة آملاً في مؤازرة معتقَلٍ شابٍّ أو أن أطمئنَ فقط أبّاً دمَّرَتْهُ همجيّةُ الحُكم. ورأيتُ، أمام البناية، رجلاً جالساً على الأرض يصيحُ بكلمةٍ لم أكن أُدرِكُ معناها. دَنَوتُ منه وشاهدتُ فوق الأرض، ثلاثَ أو أربعَ ربطات عنق طرحَها بعناية فوق قطعة من الثوب. ظنَّ التاجرُ أنه ظفر بالزبون المناسب، فألحَّ في أن يبيعني إحداها لكنني قلتُ له إن الأمر لا يهمّني وتوجَّهتُ إلى المحكمة. كان حشدٌ من الناس يتدافعون أمام الباب. رجال يجأرون بالدُّعاء، ونساءٌ يَنْدُبْنَ. صدِّقني السي بلحاج، أتذكَّرُ كلَّ واحد منهم. آباء يشعرون بالإهانة بسبب عجزهم، ويمدّون إليَّ وثائقَ لا يستطيعون قراءتَها. يوجِّهون إليَّ نظراتٍ متوسِّلةً، ويقولون للنساء أن يُفسحن المكان وأن يصمتن، لكن الأمهات المكلومات لا يُنصِتن لأحد. وعندما تمكّنتُ أخيراً من الوصول إلى باب الولوج إلى المحكمة، عرَّفتُ بنفسي، وبيَّنْتُ أنني رجل قانون، لكن البوّابَ كان قاطِعاً. يستحيل الدخولُ إلى القاعة

دون ربطة عنق. وجدتُ صعوبةً في تصديقه. فما كان عليَّ إلّا أن أعود إلى البائع الجالسِ على الأرض، خجلانَ أسِفاً، والتقَطْتُ ربطةَ عنق زرقاء. دفعتُ ثمنها دون أن أنبس بكلمة، وربطتُها فوق جلبابي. كنتُ سأجدني سخيفاً لولا أنني شاهدتُ، فوق الدرج المؤدِّي إلى قاعات المحاكمات، آباء قلقين، قد رفعوا غطاء رأس الجلباب بواسطة ربطة حول العنق». رشفَ الرجلُ من الشاي رشفةً. وكان أمين يهُزُّ رأسَهُ. «أنا مثل جميع أولئك الآباء، سي بلحاج. أنا فخور بأنَّ عندي ابنٌ وطنِيٌّ. فخورٌ بكلِّ أولئك الأبناء الذين يثورون ضد المحتَلّ، ويعاقبون الخونةَ، ويكافحون من أجل القضاء على استعمار ظالم. لكن كم سيتطلَّبُ الأمرُ من عمليات قتل؟ وكم من محكومٍ عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص لنرى قضيَّتَنا ظافِرَةً؟ عثمان الآن في آزرو، بعيداً عن كل هذا. يجب عليه أن يدرسَ وأن يكون جاهزاً لقيادة هذا البلد عندما سيصبح مستقلاً. اعثُرْ على شقيقكَ. ابحثْ عنه في كل مكان. وإن وجدتَهُ في الرباط، أو في الدار البيضاء، أعِدْهُ إلى البيت. أُقَدِّرُ الذين يقبلون بقلبٍ صادقٍ استشهادَ أهلهم. لكنني أفهمُ أكثر أولئك الذين يريدون أن يُنقذوهم بأيِّ ثمن».

أوقِدَتْ شمعدناتٌ كبيرةٌ في الفِناء حيث نزلَ الليلُ وعمَّ الظلامُ. لمحَ أمين، فوق دولابٍ، ساعةً جميلةً من الخشب، من طراز فرنسيٍّ، يلمعُ إطارُها المذهَّبُ في الضوء الخافت. أَصَرَّ الحاج كريم على أن يرسلَ مع أمين من يرافقه إلى غاية أبواب المدينة العتيقة حيث ركنَ سيارته. وقبل أن يفارقه، وعدَهُ أن يستعلِمَ عن أخيه، وأن يتصل به إذا ما علمَ بأمرٍ ما. «لديَّ أصدقاء. لا تقلقْ، لا بدَّ أن ينتهي أحدُهم إلى إخباري بأمره».

لم يتوقف أمين، في طريقه إلى المزرعة، عن التفكير فيما حدَّثه به ذلك الرجل. خطر بباله أنه ربما يعيش بعيداً كلَّ البُعد عن كل شيء، وأنَّ تلك العزلةَ جعلتْ منه نوعاً ما مذنباً، وأعمتْ بصيرتَهُ. كان جباناً، بل أخسَّ جبان، احتفر لنفسه جحراً واختبأ فيه آمِلاً ألّا يصل إليه أحدٌ، وألّا يراهُ أحدٌ. وُلِدَ أمين وسطَ هؤلاء الرجال، ووسطَ هذا الشعب، لكنه لم يفتخر قطُّ بذلك الانتماء. على العكس، سعى كثيراً إلى طمأنة الأوروبيين الذين يلقاهم. حاولَ أن يُقنعهم أنه هو مختلفٌ، ليس خبيثاً، ولا قدريّاً، ولا كسلان، مثلما يحبُّ الفرنسيون أن ينعتوا مغاربتهم. كان يعيش مثقَلَ الصَّدر بتلك الصورة التي يحملها الفرنسيون عنه. اعتاد، عندما كان مراهقاً، أن يمشيَ ببطء، محنيَّ الرأس. كان يعلمُ أنَّ بشرته الغامقةَ، ومظهره القصير البدين، وكتفيه الواسعتَين، تذكي الشُّكوكَ. لكنه كان يضع يديه تحت إبطيه مثل إنسان أقسمَ ألّا يتشاجر. وها هو الآن يبدو له أنه يعيش في عالم لا يسكُنُهُ سوى الأعداء.

كان يغار من تعصُّب شقيقه، ومن قدرته على الانتماء. كان يوَدُّ لو أنه لا يعرف الاعتدالَ، ولا يخاف الموتَ. فهو إنما يفكِّرُ، في أثناء لحظات الخطر، في زوجته وفي أمِّهِ. يُلْزِمُ نفسَهُ دائماً بالاستمرار في الحياة. في ألمانيا، في المعسكر حيث اعتُقِلَ، اقترحَ عليه رفاقُهُ في التخشيبة أن يشارك معهم في مشروع هروب. كانوا درسوا بدقّةٍ جميعَ الاختيارات المتاحة لهم. سرقوا مقصّاتٍ لتقطيع الأسلاك الشائكة؛ وجمعوا بعض المُؤن. استطاع أمين أن يجد كلَّ مرة، مدَّةَ أسابيع، تَعِلَّةً لكي لا يُقْدِموا على الأمر. «الظلام شديدٌ، لن ننجو في هذه الغابات المتجمِّدة. لننتظِر أن يتحسَّنَ الجوُّ». وكان الرجالُ يثقون فيه أو ربما كانوا يسمعون في تلك الاحتياطات صدى

خوفهم أنفسهم. مرَّ فصلان، فصلان من المماطلة وتعذيب الضمير، فصلان يتظاهرُ فيهما بالتلهُّف على الهروب. كانت الحرية، من دون ريب، هاجساً يشغلُهُ، ويسكنُ جميعَ أحلامه، لكنه لم يكن ليَقبَلَ أن يتلقّى رصاصةً في الظهر، أو أن يموت مثل كلبٍ عالقاً في الأسلاك الشائكة.

كان اختفاء عمر، بالنسبة إلى سلمى، بدايةَ عهد من الفرح والحريات. لم يعد لا من يراقبها، ولا من يشغل باله بغيابها وكذبِها. ظلتْ طوالَ مراهقتها تعرضُ، بفخرٍ شرّيرٍ، رَبلَتيْها المكسوَّتين بالكدمات الزرقاء، وخدَّيْها المنتفخَين، وعينيها نصف المغمضتَين. وكانت تقول دائماً لصديقاتها اللواتي يرفضن مجاراتها في حماقاتها: «لِمَ سنحرمُ أنفسَنا؟ سنتلقّى الصفعات في جميع الأحوال». وكانت، كي تذهبَ إلى السينما، تَلُفُّ نفسَها في حايك، كي لا تُعرَف، وعندما تستقرُّ في القاعة المظلمة تسمحُ لرجالٍ بأن يداعبوا ساقيها العاريتَين وتقول في نفسها: «كلُّ هذا سعادةٌ لن تُنتَزَعَ مني». وكانت تجد عمر، في غالب الأحيان، ينتظرها في الفِناء، فيوجِعُها ضرباً ويُدْميها، على مرأى من مِّي لالَّة. وذات مساء، ولم تكن سلمى أكملت الخامسة عشرة، عادت من المدرسة متأخرة، وعندما طرقتْ باب البيت في برّيمة، رفضَ عمر أن يفتح لها. كان الفصلُ شتاءً، والليل ينزل مبكِّراً. أقسَمَتْ أنَّها تأخّرتْ في الدّرس، ولم تفعل أيَّ سوء، واستحلفتْهُ بالله وبرحمته. سمعتْ من خلف الباب المُسَمَّر صرخاتِ ياسمين تتوسّلُ إلى الشّابِّ أن يسامحها. غير أنَّ عمر لم يتراجع، واضطرّتْ سلمى إلى أن تقضيَ الليلةَ كلَّها في

الحديقة الصغيرة المجاورة، مُمَدَّدَةً فوق العشب الخَضِل، تكاد تموتُ من الخوف والبرد.

كانت تكرهُ ذلك الأخَ الذي يُحرِّمُ عليها كلَّ شيء، ويرميها بالمومس، وبصقَ مراراً على وجهها. ألفَ مرّة تمنَّتْ موتَهُ، ولعنَتْ حظَّها العاثرَ الذي يفرض عليها أن تعيش تحت سيطرة رجل عنيف كلَّ ذلك العنف. كان يضحك من رغبات شقيقته في الحرية. يردِّدُ دائماً بصوتٍ لاذعٍ، عندما تستأذنه في زيارة إحدى جاراتها. «الصديقات، الصديقات، لا تفكِّرين سوى في التسلية؟». كان يرفعُها سنتيمترات عن الأرض، ويُلْصِقُ وجهه بوجه الفتاة المرتعشة، ويُلقي بها بقوة على الجدار أو فوق درجات السلَّم.

وعندما اختفى عمر، ولم يعد أمين، تحت وطأة العمل في مزرعته، يزورهم إلا لِماماً، ابتهجتْ سلمى. وأخذتْ تعيش حياتَها مثل بهلوان، واعيةً أنَّ تلك الحريّة عمرُها محدودٌ، وأنها قريباً، مثلها مثل أكثر الجارات من سِنِّها، لن تستطيع أن تصعد إلى السطح بسبب بطنها المنتفخ أو بسبب زوجٍ غيور. كانت النسوةُ في الحمّام ينظرن إلى جسدها، وبعضهنَّ يداعبن خصرَها، بل إنَّ مُدَلِّكةً لمست جسدها بإعجاب، وقالت لها: «سيكون زوجُكِ رجلاً محظوظاً». رَجَّها لمسُ تلك اليد المزيَّتة، وتلك الأصابعِ السوداء المعتادة على دَلْكِ الأجساد. أدركَتْ أنَّ في داخلها شيئاً يحتاج إلى الإشباع، شيئاً محروماً، فجوةً لا تطلبُ سوى أن تُمْلأَ. تقدَّمَ رجالٌ لخطبتها. كانوا يجلسون في الصالة، وتجلس هي على درج السلَّم، تراقبُ بعينَين قلقتَين أولئك الآباءَ، وهم يُصدرون أصواتاً وهم يرشفون الشايَ، ويتظاهرون بالبصق لإبعاد القطط التي تطوف حولهم. كانت مِّي لالَّة تستقبلهم، باديةَ الاضطراب، وتُنصِتُ لطلباتهم، فإذا أدركَتْ أنَّ الأمر

لا يتعلَّقُ بابنها، وأنَّ أولئك الرجال لا يعلمون شيئاً عمَّا أصابَ عمر، نهضتْ وخلَّفت الرجلَ وحيداً دقائقَ عديدةً، ذاهلاً، ثم يغادر منزل المجانين دون أن يلتفتَ. حسبتْ سلمى حينئذ أنها نُسِيَتْ. ولا يوجد أحد في تلك الأسرة يتذكَّرُ وجودَها، وفرحتْ بذلك.

أخَذَتْ تتغيَّبُ عن حصص المدرسة وتتجول في الشوارع. ألقتْ بكتبها ودفاترها، وقلَّصتْ من حاشية فساتينها، وساعدَتْها صديقةٌ إسبانيةٌ في نَمْصِ حاجبيها وقَصِّ شعرها وفق آخر صيحات الموضة. وسرقتْ من درج الخزانة الصغيرة ما يكفيها من المال لابتياع السجائر وقنينات الكوكا كولا. وعندما هدَّدَتْ ياسمين بأن تَشِيَ بها، أخذَتْها بين ذراعيها وقالت لها: «آه لا، ياسمينتي، لن تفعلي ذلك». كانت الأمَةُ السابقةُ، التي لم تعرف سوى العيش في بيوت الآخرين، ولم تجترح سوى الطاعة والصمت، قد اكتسبت السلطةَ على البيت. تحمل في حزامها حلقةَ مفاتيح ثقيلة يتردَّدُ صداها في المَمَرِّ والفِناء. كانت مسؤولةً عن مخزون الدقيق والعدس، الذي تُصِرُّ مِّي لالَّة على تخزينه متأثِّرةً بمعاناة الحروب وفترات الجدب. وكانت هي الوحيدة التي يمكنها أن تفتح أبوابَ الحجرات، وصناديقَ الأرز المزيَّنةَ بسعف النخل، والدواليبَ الكبيرةَ حيث تركت مِّي لالَّة جهازَ زواجها يتعفَّنُ. وفي الليل، عندما كانت سلمى تختفي من وراء ظهر أمِّها، كانت العجوزُ السوداءُ تجلسُ تنتظرها في الفِناء. لا يبدو منها في الظلام سوى أطراف السجائر المشتعلة التي لا تكاد تضيء وجهَها المتغضِّنَ من أثر السنين. كانت تفهمُ، لكن بكيفية غامضة فحسب، رغبةَ تلك الفتاة في الحرية. كانت تسلُّلاتُ سلمى توقِظُ في قلب العبدة المسكينة رغباتٍ انطفأتْ منذ زمن بعيد، أوهاماً في الهروب، وآمالاً في اللِّقاء.

*

قضتْ سلمى، في أثناء شتاء 1955، صباحاتها في السينما وأمسياتها عند جاراتها أو داخل مقهى يشترطُ صاحبُها دفعَ ثمن المشروبات مسبقاً. يتحدَّثُ الشبابُ فيها عن الحُبِّ والسَّفر، والسيارات الجميلة، وأفضل الطُّرق للإفلات من رقابة الآباء. كان الحديث يدور دائماً حول الآباء الذين لا يفهمون شيئاً، ولا يرونَ أنَّ العالم قد تغيّر، ويلومون الشبابَ على اهتمامهم بالمراقص وبحمّامات الشمس. وكان أصدقاء سلمى يَصْدَعون، بين مباراتَين في كرة قدم الطاولة، وقد استثارتْهُم أيامُ البطالة الطويلة، أنهم ليس عليهم أن يخضعوا لأولئك الشيوخ الذين هم آباؤهم. لقد سئموا من سماع الحديث عن فيردان، ومونتي كاسينو، والرُّماة السينغاليين، والجنود الإسبان. مَلُّوا من ذكريات المجاعة، والأطفال الذين ماتوا وهم صغار، والأراضي الضائعة إثر معركة. لم يكن الشباب منشغلين سوى بالرُّوك آند رول، والأفلام الأميركية، والسيارات الجميلة، والخرجات رفقة الفتيات اللواتي لا يخشين الهروبَ من البيت. وكانت سلمى فُضْلاهنَّ بالنسبة إليهم. ليس لأنها تفوقُهُنَّ جمالاً أو جرأةً، بل لأنها تُضْحِكُهُمْ، ويشعرون أنها تختزنُ رغبةً في الحياة، شديدةً، لا يبدو أنَّ شيئاً قادراً على أن يلجمها. كانت رائعة عندما تُقلِّدُ فيفيان لي في فيلم ذهب مع الريح، وتَهُزُّ رأسَها قائلة بصوت حادٍّ: «الحرب، الحرب، الحرب، تاراتاتا!». وأحياناً أخرى، تسخرُ من أمين، فَيَنْثَنِي الجمعُ من الضحك أمام تلك الفتاة الرائعة، وقد عقدَتْ حاجبيها، ونفختْ صدرَها مثل جنديٍّ طاعنٍ في السنِّ فخورٍ بنياشينه. «ينبغي أن تكوني سعيدةً لأنكِ لم تجوعي قطُّ، كانت تقول بصوت غليظ، وهي تمدُّ سبّابتَها في الهواء. أنتِ لم تعرفي الحربَ، أيتها الحمقاء». لم تكن سلمى تخاف. لم تفكِّرْ قطُّ في أنها

قد تُعرَفُ، وقد يشي بها أحدُهم. ولم يخطر ببالها أنها تجترح سوءاً. كانت تؤمن بحظِّها وتحلمُ بالحُبِّ. تقيسُ، كلَّ يوم، بمزيج من الفزع والإثارة، مدى العالم، ومدى الاحتمالات المُتاحَة أمامها. كانت مكناس تبدو لها صغيرةً، مثل لباس شديد الضيق يشعرُ المرءُ داخله بالاختناق ويخشى أن يمزِّقَهُ عند كلِّ حركة يأتيها. فتستبدُّ بها عندئذٍ نوباتُ الامتعاض والغضب، فتغادر مُدَمدمةً غرفة صديقةٍ، أو تقلبُ كؤوسَ الشاي الحارقة فوق طاولةٍ في المقهى. كانت تقول: «تدورون في مكانكم، الأحاديثُ نفسُها دائماً، دائماً!». كانت تجد أصدقاءَها عاديين، وتحدُسُ خلفَ تمرُّداتهم المراهِقَةِ ميلاً حقيقيّاً إلى المحافظة والانصياع، حيث بدأت بعضُ الفتيات يتجَنَّبْنَها. لا يُرِدْنَ المخاطرةَ بسُمعتِهِنَّ بأن يُشاهَدْنَ برفقتها.

كانت سلمى تجد في بعض الأمسيات ملجأً في بيت جارتها، مدموزيل فابر. كانت الفرنسيةُ تعيشُ في المدينة العتيقة منذ أواخر سنوات 1920، في رياض قديم يريدُ أن ينقضّ. تسود فيه فوضى فظيعةٌ؛ الصالةُ مكتظَّةٌ بمقاعدَ وسخةٍ، وصناديق مبعوجةٍ، وكتبٍ هُرِقَ عليها الشايُ أو الطّعامُ. قرَضَت الفئرانُ البُسُطَ وتشيعُ في الجو رائحةُ ما بين الفخذين والبيضِ المتعفِّن. كانت مدموزيل تُؤْوي في بيتها جميعَ من يسكن في المدينة العتيقة من بؤساء، ولم يكن من النادر أن يُشاهَدَ يتامى، أو أرامل صغيرات السِّنِّ دون سَنَدٍ، ينامون على الأرض في زاوية من زوايا الصالة. في الشتاء، يسيل الماءُ من السقف، فيمتزجُ صوتُ قطرات المطر، التي تصطدمُ بالطِّساس المعدنية، بصرخات الأطفال، وصريرِ عجلات العربات التي تَمُرُّ في الشارع، وطقطقةِ آلاتِ الحياكة الموجودة في الطابق. كانت مدموزيل دميمةً. كان أنفُها، ذو المنخرَين الواسعَين، غليظاً

ومشوَّهاً، وحاجباها رماديين أمعطَين، ومنذ سنوات يهُزُّ فكَّها رُعاشٌ يجعلُ نطقَها صعباً. وكان يمكن تخمينُ بطنها العظيم وساقيها الغليظتين، المكسوَّتين بالدَّوالي البنفسجيّة، تحت الحذاء الواسع الذي كانت تلبسه. وتحمل في عنقها صليباً من العاج لا تني تداعبُهُ مثل طلسم أو تميمة. كانت جلَبَتْه من أفريقيا الوسطى، وهو المكان الذي نشأتْ فيه ولا تحبُّ الحديثَ عنه. لم يكن أحدٌ يعرفُ شيئاً عن طفولتها ولا عن السنوات التي سبقتْ وصولها إلى المغرب. وكان يقالُ في المدينة العتيقة إنها كانت في الماضي راهبةً، ابنة رجل أعمال في الصناعة، عشقَتْ حَدَّ الجنون رجلاً جاء بها إلى المغرب ثمَّ تخلّى عنها.

كانت مدموزيل تعيش، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، بين المغاربة، تتحدّثُ لغتَهم، وتعرفُ عاداتهم. يدعونها إلى الأعراس وإلى المراسم الدينية، ولم يعد أحدٌ يلقي بالاً إلى تلك المرأة التي لا يميزها شيءٌ عن الأهالي، وتشربُ بصمتٍ كأسَ الشّاي الحارق، وتعرف كيف تبارك الأطفال، والدعاء للبيت وأهله بالرحمة والبركة. تختلفُ إلى تجمعات النساء، فتتلقَّفُ أسرارهنَّ، وتُسدي النصائحَ، وتُحَرِّرُ الرسائلَ لمن لا تعرف القراءة والكتابة، وتسألُ بقلق عن الأمراض المخجِلَة وآثار الضّرب. قالت لها امرأةٌ ذات يوم: «لو ما صاحت الحمامةُ، ما قَصَدَها الذئبُ». والتزمتْ مدموزيل دائماً بتكَتُّم تامٍّ. كانت ترفضُ أنَّ تَرُجَّ بصرخاتها أركانَ هذا العالم حيث لم تكن هي سوى غريبة، لكن البؤسَ والمظالمَ تصيبُها بالحنق. لم تجرؤ سوى مرَّةٍ وحيدةٍ، على أن تطرقَ بابَ رجلٍ كانت ابنتُهُ تُظْهِرُ مواهبَ استثنائيةً. توسَّلَتْ إلى ذلك الأب الصّارمِ أن يُدَعِّمَ ابنته في دراستها، واقترحتْ عليه إرسالَها إلى فرنسا لتحصل على دبلوم. لم يغضب

الرجلُ، ولم يَرْمِ بها إلى الخارج، ولم يتَّهِمْها بالرغبة في نشر الفسق والفوضى. لا، بل ضحكَ الشيخُ. قهقهةَ عالياً، ورفع ذراعيه في الهواء. «الدراسة!» وقادَ مدموزيل فابر إلى البابِ بحركة تكاد تكون حنوناً، وشَكَرَها.

كان الناسُ يغفرون لمدموزيل فابر غرابَتَها لأنها عجوز لا تُغري. ولأنهم كانوا يعرفون أنها طيّبةٌ وكريمةٌ. في أثناء الحرب، أطعَمَتْ أُسَراً قُضي عليها بحياة البؤس، وألبَسَتْ أطفالاً يسرحون بالأسمال. اختارتْ معسكَرَها ولم تكن تُفلِتُ مناسبةً دون أن تُذَكِّرَ بالأمر. في سبتمبر 1954، جاء صحافيٌّ باريسيٌّ ليُنجِزَ تحقيقاً في مدينة مكناس. ونصحوهُ بلقاء تلك الفرنسية التي أقامتْ ورشةً للحياكة، وتهتم كثيراً لحال البؤساء. استُقبِلَ الشّابُّ ذات مساء، وكاد يُغشى عليه في ذلك البيت المُلتَهِبِ، الذي لا تتسرَّبُ إليه نسمةُ هواء. على الأرض أطفالٌ يوزِّعون قطعاً من خيوط الصوف وفق ألوانها ويضعونها في سلال. وفي الطابق، تُرْقِصُ الخيوطَ فتياتٌ جالساتٌ أمام أنوالٍ أفقيةٍ، وهنّ يتحدَّثن. وفي المطبخ، عجوزان سوداوان تغمسان خبزهما في عصيدة لونُها كدرٌ. طلبَ المُحَقِّقُ كأسَ ماء فربَّتَتْ مدموزيل فابر على جبينه قائلةً: «يا لك من صغير مسكين. لا تضطربْ، لا تحاوِلْ أن تقاوِم». تحدَّثا عن أعمالها الخيرية، وعن المدينة العتيقة، وعن وضع الفتيات، اللّاتي يعملن معها، الصحّي والمعنوي. ثم سألَها الصحافيُّ إن كانت تخشى الإرهابيين، وإن كانت تعاني، مثلها مثل باقي الجالية الفرنسية، من اضطرابٍ عصبيٍّ. رفعَتْ مدموزيل عينَيها. ونظرتْ إلى سماء أواخر الصيف البيضاء من فوقها، وشدَّتْ قبضتَيْها، كأنها تجتهد في أن تتحكَّمَ في انفعالها. «منذ وقت قريب كنَّا نسمّي إرهابيين أولئك الذين صاروا مقاومين. كيف لا تفهمون، بعد أربعين

عاماً من الحماية، أن يطالب المغاربةُ بتلك الحرية التي قاتلوا من أجلها، تلك الحرية التي نقَلْنا إليهم طَعْمَها، وعلَّمْناهُمْ قيمتَها؟». ردَّ عليها الصِّحافيُّ، الذي كان يرشحُ عرقاً، أنَّ الاستقلالُ لا بدَّ واقعٌ، لكن ينبغي أن يتحقق شيئاً فشيئاً. ولا يمكن التهجُّمُ على هؤلاء الفرنسيين الذين ضحَّوا بحياتهم من أجل هذا البلد. ما الذي سيصيرُ إليه المغرب إذا ما طلعَ الفرنسيون منه؟ من سيُسيِّرُ أمورَهُ؟ من سيفلح الأرض؟ فقاطعتْهُ مدموزيل: «لستُ ألقي بالاً إلى ما يعتقدُهُ هؤلاء الفرنسيون، إن كنتَ تريدُ أن تعلم. يحسبون أنهم هم من يتعرَّضُ للغزو، من لدن هذا الشعب الذي يتكاثر ويُثبِتُ ذاتَهُ. ليكن في علمهم: إنهم غرباء». وأخرجَت الصحافيَّ دون أن تقترح عليه أن يرافقهُ أحدٌ إلى غاية فندقه في المدينة الجديدة.

كانت الفرنسيةُ تستقبلُ في بيتها، كلَّ يوم خميس مساءً، مجموعةً من الفتيات من عائلاتٍ محترمة، تدّعي أنها تعلِّمَهُنَّ التطريزَ بالإبرة، وحياكةَ الصوف، ومبادئَ البيانو. كان الآباءُ يثقون فيها لعِلْمِهِمْ أنَّ مدموزيل لن تجرؤ أبداً على ممارسة التبشير في حضور بناتهم. أكيدٌ أنها لم تكن تتحدَّثُ عن يسوع، ولا تقول شيئاً عن محبَّتِهِ التي تشِعُّ على العالم، لكنها كانت تفلحُ، مع ذلك، في جعل بعضهنَّ يسرن على نهجها في الحياة. لم تتعلَّم أيُّ بنتٍ عزفَ ولو نوطتَين من الموسيقى، وكُنَّ عاجزاتٍ تماماً عن رتق جورب. كُنَّ يقضينَ تلك الساعات في الفِناء أو في الصالة المغربية الصغيرة، مستلقياتٍ على الأسِرَّةِ، يزدردنَ الحلويات المصنوعة من العسل. تضع مدموزيل أسطوانةً، وتُلقِّنهنّ الرَّقصَ، وتتلو عليهنَّ أشعاراً تحمرُّ لها خدودُهُنَّ وتَفِرُّ بعضُهُنَّ صارخاتٍ «يا ويلي، يا ويلي». وكانت تُعيرُهُنَّ مجلةَ باري ماتش التي كانت تُشاهَدُ بعد ذلك صفحاتُها

المستقطعةُ تتطايرُ من سطح إلى سطح، وتنتهي صورُ الأميرة مارغريت في المزراب.

وذات مساء من شهر مارس عام 1955، بينما كانت مدموزيل فابر تَهُمُّ بتقديم الشاي، فاجأَتْ حديثاً بين تلميذاتها. دخلت تلميذاتُ الثانوية في إضراب منذ أسبوعٍ بسبب تلميذة أهانَها أستاذٌ. اتَّهمَها بكتابة إنشاءٍ هَدَّامٍ عن مقاومة جان دارك ضدّ الإنجليز، وباستغلالها لدرس التاريخ من أجل التعبير عن مناصرتها للوطنيين. كان العمَّالُ، الذين يُصلِحون السَّطحَ، يضحكون في الطابق العُلويِّ، ولم تكن الفتياتُ يستطعن الامتناعَ عن السعي لاختلاس النظر إليهم. صبَّتْ مدموزيل فابر الشايَ بالنعناع بالطريقة المغربية بحركة طويلة واحتفالية، في أقداحٍ زجاجية مُثَلَّمَةٍ. اقتربتْ من سلمى.

«تعاليْ، آنسة، أريدُ أنْ أتحدَّثَ إليكِ».

تبعَتْها سلمى إلى المطبخ، وهي تتساءل عن سبب تلك الجلسة الخاصة. كادتْ تقولُ إنها لا تهتمُّ بالسياسة، وإنَّ زوجةَ أخيها فرنسيةٌ، وإنها لا تميل إلى فريق، لكن مدموزيل فابر ابتسمتْ لها ودَعَتْها إلى الجلوس حول طاولة خشبية وُضِعَتْ فوقها سلَّةُ فواكه يُغطّيها ذبابٌ صغير. مَدَّتْ مدموزيل ساقيها، واستغرقتْ، مدَّةَ دقائق بَدَتْ لسلمى بلا نهاية، في تأمُّلِ شجيرةِ الجهنَّميّة الممتدَّة عناقيدُها البنفسجيةُ الكبيرةُ فوق الجدار في آخر الحديقة. التقطتْ حَبَّةَ خوخ فاسدة سقطتْ عنها جلدتُها فأظهرتْ لحمةً سوداء رخوة.

«علمتُ أنَّك انقطَعْتِ عن الذهاب إلى الثانوية».

هَزَّتْ سلمى كتفيها.

«ما الفائدة؟ لم أكن أفهم فيها أيّ شيء.

– أنتِ بلهاء. لن تَصِلي، بلا تعليم، إلى أي شيء».

تفاجأت سلمى. لم يسبق لها أن سمعتْ مدموزيل تتحدَّثُ بتلك الطريقة، وتخاطبُ فتاةً بكلِّ تلك الصرامة.

«يتعلق الأمرُ بولدٍ، أليس كذلك؟».

احمرَّتْ سلمى، ولو استطاعت لولَّتْ هاربةً ولم تعد إلى ذلك البيت أبداً. طفقَتْ ساقاها ترتعشان، فوضعتْ مدموزيل فابر يدَها على ركبتها.

«أتحسبينَ أنِّي لا أفهمُ؟ تتصوَّرين أنني لم أكن قطُّ مُغْرَمَةً».

«فلتَصْمُتْ. فلتَصْمُتْ ولتدعني أنصرف»، قالت سلمى في نفسها، لكن العجوز استأنفتْ كلامَها، وهي تداعب بأناملها صليبَها العاجيَّ الذي صار يلمع من كثرة المداعبة.

«أنتِ اليومَ مُغرمَةٌ وهذا أمرٌ رائعٌ. تؤمنين بكلِّ ما يقوله لكِ الأولاد. تخالين أن ذلك سيدومُ وأنهم سيظلّون يحبّونكِ دائماً مثلما يحبونك الآن. وبجانب هذا، لا أهمية للدراسة. لكنك لا تعرفين شيئاً عن الحياة! ذات يوم، ستجدين نفسَكِ ضحَّيْتِ بكلِّ شيء من أجلهم، ستفقدين كلَّ شيء وتصبحين خاضعةً لأدنى حركة من حركاتهم. خاضعة لمزاجهم وعواطفهم، وعُرْضَةً لعنفهم. صدِّقيني إذ أقول لكِ إنَّ عليكِ أن تُفكِّري في مستقبلكِ وأن تدرسي. لقد تغيَّرَ الزمنُ. ليس عليكِ أن تعيشي مصيراً مثل مصير أمِّكِ. يمكنكِ أن تصيري شخصيةً مهمة، محامية، أو أستاذة، أو ممرِّضة. بل يمكنكِ أن تصبحي رُبَّانة طائرة! ألم تسمعي الحديث عن تلك الفتاة، ثريّا الشاوي، التي حصلتْ على رخصة الطيران وهي لم تتجاوز السادسة عشرة؟ ستكونين ما تريدينه، بشرط أن تسعيْ إلى ذلك. وأبداً، أبداً، لن تطلبي المال من رجلٍ».

أنصتتْ إليها سلمى، وهي تشدُّ يديها على كأس الشاي.

أنصتتْ إليها بانتباه شديد جعل مدموزيل تعتقدُ أنها أفلحتْ في إقناعها. «عودي إلى الثانوية. وهيِّئي امتحاناتكِ وسأساعدُكِ إن احتجت إلى المساعدة. عديني يا آنسة أنَّكِ لن تتخلَّيْ عن دراستكِ». شكرتْها سلمى، وقبَّلتْ خدَّيْ جليستِها المتغضِّنَين، وقالت لها: «أعدُكِ بذلك».

غير أن سلمى، وهي تسيرُ في طريق عودتها إلى البيت في برّيمة، فكَّرتْ من جديد في وجه الراهبة السابقة، وفي بشرتها البيضاء بياضَ الجير، وفي شفتيها الدقيقتين بحيث تبدو كأنها التهمتْ فَمَها نفسه. ضحكتْ وحدَها في الأزقة الضيِّقة، وقالت في نفسها: «ما الذي تعرفُهُ عن الرجال؟ ما الذي تعرفُهُ عن الحبِّ؟» أحَسَّتْ باشمئزاز كبير من جسد العجوز السمين والحزين، ومن حياة الوحدة التي تعيشها، ومن مُثُلِها التي لم تكن سوى طريقة لإخفاء قلة الحنان. كانت سلمى قبَّلَتْ ولداً في اليوم السابق. ومنذئذ، كانت لا تني تتساءلُ كيف يمكن للرجال، الذين يمنعونها، ويتحكَّمون فيها، أن يكونوا هم أيضاً من تسعى إلى الحرية من أجلهم. أجل، قبَّلَها ولدٌ، وتتذكَّرُ بدقَّةٍ، تفوقُ طاقةَ البشر، ذلك الطريقَ الذي سلكَتْهُ قبلاتُهُ. تحتاج كلَّ حين، منذ أمس، إلى أن تُغمض عينَيها لتعيش مرةً أخرى، تلك اللحظةَ اللذيذةَ، بإثارةٍ لا تعرف الارتواء. ترى من جديد عينَي الولد الصافيتَين، وتسمعُ صوتَهُ، والكلماتِ التي تلفَّظَ بها -«أترتعشين؟»- وجرتْ رِعْدَةٌ في جسدها. كانت كالأسيرة لتلك الذكرى، لا تَكِلُّ من استعادتها، فتُمَرِّرُ يديها على فمها، وعلى عنقها كأنما تتفقَّدُ أثرَ جرح، أو علامةً قد يكون خلَّفَها فَمُ الرجل. كلما وضعَ شفتيه على بشرتها، خُيِّلَ إليها أنه يحرِّرُها من الخوف، والجبنِ الذي أُنشِئَتْ عليه.

ألهذا يَصلُحُ الرجالُ؟ ألهذا يكثُرُ الحديثُ عن الحُبِّ؟ أجل، ينتزعون منكِ الشجاعةَ المستكينةَ في أعماق القلب، ويطلعون بها إلى وضح النهار، ويفرضون عليها أن تتفتَّحَ وتتطَوَّرَ. تشعرُ أنها تمتلكُ قوةً لا حدودَ لها من أجل قبلة، من أجل قبلة جديدة. كم هم محقّون، قالت في نفسها وهي تصعد إلى غرفتها. كم هم محقّون حين يدعوننا إلى الحذر، لأنَّ ما نُخفيه هنا، تحت حجابنا وتنانيرنا، تكمُنُ فيه نارٌ قد نخونُ كُلَّ شيء في سبيلها.

عند نهاية شهر مارس، نزلتْ على مكناس موجةُ بردٍ قارس، وتجمَّدَ ماءُ البئر في الفِناء. ومرضتْ مِّي لالَّة ولزمت السريرَ أيّاماً، لا يكاد وجهُها النحيفُ يظهر من الأغطية الثقيلة التي كانت تضعها ياسمين فوقها. وجاءت ماتيلد مراراً لعيادتها، وعالَجَتْها على الرغم من مقاومتها، وعلى الرغم من رفضها أن تبلع الأدوية، فكان عليها أن تعاملها معاملةَ طفلٍ صغيرٍ مزاجيٍّ ومذعور. وبَلَّتْ من سقمها، لكنها عندما استطاعت أخيراً أن تنهض وتدخل إلى المطبخ، مرتديةً عباءة النوم التي أهدَتْها إيّاها ماتيلد، انتبهتْ إلى أنَّ ثَمَّةَ اختلالاً ما. لم تُدرِكْ في البداية ما الذي يبعثُ فيها ذلك القلقَ، ذلك الإحساسَ بأنها مثل الغريبة في بيتها. تمشَّتْ في المَمَرِّ وهي تنتهرُ ياسمين، وتصعد وتنزل الدرج على الرغم من ألَم الساقين. أطلَّتْ من النافذة، ونظرتْ إلى الزُّقاق فبدا لها باهتاً، كأنه فَقَدَ شيئاً ما. أيمكن أن يتغيَّر العالمُ، في أثناء الأسابيع القليلة التي غيَّبَها فيها المرضُ، كلَّ هذا التغيير؟ ظنَّتْ بنفسها الجنونَ، وأنَّ الجِنَّ قد استحوذ عليها مثلما سبق أن استحوذ على ابنها جليل. تذكَّرت ما كان يُحكى لها من قصص عن أسلافها، الذين كانوا يتجولون عراةً في الشوارع، ويتحدَّثون إلى أشباح. لقد أصابَتْها لعنةُ العائلة، وبدأت تفقدُ عقلها شيئاً فشيئاً.

كانت خائفةً، ولكي تهدأ فعلتْ ما تفعلُهُ دائماً. جلستْ في المطبخ والتقطَتْ حُزمة كُزبرةٍ وفرَمَتْها فرماً دقيقاً. قَرَّبَتْ يديها العجوزين، يديها المعوَّجتَين المكسوَّتَين بالعُشب، من أنفها، ودَهَنَتْ وجهها بالكُزبرة المفرومةِ، وأجهشتْ بالبكاء. كانت تَدُسُّ أصابعَها في منخريها، وتحُكُّ عينيها مثل معتوهة. لم تكن تشُمُّ شيئاً. حَرَمَها المرضُ، بلعنةٍ ما، من حاسة الشَّمِّ.

وهكذا لم تشمَّ مِّي لالَّة رائحةَ التبغ البارد وغبارَ الورشات في ثياب ابنتها. ولم تشمَّ كذلك في قمصان المراهِقَةِ العطرَ الرخيصَ الذي اشترتْهُ سلمى من المدينة العتيقة بما سرقتْهُ من مال. ثم إن العجوز لم تُمَيِّزْ خصوصاً أن تلك الرائحةَ الحلوةَ قد اختلطَتْ بها رائحةُ ماء كولونيا، منعشٍ وبنكهة الليمون، من تلك العطور على الموضة التي كان الأوروبيون يدهنون به أعناقَهم وآباطَهم. كانت سلمى تعود إلى البيت مساءً، محمرَّةَ الخدَّين، متشابكة الشَّعر، رائحة فمها مفعمةٌ برائحة فَمٍ آخر. وتغنِّي في الفِناء، وتتحدَّثُ إلى أمِّها بعينين برَّاقتين وتَضُمُّ العجوزَ إليها. وكانت تقول: «كم أحبُّكِ، ماما!».

ذات مساء، انتظرتْ ماتيلد أميناً خلف الباب. «كنتُ اليومَ في المدينة، قالت له. رأيتُ والدتَكَ». تصرَّفتْ مِّي لالَّة بطريقة غريبة مع عائشة. عندما دَنَتْ الطفلةُ بفمِها من يد جدَّتها لتقبِّلها، شرعت العجوزُ في الصراخ. «اتَّهمتْ عائشةَ بأنها تريد أن تعضَّها. بكتْ وهي تضعُ يدَها على بطنها. كانت خائفة حقّاً، أتفهمُ؟». أجل، كان أمين يفهم الأمر. لاحظَ نُحولَ أمِّهِ، ونظرتَها الفارغة، وغياباتها. أمسكت عن تخضيب شعرها بالحنّاء، وتطلعُ أحياناً من حجرتها دون أن تلفَّ شعرَها الأشيبَ بوشاحها. وتكاد ماتيلد تُقسِمُ أنَّ مِّي لالَّة لم

تعرفها عندما ذهبتْ لزيارتها. نظرتْ إليها العجوزُ بإلحاحٍ ثوانيَ معدودة، وقد تدلَّى لسانُها، وغامَ نظرُها، ثم بدا عليها الارتياحُ. لم تتفوَّه باسم كَنَّتِها -لم تفعل ذلك قطُّ-، لكنها ابتسمتْ ووضعت يدها فوق ذراع المرأة الشابّة. كانت مِّي لالَّة تقضي الساعات جالسةً أمام طاولة المطبخ، وقد أرخَتْ ذراعَيها أمام سلال الخضروات. وعندما يسترجع عقلُها بعضَ حيويّته، كانت تنهضُ، وتشرع في طَهْيِ الطعام، غير أن الأطباق ما عادت لها لذَّةُ الأيام الخوالي. كانت تنسى إمّا بعض المكوِّنات، وإمّا تنام فوق كرسيِّها الخشبيِّ فيحترق قاعُ الطاجين. وبينما كانت في السابق دائمة الصَّمت والعَبَسِ، صارت تقضي أيَّامَها تترنَّمُ بأغنيات الأطفال التي كانت تجعلها تضحكُ ضحكاً عالياً. كانت تدور حول نفسها وترفع أسفلَ قفطانها بيديها وهي تُخرجُ لسانَها لياسمين ساخرةً منها.

«لا يمكن أن نتركها على تلك الحال»، قالت ماتيلد. خلعَ أمين حذاءه الطويل، ووضعَ سترتَهُ فوق الكرسيِّ في المدخل، وظلَّ صامتاً. «يجبُ أن نأتيَ بها لتعيش معنا. وأن نأتيَ بسلمى كذلك». كانت زوجتُهُ تتأمَّلُهُ بحنان، وقد وضعت يديها فوق وركيها. نظر إليها أمين نظرةً ملتهبةً، أدهَشَتْها وأثارتْ فيها غُنْجاً فعدَّلتْ تسريحةَ شعرها وفكَّت الوزرة التي كانت تشدُّ بها خصرها. في تلك اللحظة، تأسَّفَ لأنه لا يملكُ الكلمات، ولأنه ليس واحداً من أولئك الرجال الذين يجدون وقتاً كافياً من أجل الروح ومن أجل الحنان، وقتاً ليقولوا كلَّ ما يجدونه في قلوبهم. تأمَّلها طويلاً، وقال في نفسه إنها قد صارتْ امرأةً من هذا البلد، تعاني مثلما يعاني، وتعملُ بالضراوة نفسها، وإنه عاجزٌ عن شكرها.

«أجل، أنتِ على صواب. وعلى كل حال، لم أكن مطمئنّاً وأنا

أعلمُ أنهما وحيدتان في المدينة العتيقة، دون رجلٍ يحميهما». اقتربَ من ماتيلد، وانتصبَ على أطراف أصابعه، ووضع، ببطء، قبلةً على وجهها، بعد أن خفضَهُ إليه.

عند بداية الربيع، ساعد أمين أمَّهُ في الرحيل. وأرسلوا جليل للعيش عند عَمٍّ له، رجلٍ من أولياء الله، يسكن قرب إفران، وقد أَكَّدَ لهم أنَّ الحياة في المرتفعات سيكون لها الأثر الحميد على عقله الضعيف. واقترحتْ ياسمين، التي لم يسبق لها أن رأت الثلج، أن ترافقه. أُسْكِنَتْ مِّي لالَّة في الحجرة الأكثر ضياءً، عند مدخل البيت. وكان على سلمى أن تُشارِكَ عائشةَ وسليماً في غرفتهما، غير أنَّ مُراد نجح في الحصول على شحنات آجُر وإسمنت، وشرع في بناء جناح جديد للبيت.

لم تكن مِّي لالَّة تغادرُ حجرتَها إلّا لِماماً. وكثيراً ما كانت تُصادِفُها ماتيلد جالسةً تحت النافذة، مستغرقةً في تأمُّلِ المربَّعات الحمراء على الأرض. تَهُزُّ رأسَها، وقد التحفَت البياضَ، تستعيدُ حياةً من الصمت، حياةً بكماء كان يُحرَّمُ فيها الحزنُ. وتبرزُ فوق البياض يداها الداكنتان المجعَّدتان، تانك اليدان اللتان تبدوان كأنهما تحويان حياة تلك المرأة، مثل كتاب بلا كلمات. كان سليم يقضي وقتاً كثيراً رفقتَها. يتمدَّدُ فوق الأرض، واضعاً رأسَهُ فوق ركبَتَيْ جدَّتِهِ ويغمض عينيه، بينما كانت تداعبُ ظهرهُ وقفاهُ. كان يرفضُ الأكلَ خارج غرفة العجوز، وتوجَّبَ عليهم أن يقبلوا بأن يكتسبَ عاداتٍ سيِّئةً، كأنْ يأكلَ بأصابعه ويتجشَّأَ بصوتٍ عالٍ. وبدأتْ مِّي لالَّة، التي عَهِدَتْها ماتيلد نحيفةً تقنعُ طوالَ حياتها بما يفضلُ من الآخرين، تُبْدي شراهةً بغيضةً تَظهر على العجائز اللواتي يجدنَ في تلك الملذّات المادية معنى أخيراً لحياتهنَّ.

كانت ماتيلد تركضُ اليومَ كلَّهُ، من المدرسة إلى البيت، ومن المطبخ إلى المغسلة. تُنظِّفُ فخذَي العجوز وابنها. تُعِدُّ الطّعامَ للجميع، وتتناول طعامَها واقفةً، بين إنجاز مهمَّتين. وفي الصباح، بعد عودتها من المدرسة، تعالجُ المرضى ثم تغسل الملابس وتكويها. وبعد منتصف النهار، تذهبُ عند المُمَوِّنين، لاشتراء المواد الكيميائية أو قطع الغيار. تعيش في حال قلق دائم: بسبب أحوالهم المالية، وبسبب صحّة مِّي لالَّة وصحة الطفلين. وتقلقُ بسبب مزاج أمين القاتم، وقد حذَّرها يومَ وصول سلمى إلى المزرعة، فقال لها: «لا أريدُ أن تقترب من العمّال. ولا أريدها أن تسرح في الأرض. من الثانوية إلى الدار، لا غير، أسمعتِني؟» هزَّتْ ماتيلد رأسَها، وقد افترسَ الفزعُ قلبَها. كانت سلمى، عندما يغيبُ شقيقُها عن البيت -وهو ما يقع في أكثر الأوقات-، تتصرَّفُ بوقاحة وقسوة، ولا تأبه لأوامر ماتيلد. تردُّ عليها: «أنتِ لستِ أُمِّي».

كانت ماتيلد تخشى أمطارَ شهر مارس العنيفة، والبردَ الذي يتنبَّأُ به العمّالُ بسبب اصفرار السماء عند المساء. وتنتفض لرنين الهاتف، وتدعو الله، إذ تضع يدَها على السمّاعة، ألّا تكون المكالمةُ من البنك، ولا من الثانوية، ولا من المدرسة الداخلية. كانت كورين تتصل بها في وقت القيلولة، وتدعوها إلى تناول الشاي، وتقول لها: «من حقِّكِ أن تتسلَّي وتستمتعي!».

لم تعد ماتيلد تكتب لإرين سوى رسائل جافة، عارية من كل أسرار أو عواطف. تطلبُ من أختها أن تمدَّها بوصفات أطباق من طفولتهما تحنُّ إليها. كانت تودُّ لو تكون سيِّدة بيتٍ ممتازة، من ذلك الصِّنف الذي تظهر صورُهُنَّ في المجلات التي تستعيرُها من كورين. تلك النساء اللواتي يعرفن كيف يقُدْنَ حياةَ الأسرة، ويَكْلأْنَ أَمْنَها،

تلك اللواتي يعتمدُ عليهنّ الكلُّ، ويحبُّهنّ الجميعُ ويخشاهنّ. لكن، مثلما قالت لها عائشة ذات مرة بصوتها المتعالي: «في جميع الأحوال، كلُّ شيء ينتهي إلى الأسوأ»، ولم تقل لها ماتيلد إنها على خطأ. كانت تقشر الخضر في أثناء النهار، وقد فتحَتْ كتاباً أمامها. وكانت تخفي الرواياتِ في جيوب وزراتها وتجلس أحياناً فوق أكوام الثياب التي تنتظر الكَيَّ لقراءة روايات هنري ترويا أو أناييس نن التي أعارتْها إيّاها الأرملة ميرسييه. وتطبخ أطباقاً يجدها أمين غير مستساغة. سلطات من البطاطس المغطّاة بالبصل تفوح منها رائحة الخلِّ، وصحونُ الكرنب الذي سلقتْهُ في الماء مدة طويلة فيكتسبُ البيتُ رائحتَهُ الكريهةَ أيّاماً عديدة، وأرغفةُ اللحم الشديدة الجفاف بحيث تضطرُّ عائشة إلى أن تبصقها وتخفي البقايا في جيب وزرتها. وكان أمين يشتكي. يُبعِدُ بطرف شوكته، شريحةَ لحم العجل العائمةَ في القشدة، والتي لا تلائم ذلك المناخ. كان يشتاق إلى أطباق والدته، ويعتقد أنَّ ماتيلد إنما تدَّعي كُرْهَ الكسكس والعدس باللحم المقدَّد، من أجل الإثارة فحسب. وعندما يجلسون حول المائدة تُشجِّعُ الطفلين على الكلام، وتطرح عليهما الأسئلةَ، وتضحكُ إذا ضربا بطرف الشوكةِ على المائدة مطالبين بالتحلية. عندئذ كان أمين يغضبُ من الطفلين لقلَّة الاحترام وكثرة الضوضاء. ويلعنُ ذلك البيت حيث لا يستطيع أن يجد الهدوءَ الذي يحقُّ لرجلٍ يكدح أن يحصل عليه في بيته. فكانت ماتيلد تأخذُ سليماً بين ذراعَيها، وتُخرِجُ من كُمِّها منديلاً متّسخاً وتجهِشُ بالبكاء. وذات مساء، انطلقَ أمين يغني، تحت نظر عائشة المشدوهة، أغنيةً قديمة: «كانت تبكي مثل مجدليّةٍ، كانت تبكي، تبكي، تبكي... كانت تبكي، فتسيلُ كلُّ دموع روحها...»، ولاحقَ ماتيلد إلى غاية المَمَرِّ صائحاً: «يا

للكآبة! يا للكآبة. . . » فصرختْ ماتيلد بالألزاسية، مجنونةً من الغضب، بشتائم رفضتْ دائماً أن تخبرهم عن معناها.

سَمِنَتْ ماتيلد وظهرتْ خصلةُ شعر بيضاء على صدغها. وكانت تعتمرُ في النهار قبَّعةً واسعةً من ألياف النخل مثل قبّعات البدويات، وتنتعل حذاء خفيفاً من المطّاط الأسود. واكتستْ بشرتُها، في الخدَّين والعنق، بُقَعاً بُنِّيَّةً، وبرزتْ بها تجاعيدُ دقيقةٌ. وأحياناً، عند آخر نهارٍ لا يريد أن ينتهي، تغرقُ في كآبة عميقة. كانت تقول لنفسها، في طريق المدرسة، والريحُ تداعبُ وجهها، إنها تعبرُ هذه المناظرَ منذ عشرة أعوام، ويبدو لها أنها لم تُحقِّقْ شيئاً ذا بالٍ. أيّ أثر ستُخلِّفُ؟ مئاتُ الوجبات التي ابتُلِعَتْ واختفتْ، وأفراحٌ منفلتة لم يتبقَّ منها شيء، وأغنياتٌ ترنَّمتْ بها على جانب سرير الطفولة، وأمسياتٌ قضَتْها تواسي أحزاناً لا يذكرها أحدٌ. وأكمامٌ مرتوقة، ومخاوفُ تعانيها وحيدةً لا تستطيع مشاركَتها، خشيةَ التعرُّض للسخرية. كان يبدو لها، على الرغم من كلِّ ما صنعتْ، ومن امتنان طفليها ومرضاها العظيم، أنَّ حياتها لم تكن سوى شروعٍ في الغرق. كلُّ ما كانت تُحَقِّقُهُ كان مرصوداً ليختفيَ ويمَّحيَ. إنه نصيبُها من حياتها المنزلية والصغيرة، حيث ينتهي تكرارُ الحركات نفسِها إلى أن ينخر أعصابَ الإنسان. كانت تشاهد من النافذة بساتينَ أشجار اللوز، وفدادينَ العنب، تلك الشجيرات التي اقتربت من النضج، والتي ستطرحُ ثمارَها بعد عام أو عامَين. كانت تغارُ من أمين، وتغارُ من تلك المزرعة التي بناها حجراً حجراً، والتي منحتْهُ في ذلك العام 1955 أولى بواعث الرِّضى.

كان محصول الخوخ جيّداً، وباعَ اللوزَ بثمن مُرْبِحٍ. وقرَّرَ أمين أن يستثمر أرباحه في تطوير المزرعة، مخلِّفاً حسرةً في نفس ماتيلد، التي كانت تطالبه ببعض المال من أجل الأدوات المدرسية والملابس

الجديدة. «لا تجرؤُ امرأةٌ هنا على أن تتدخَّل في مثل هذه الأمور»، قال لها معاتباً. بنى دفيئةً زراعيةً ثانيةً، واستأجرَ عمّالاً إضافيين من أجل الحصاد، ودفع مالاً لمهندسٍ فرنسيٍّ لإنجاز دراسةٍ حول بناء حوضٍ لجمع المياه. كان أمين، منذ أمدٍ طويل، يهوى غرسَ أشجار الزيتون. قرأ كلَّ ما طالتْهُ يداهُ من مكتوب حول الموضوع، وأنشأَ مغارسَ تجريبيةً عالية الكثافة. كان مقتنعاً بقدرته على أن يُطوِّرَ وحدَهُ أنواعاً تستطيع مقاومةَ الحرارة وندرةَ الماء. قدَّمَ أمين، في معرض مكناس، ربيعَ 1955، أعمالَهُ في خطابٍ مضطربٍ، وهو يُغَضِّنُ أوراقَ ملاحظاته بين يديه المتعرّقتين، وحاول أن يشرح نظريّتَهُ أمام جمهور متشكِّكٍ. «كلُّ تجديد تعرَّض للسخرية في أوَّله، أليس كذلك؟ أسَرَّ إلى صديقه دراغان. إن سارت الأمور على الوجه المنشود، ستطرح هذه الأشجارُ محاصيلَ أعلى ستَّة أضعاف من الأنواع الموجودة حالياً في المزرعة. وحاجتُها من الماء جدُّ محدودة بحيث سيمكنني أن أعود إلى طرق الريِّ التقليدية».

اعتاد أمين، في أثناء كلِّ تلك الأعوام من الكفاح، على العمل وحدهُ، لا ينتظر مساعدةً من أحد. كانت مزرعته تحيطُ بها مزارعُ المعمِّرين الذين طالما أفزعهُ ثراؤُهم وقوَّتُهم. كان المعمِّرون في مكناس، عند نهاية الحرب، لا يزالون يحتفظون بسلطةٍ هائلة. كان يُقالُ عنهم إنهم قادرون على أن ينصّبوا مقيماً عامّاً أو أن يُطيحوا به؛ ويكفيهم أن يُحرِّكوا إصبعاً ليُؤَثِّروا في سياسة باريس. أما الآن، فإنَّ جيرانَ أمين صاروا يعاملونه معاملة ملائمةً. واستقبلوهُ في غرفة الفلاحة، حيث توجَّه لطلب دعمٍ ماليٍّ، باحترام، وعلى الرغم من أنهم رفضوا تزويده بما يطلب من مال، فإنهم هنّأوه على إبداعه ومثابرته. وعندما حكى لقاءهُ ذاك للطبيب الهنغاريِّ، ابتسم هذا الأخير.

«إنهم خائفون، هذا كل ما في الأمر. يشعرون أن الرياح تغيِّرُ الاتجاه، وأنَّ الأهالي قريباً سيصبحون الأسياد. إنهم يضمنون عاقِبَتَهُم بمعاملتك معاملة النِّدّ.

– النِّدّ؟ يزعمون أنهم يريدون دعمي، وأنهم يثقون في مستقبلي لكنهم يرفضون مَدّي بالقروض. وإذا فشلتُ سيقولون إني كنتُ كسولاً، وإنَّ العربَ سواسية جميعاً، وإنَّنا لن نصل إلى شيء دون الفرنسيين وقدرتهم على العمل».

في شهر مايو، احترقتْ مزرعةُ روجيه مارياني. هلكت الخنازيرُ في الإسطبلات، فانتشرت لأيام رائحةُ شِيَاطَةِ اللحم. وكان العمّال، الذين لم يبذلوا حماساً في إطفاء النار، يُخفون وجوههم بقطع الثوب، ويقيئُ بعضُهم. «هذا حرامٌ، كانوا يقولون. حرامٌ استنشاقُ هذه الرائحة الملعونة». في ليلة الحريق، جاء روجيه مارياني إلى التَّلَّةِ، وأجلسَتْهُ ماتيلد في الصالة حيث شربَ، وحدَهُ، قنّينةً كاملةً من التوكاي. الرجلُ الذي كان في الماضي ذا سلطة عظيمة، وهدَّدَ الجنرال نوغيس داخل مكتبه في الرباط وحصل منه على ما يريد، يبكي مثل طفل فوق أريكة المخمل القديمة. «أحياناً، ينقبضُ قلبي، فأعجزُ عن التفكير، كأنَّ ضباباً ثقيلاً يغمرُ عقلي. لا أعلمُ ما يرصُدُهُ لنا المستقبلُ، وأين هو العدلُ، إن كان عليَّ أن أدفع ثمنَ أخطاء لن أعترف أبداً باقترافها. آمنتُ بهذا البلد، مثلما يؤمنُ رجلٌ مُلْهَمٌ بالله، دون تفكير، دون طرح أسئلة. أُدرِكُ أنَّ ثمة من يسعى إلى اغتيالي، وأنَّ عُمَّالي البدويين يُخفونَ أسلحةً في حُفَرٍ لقتلي، وأنهم قد يشنقونني. إنهم يتظاهرون فحسب أنهم لم يعودوا متوحِّشين».

منذ عطلة الميلاد، توتَّرت العلاقاتُ بين أمين ومراد، ولم يستطع أمين لأيّام سوى أن يتهرَّبَ من معاونه السابق. كلما رأى خيالَ مراد يرتسمُ على الطريق الترابيِّ الذي يربطُ بين المزرعة والدّوّار، وشاهدَ وجهَ الجنديِّ السابق المحفورَ، وعينيه الصفراوين، إلّا وشعر في رغبة في الغثيان. كان يوجِّهُ إليه أوامرهُ خافضاً عينيه، وعندما كان مراد يقصدُهُ ليعرض عليه مشكلةً أو ليحتفل بجودة حصادٍ مُقْبِلٍ، لم يكن أمين قادراً على أن يبقى في مكانه. كان الأمرُ فوق طاقته، يظلُّ يُراوِحُ الخُطى وكثيراً ما يضطرُّ إلى أن يشدَّ قبضتيه وأضراسَهُ كي لا يركض هارباً.

وفي شهر رمضان، الذي وافق شهر أبريل، رفضَ مراد أن يعملَ الفلّاحون ليلاً وأن يُنظِّموا هم أنفسُهُم مواعيدَ العمل وفقَ حرارة الجوِّ وتعبهم. «الرَّيُّ والحصادُ وقتهما النّهارُ! لا أنا ولا الله نستطيع تغيير الأمر!» صاح مراد في وجه بدويٍّ، فوضع هذا يده أمامَ فمه وتلا دعاءً. كان يسمح لهم بنوم القيلولة في أثناء النهار، لكنه يشتمهم بعد ذلك، ويتحرَّشُ بهم، متَّهِماً إياهم باستغلال كرم السيِّد. وذات يومٍ، ضربَ رجلاً فاجأهُ في الحديقة، على مسافة أمتار قليلة من البيت. شَدَّهُ من شعره وانهالَ عليه بالضرب، متَّهِماً إيّاهُ

بالتجسُّس على أسرة بلحاج، والسّير خلفَ الشابة سلمى، والسَّعْيِ إلى النظر إلى السيِّدة الفرنسية عبر ناموسية الصالة. وكان مراد يراقبُ الخادمةَ التي يتّهمُها باختلاساتٍ وهميَّةٍ. وكان يسألُ مرضى ماتيلد الذين يتّهمهم بالسعيِ إلى استغلالها.

وذات يوم، استدعاهُ أمين إلى مكتبه، ومثلما كان يحدثُ إبّانَ الحرب، تحدَّثَ إليه بكيفية بسيطة وعسكرية، مكتفياً بإصدار أوامر دون أيِّ تفسير. «منذ هذه اللحظة، إذا أتى بدويٌّ من الناحية يطلب الماءَ، سنمنحُهُ الماءَ. لن يُحْرَمَ أحدٌ من استغلال البئر ما دمتُ على قيد الحياة. وإذا رغبَ مرضى في أن يتلقوا العلاجَ، سَتَسْهَرُ على أن يحصلوا عليه. لن يُضْرَبَ أحدٌ على أرض مزرعتي وستكون الراحةُ من حق الجميع».

لم يكن أمين يغادر المزرعةَ في أثناء النهار، لكن عندما يحلُّ المساءُ، يهربُ من ضوضاء الأطفال، وشكاوى ماتيلد، ونظرةِ شقيقته الغاضبة التي لم تعد تتحمَّلُ العيشَ فوق تلك التَّلَّة القَصِيَّة. كان أمين يلعبُ الورقَ في مقاهٍ يغمرها الدخانُ. يشربُ كحولاً رديئاً في حوانيت صغيرة ذات جدران عمياء، رفقةَ رجالٍ لا يقلّون عنه خجلاً وسكْراً. يلتقي مراراً بأصدقاء قدامى من المعسكر، عسكريين صموتين، وكان يحمدُ لهم إمساكهم عن محادثته. وذات مساء، تبعهُ مراد. في اليوم الموالي، لم يتمكّن أمين أن يتذكّرَ في أيِّ ظروف وبأيِّ حيلةٍ أقنعَهُ رئيسُ العُمّال أن يسمحَ له بمرافقته. لكن مراداً، في ذلك المساء، ركبَ في السيارة وانتقلا معاً إلى مقهى على جانب الطريق الكبير. شربَا معاً، ولم يُعِرْهُ أمين أيَّ اهتمام. «فَلْيَسْكَرْ»، قال في نفسه. «فَلْيَسْكَرْ ولْيَهوي في حفرة، الغبيُّ الأبله». كان عازفُ

أكورديون يعزف في الكباريه الذي استقرّا فيه، فشعر أمين برغبة في الرقص. وَدَّ أن يكون شخصاً آخر، شخصاً لا يعتمد عليه أحدٌ، وحياتهُ سهلةٌ وطائشةٌ، حياةٌ مُعَلَّمَةٌ بالآثام. أمسكَ به رجلٌ من كتفه وتأرجَحا معاً من الشِّمال إلى اليمين. استبدَّ بمُرافِقِهِ ضحكٌ جنونيٌّ انتشرَ في القاعة كلِّها وأعدى، كالسِّحر، جميعَ الحاضرين. تُبدي أفواهُهُم المشرعةُ أسناناً منخورةً. يُصَفِّقُ بعضُهم بيديه أو يُوقِّعُ الإيقاعَ برجليه. أطلقَ رجلٌ طويلٌ وسيِّئُ التغذية صفيراً، فالتفتَ الجميعُ نحوه. قال لهم «هيّا بنا»، وكانوا جميعاً يعرفون إلى أين يتوجهون.

ساروا حول تخوم المدينة العتيقة والتحقوا بحيِّ المرس، «الحيّ الخاص بالبغاء». كان أمين ثملاً، ويرى بصعوبة، ويترنَّحُ. وتناوبَ مجهولون على إسناده. وقضى أحدُهم حاجته على جدار فأصابت الجميعَ رغبةٌ في التبوّل. تأمَّل أمين، في إنهاكٍ، شريطَ البول الطويل السَّائل من سُور الحصن إلى غاية أرض الرصيف. اقترب مراد منه، ليثنيَهُ عن التقدُّمِ داخل الحيِّ الرّحبِ الذي تتوالى على طوله البيوتُ المُغلَقة التي تشرفُ عليها عجائزُ شَرِساتٌ. صار الحيُّ زقاقاً، معتماً وضيِّقاً، ثم ينتهي في طريق مسدود حيث يترصَّدُ منحرفون مرورَ الرجال الذين يغامرون جرياً وراء متعةٍ عابرة. دفعهُ أمين بعنفٍ، وألقى نظرةً قاسيةً على اليد التي وضعها مراد على كتفه، وتوقّفوا أمام بابٍ طرقَهُ واحدٌ من الرجال. سُمِعَ صريرٌ ثم صوتُ نعلين يُجَرَّان على الأرض وارتطامُ سلسلةٍ من الأساور. انفتح البابُ، فانقضَّت عليهم نساءٌ، نصف عاريات، انقضاضَ سربٍ من الجراد على المحاصيل. لم يَرَ مراد أميناً وهو يختفي. أراد أن يدفع السمراءَ التي أخذتْهُ من يده وجرَّتْهُ إلى حجرة صغيرة مؤثَّثَةٍ بسريرٍ وحوض

استبراء يتسرَّبُ منه الماء. كان الكحولُ قد أثقلَهُ، ولم يكن يستطيع أن يسترسل في التركيز على هدفه المتمثل في إنقاذ أمين، فبدأ الغضبُ يتصاعد بداخله. كانت الفتاةُ نَصَفاً، بين عمرَين، تضعُ غطاءً من ثوب على رأسها، وتفوح من بشرتها رائحةُ القَرَنْفُل. كانت تحمل على ساقيها وُشوماً حديثةً تشكِّلُ رمزاً لم يتمكَّنْ مرادٌ من إدراكِ دلالتِهِ. رغب حينئذ في أن يغرسَ أصابعَهُ في عيني المومس، وَدَّ أن يعاقبَها. ولا بدَّ أنَّ الفتاة كانت تعرفُ تلك النظرةَ، فتردَّدَتْ لحظةً، وأدارتْ وجهها نحو الباب، غير أنها، تحت تأثير السُّكْر أو الكيفِ، تراجعت عن الأمر وتمدَّدَتْ فوق الفراش. «أسرعْ. الجوُّ حارٌّ».

لم يستطع فيما بعد أن يقول إنْ كانت تلك الجملةُ أو العَرَقُ السّائلُ بين نَهْدَيْ المرأة، إنْ كان الصَّريرُ الذي يصلُ سَمْعَهُ من باقي الحجرات أو ما حصل لديه من انطباعٍ بتعرُّف صوت أمين. غير أنَّهُ في موقفه أمام تلك الفتاة ذات الحدقتين المتمدِّدَتين، استرجعَ صورَ حرب الهند الصينية وتلك المواخير العسكرية التي كان يقيمُها ضُبّاطُ الشؤون الأهلية من أجل الجنود. واستعاد كذلك أصواتَ تلك الأمكنة، ورطوبةَ الجوِّ، والمشهدَ الجنونيَّ الذي حاول ذات مرة أن يصفَهُ لأمين، لكن هذا الأخير لم يكن قادراً على إدراك سوداويته وطابعه الكابوسيّ. قال له: «إنَّ مثل ذلك الغاب يُشرِعُ بابَ الحلم». مَرَّرَ مراد يديه على ذراعيها العاريتين، فشعر بالتجمُّد، وأحسَّ كأنَّ سُحُباً من البَعوض هجمتْ على الحجرة، وأنَّ قفاهُ وبطنَهُ، من جديد، تكسوهما تلك البقعُ الحمراءُ الواسعةُ التي فرَضَتْ عليه السَّهَرَ لياليَ طويلةً. كان يسمع خلف ظهره صيحاتِ الضبّاط الفرنسيين، وقال في نفسه إنه رأى الكثير من أحشاء البيض، ورأى مسيحيّين يموتون يعتصرُهمُ الإسهالُ، ويستبدُّ بهم الجنونُ بسبب حروبٍ بلا

فائدة. لا، لم يكن القتلُ هو الأدهى. وعندما قال ذلك لنفسه، بدأَتْ قعقعةُ الزناد يتردَّدُ صداها في رأسه فضربَ على صُدْغِهِ كأنه يسعى إلى إفراغ ذهنه من جميع أفكاره السوداء.

انتهت المومسُ، التي كانت العجوزُ تحثُّها دائماً على الإسراع لأنَّ الزبائن ينتظرونها، إلى أن تنهضَ وقد بدا عليها الإرهاقُ. تقدَّمَتْ نحو مراد وقالت له: «هل أنتَ مريضٌ؟»، وصرختْ طالبةَ النجدةَ عندما شرعَ الجنديُّ السابقُ يخبطُ رأسَهُ في الجدار الحجريِّ، وجسمُهُ ينتفضُ من النَّشيج. أُلقِيَ بهم إلى الخارج، وبصقت العجوزُ على وجه المعاونِ الذي كان مستغرِقاً في الهذيان. انقضّت المومساتُ عليه، وهنَّ يصحنَ به، ويَكِلْنَ له الشّتائمَ، في سخرية. «لعنكم الله. لعنكم اللهُ جميعاً». سارا هو وأمين بلا غاية. كانا الآن وحيدَين، هرب عنهم الجميعُ، ولم يكن أمين يتذكَّرُ المكانَ حيث تركَ سيّارتَهُ. توقفَ على جانب الطريق، وأشعل سيجارةً أشْعَرَهُ أولُ نفَسٍ منها بالغثيان.

في اليوم الموالي، قال للعمَّال إنَّ رئيس العمّال مريضٌ، ولم يستطع أن يمنع نفسه من الحزن وهو يلمحُ آيات الارتياح والفرح على وجوههم. وعندما اقترحتْ ماتيلد مساعدَتَها وأدويةً من أجل مراد، أجابَها أمين أنَّ ما يحتاجُهُ هو الراحةُ. «الراحة فحسب». وأضافَ أمين: «أعتقدُ أنَّ علينا أن نُزَوِّجَهُ. ليس أمراً جيّداً أن يكون المرءُ وحيداً بهذا الشكل».

VIII

كان مهكي يعمل، منذ عشرين عاماً، مُصَوِّراً في شارع الجمهورية. كلما سمح له الوقتُ، أي في غالب الأحيان، يتمشّى في الشارع، تتدلّى آلةُ التصوير من كتفيه، مقترحاً على المارّة أن يلتقط لهم صوراً. وجدَ، في السنوات الأولى، صعوبةً في أن يفرض نفسه في مواجهة المنافسة، خصوصاً من لدن ذلك الأرمنيِّ الذي كان يعرفُ الجميع، من ماسح الأحذية إلى صاحب الحانة، ويستأثرُ بالزبائن. وأخيراً أدركَ مهكي أنه لا ينبغي أن يعتمد على الحظِّ في الظَّفَر بالراغبين في التصوير. لا يكفي الإلحاحُ، أو تخفيضُ الأثمنة، أو الحديثُ عن موهبته. لا، ما ينبغي هو أن يلتقطَ أولئك الراغبين في أن يحتفظوا بذكرى عن تلك اللحظة بعينها. أولئك الذين يجدون أنفسَهم جميلين، أو الذين يشعرون أنهم يصيبُهم الكِبَرُ، أو الذين يشاهِدون أبناءهم يكبرون ويُرَدِّدون: «ما أسرع ما يمرُّ الزمن!». لا حاجة لتضييع الوقت مع الشيوخ، ورجال الأعمال، وربّات البيوت اللواتي حفرت الهمومُ الأخاديدَ على وجوههنَّ. ينجح الأمرُ في الغالب مع الأطفال. يُلْعِبُ لهم ملامحَ وجهه، ويشرحُ لهم كيفيةَ عمل الآلة، فلا يصمُدُ الآباءُ أمام الرغبة في تخليد وَجْهِ وَلَدِهِم المَلائكيِّ على قطعة وَرَقٍ مُقَوّى. لم يسبق

لمهكي أن التقطَ صورةً لأفراد أسرته. كانت أُمُّهُ تعتقد أنَّ آلتَهُ من عمل الشيطان، فهي تخطف روحَهم من أولئك الذين يدفعُهُم الكبرياءُ إلى الوقوف أمام العدسة. عمل في البدء مُصَوِّراً من أجل الحالة المدنية، وكثيراً ما كان الأزواجُ يرفضون أن تُلتَقَطَ الصُّورُ لزوجاتهم. بل إنَّ بعضَ الأعيان المغاربة بعثوا رسائلَ إلى الإقامة العامة مهدِّدين، ويشرحون فيها أنهم يُعارِضون بكل قواهم فكرةَ أن تُسْفِرَ نساؤُهم عن وجوههنَّ أمام الغرباء. ورضخَتْ فرنسا لرغباتهم، فاكتفى الكثيرُ من القُوَّاد والباشوات بمنح وصفٍ موجز لزوجاتهم يُرفَقُ بأوراق الهوية.

بيد أنَّ العُشَّاقَ كانوا فرائسَهُ المفضَّلين. وفي ذلك اليوم الربيعيِّ الجميلِ وقع مهكي على أجمل زوجَين من العشاق. كان الجوُّ لطيفاً ومُفعَماً بالوعود. ويغمُرُ نورٌ دافقٌ وسطَ المدينة، مداعِباً واجهات العمارات البيضاء، مُبْرِزاً حمرة نبتة إبرة الراعي وورود الكركديه. عَنَّ له زوجان وسطَ الحشود، فركض نحوهما، واضعاً إصبعه على زِرِّ آلة التصوير، وكان صادقاً عندما قال: «إنكما جميلان جمالاً رائعاً، بحيث يمكنني أن ألتقط لكما صورةً مجّاناً!»، قال ذلك بالعربية، فرفع الشّابُّ، الذي كان أوروبيّاً، يديه ليشير إلى أنه لم يفهم كلامه. وأخرج من جيبه ورقةً ماليةً قدَّمه لمهكي. «العشّاقُ كرماءُ، قال في نفسه. يسعون إلى أن يُثيروا إعجابَ حبيباتهم، سيبورُ الأمرُ بتوالي الأعوام، لكن في انتظار ذلك، يظلُّ الأمرُ جيِّداً بالنسبة إلى مهكي».

هذا ما فكَّر فيه المُصَوِّرُ، وكان سعيداً سعادةً جعلتْهُ لا ينتبهُ إلى انفعال الشابّة التي كانت تتطَلَّعُ حولها مثل طريدة. انتفضتْ عندما لامسَ كتفَها ذلك الشابُّ الذي يرتدي سترةً جلديةً على الطريقة

الأميركية. كانا جميلَين جمالاً رهيباً بَهَرَ مهكي، فلم يخطر بباله لحظةً واحدةً أنهما لا يوافقُ بعضُهما بعضاً. ولم يكن لديه قدرة التمييز ليُدْرِكَ أنَّ ذينك الاثنين ما كان ينبغي لهما أن يكونا معاً.

ما الذي كانت تفعلُهُ في الشارع، في أمسية ذلك الثلاثاء، ولم تكن سوى طفلة، ابنة أسرة محترمة بلا شك، أسرة محافظة تخيطُ لها تنانيرَ مستقيمةً وستراتٍ من ثوبٍ عارٍ من كلِّ زينة؟ لم تكن تشبه في شيء تلك الفتياتِ المتهتّكات اللواتي يصعدن الشارعَ من أسفله إلى أعلاه، ويتهرَّبنَ من رقابة الآباء والأشِقّاء، ويحبلن في إثر انحراف فوق مقعد السيارة الخلفِيّ. فهذه الفتاةُ كانت غايةً في العذوبة والنضارة، وبينما كان مهكي يمسكُ بآلة التصوير، قال في نفسه إنه لأمرٌ رائعٌ أن يكون هو من سيُخلِّدُ تلك اللحظةَ إلى الأبد. كان يشعر أنه يقوده نوعٌ من الإلهام. تلك اللحظة الهاربة، وذلك الوجه الذي لم يلحقه تدنيسٌ من أي شيء، لا من يد رجلٍ، ولا من الآثام، ولا من قسوة الحياة. هذا ما كان سينطبعُ على صفحة شريط التصوير، سذاجة شابّةٍ وتلك النظرة التي أخذت تُطِلُّ منها الرغبةُ في المغامرة. وكان الرجلُ كذلك بالغَ الجمال، وتكفي رؤيةُ المارّة وهم يلتفتون، رجالاً ونساءً، نحو ذلك الجسد المفتول العضلات، ذلك الجسد الطويل واليابس، وتلك القفا الصلبة، التي لوَّحَتْها الشمسُ. كان يبتسمُ، وهذا من الأشياء التي كان مهكي يتأثّر بها جداً. جمال الأسنان والشِّفاه التي لم تُلَوِّثْها بعدُ المغالاةُ في شرب السجائرِ والقهوةِ الرديئة. ولحسن الحظِّ، يُغلِقُ جُلُّ زبائنه أفواههم عند التعرُّضِ لآلة التصوير، غير أنَّ ذلك الشّابَّ كانت فرحتُهُ عارمةً، ويُدرِكُ مدى سَعْدِهِ فلا يستطيع التوقُّفَ عن الضحك والكلام.

رفضت الفتاةُ أن تقف أمام آلة التصوير. وأرادتْ أن تنصرفَ،

وهمستْ في أذن الشّابِّ أمراً لم يسمعه مهكي. لكن العاشقَ ألَحَّ عليها، أمسكَ الفتاةَ من معصمها، وأدارَها حول نفسها، وقال: «هيّا، لن يستغرق الأمرُ سوى لحظةٍ، وستكون لنا ذكرى». ما كان لمهكي أن يقول أفضل من ذلك. بضعُ ثوانٍ من أجل ذكرى ستدومُ العمرَ كلَّهُ، كان هذا شعارَهُ. كانت تقفُ أمامه، في الشارع، جامدةً، ومنغلقةً على ذاتها، لدرجة أنَّ مهكي اقتربَ منها، وسألها بالعربية عن اسمها. «هكذا، سلمى، ابتسمي وانظري إليَّ».

وبعد التقاط الصورة، سلَّمهما مهكي وصلاً أخذَهُ الشّابُّ ودَسَّهُ في جيب سترته الجلدية. «عُدْ غداً. إن لم تجدني في الشارع، سأتركُ الصورةَ عند الاستوديو الموجود هناك، عند الزاوية». ونظر إليهما مهكي وهما ينصرفان ويختفيان وسط الحشود التي تتمشى في الشارع. وفي اليوم الموالي لم يعد الشّابُّ. انتظرهُ مهكي أيّاماً عديدةً، بل غيَّرَ خَطَّ سيره لعله يلقاهُ صدفةً. كانت الصورة جِدَّ موفَّقةٍ، وفكَّر مهكي في أنها قد تكون أجملَ صورة أنجزها لشخص على الإطلاق. نجح في اقتناص ضوء ذلك المساء من شهر مايو، وضبطَ إطارَ الصورة بحيث يُشاهَدُ في الخلفية النخيلُ وواجهةُ السينما. والعاشقان ينظُرُ أحدُهما إلى الآخر. هي، رقيقةً وخجولةً، أدارتْ نظَرَها نحو وجه الشّابِّ الذي ظلَّ فاغراً فاهُ.

وذات مساء، ولجَ مهكي استوديو لوسيان، الذي كان يُظْهِرُ شرائطَ صُوَرِهِ، وأقرضَهُ مالاً ليشتريَ آلةَ تصويرٍ جديدة. أتمَّا تسويةَ معاملاتهما، وأنجزا الحسابات، وعند نهاية حديثهما، أخرج مهكي الصورةَ من محفظته الجلدية الصغيرة. «للأسف، قال، لم يعودا لطلبها». مالَ لوسيان، الذي كان يبذلُ كلَّ جهده لإخفاء رغبته في الرجال، على الصورة وتعجّبَ: «يا له من ولد جميل! خسارةٌ أنه لم

يعدْ». هَزَّ مهكي كتفَيه، وعندما مَدَّ يدهُ ليسترجع الصورةَ، قال له لوسيان:

«إنها صورةٌ بالغة الجمال، يا مهكي، جِدُّ جميلة حقّاً. أنتَ تتحسَّنُ، أتعرفُ هذا؟ أنصِتْ إليَّ، هذا ما أقترحُهُ عليكَ. سأضعُ الصورةَ في واجهة المحلِّ الزجاجية، ستجلبُ الزبائن، ثم إنَّ الشارعَ كلَّهُ سيعلمُ بهذه الطريقة أنكَ أفضلُ من يُصَوِّرُ العشّاقَ. ما رأيُكَ؟».

تردَّد مهكي. أكيد أنه كان يستهويه الإطراءُ وما قد تُحَقِّقُهُ له الصورةُ من إشهار بين مرتادي الشارع. لكنه كانت لديه أيضاً رغبة غريبة في أن يحتفظَ بتلك الصورة لنفسه وحدَهُ، أن يتَّخِذَ من ذينك الشابَّين صديقَين، ورفيقَين مجهولَين. كان يخشى أن يُلقِيَ بهما فريسةً لحشود الشارع، لكن لوسيان أظهر الكثيرَ من الإقناع فانصاعَ مهكي لرغبته. وفي ذلك المساء، قبيل إغلاق المحلِّ، عرضَ لوسيان صورةَ رُبّان الطائرة ألان كروزيير والشابّةِ سلمى بلحاج. وبعد أقلّ من أسبوع، مرَّ أمين أمامها ورآها.

فيما بعد، أيقنت سلمى وماتيلد أنَّ الحظَّ يعاكسُهما. فالحظُّ نفسُهُ كان إلى جانب الرجال، وإلى جانب الأقوياء، وإلى جانب الظُّلم. ذلك أنَّ أميناً نادراً ما كان يذهب إلى المدينة الجديدة في ذلك الربيع من عام 1955. كان الجوُّ في المدينة ثقيلاً بسبب الاعتداءات، والاغتيالات، والاختطافات، وردِّ منظمة «الحضور الفرنسي»، التي كان يتصاعد عنفُها، ضد تحرّكات الوطنيين، ولم يكن ساكنُ البادية يحبُّ أن يشاركَ في كلِّ ذلك. لكنه في ذلك اليوم، خرج عن عادته وذهب إلى مكتب دراغان بالوزي الذي قرَّرَ استيرادَ شجيرات مثمرة من أوروبا. «تعال إلى مكتبي، سنتحدث حول أعمالنا، وسأرافقكَ إلى البنك للتفاوض حول القرض الذي

تحتاج إليه». وهذا ما حدث. انتظر أمين، غارقاً في الحياء، داخل قاعة الانتظار المملوءة بالنساء اللواتي كان نصفُهُنَّ حاملاً. تناقشَ حوالي الساعة مع الطبيب، الذي عرض عليه في دليلٍ مصنوعٍ من الورق المصقول، أصنافاً من أشجار الخوخ، والبرقوق، والمشمش. ثم سارا جنباً إلى جنب نحو البنك، حيث استقبلهما رجلٌ قرمزيُّ البشرة. وكان هذا الأخير، وفق كلام دراغان، متزوِّجاً من جزائرية ويعيشُ خارج المدينة قليلاً، قرب أحد تلك البساتين التي يكتريها سكَّانُ المدينة ليقضوا فيها أيامَ الآحاد من أجل النزهة. اهتمَّ المصرفِيُّ بمشاريع أمين الفلاحية بحماس ودقَّةٍ اندهشَ لهما هذا الأخير. وعند نهاية اللقاء تصافحوا جميعاً، محتفلين بإبرام الصفقة، وفارقهما أمين وهو يشعر أنه قد أدَّى واجبه.

كان سعيداً، وحملَتْهُ تلك السعادةُ على أن يتمشّى ببطء في الشارع. رأى أنَّ من حقِّهِ أن يتجوَّلَ، وأن ينظرَ إلى النساء، وأن يدنوَ منهنّ حتى يشمَّ عطرَهُنَّ. لم يكن يرغبُ في العودة إلى بيته، ولذلك سارَ، واضعاً يدَيه في جيبَيه، عيناه على الواجهات الزجاجية، متناسياً الأحداثَ، وشقيقَهُ، وما تلقّاهُ من عتابٍ من ماتيلد حول استثماراته الجديدة. شاهدَ ألبسة النساء الداخلية، حمالات الصدر المذَبَّبة والسراويل الحريرية. استمتع بمنظر الشوكولاتة المعروضة على واجهة محلِّ صانع الحلويات الذي كان متخصِّصاً في الكرز المسكّر. ثم، في واجهة استوديو التصوير، رأى الصورةَ. استغرق ثوانيَ ليُصدِّقَ ما يراهُ. قهقهَ بعصبية وقال في نفسه إنَّ تلك الفتاة، تلك الفتاة في الصورة، تشبه سلمى بشكل غريب. لا بدَّ أنها إيطالية أو إسبانية، متوسِّطية في جميع الأحوال، ورأى أنها جميلة. غير أنَّ حنجرته انقبضَتْ. أحسَّ كأنَّهُ تلقَّى ضربةً في بطنه، وتجمَّدَ جسمُهُ كلُّهُ

بفعل الغضب. اقترب من زجاج الواجهة، ولم يكن يتوخّى من ذلك تدقيقَ النظر إلى الصورة، بقدر ما كان يسعى إلى أن يجعل من جسده حاجزاً يحجبُ رؤيتَها عن المارّة المتجوِّلين. كان يشعر كأنَّ شقيقته عاريةٌ تحت أعين الحشود، ولا يجد سوى حاجز جسده ليحميَ به شرفَ سلمى. جاهدَ أمين نفسه كي لا يكسر الزجاجَ بجبهته، ويستردّ الصورةَ وينطلق راكضاً.

ولجَ المحلَّ ووجدَ لوسيان يُرَتِّبُ أوراقَ اللعب فوق المنضدة الخشبية.

«هل أستطيع أن أساعدك؟» سأل صاحبُ الاستوديو. نظر إلى أمين بقلق. ما الذي قد يريده منه ذلك العربيُّ ذو الحاجبَين المعقودَين، والنظرة الشرّيرة؟ يا لحظّه التعس. الاستوديو فارغٌ، وها هو وطنيٌّ، ربما إرهابيٌّ، يستعدُّ لأن يقضيَ عليه لأنه وجده وحيداً فحسب، دون حماية، وفرنسياً. أخرج أمين منديلاً من جيبه ومسحَ جبهته.

«أريد أن أرى الصورةَ المعروضةَ في الواجهة. صورة الفتاة.

- هذه؟» قال لوسيان وهو يتوجه إلى الرُّفوف، وأخذَ الصورةَ ووضعها فوق المنضدة.

تفحَّصَها أمين طويلاً، صامتاً، ثم سأله أخيراً:

«كم؟

- عذراً؟

- كم ثمن الصورة؟ أودُّ أن أشتريَها.

- إنها ليست للبيع. هذان الاثنان دفعا ثمن الصورة، وكان عليهما أن يعودا لاستلامها. لم يعودا لحدِّ الآن، لكن لا ينبغي أن نيأس»، قال لوسيان بصوته الحاد، قبل أن يشرع في الضحك.

حدجَهُ أمين بنظرةٍ سوداء.

«أخبرني عن الثمن الذي تريد من أجل الصورة وسأدفعه.

- لكن، بما أنني أقول لكَ. . .

- أنْصِتْ إليَّ. هذه الفتاة، قال أمين، وهو يشير إلى الصورة بسبّابته، هذه الفتاة هي شقيقتي، وليس في نيّتي أن أتركها دقيقةً أخرى في واجهة محلِّكَ. قلْ لي كم ينبغي عليَّ أن أدفع، وسأمضي إلى حال سبيلي».

لم يكن لوسيان يريد مشاكل. كان غادر فرنسا ضحيّة ابتزاز مهين، ووصلَ إلى هذا العالم الجديد، هذا العالم الذي يقلُّ شرّاً، لكنه أكثر شمساً، وهو عازمٌ على أن يظل وفيّاً لنهجه في التكتُّم. سمع الكثيرَ من الأحاديث عن شرف العرب، فما كان ليجرؤ على أن يستفزَّهم. «من يمسُّ نساءهم يُمزِّقون وجهه»، قال له زبون عند افتتاحه للاستوديو. وقال لوسيان في نفسه حينئذ: «لا خطر عليَّ من ذلك». كان قرأ منذ أيام في الجريدة أنَّ موظَّفاً، في الرباط أو في بور-ليوطي، تعرَّضَ للطعن بخنجر من لدن شيخٍ مغربيٍّ. وكان هذا الأخير يتهمُ الفرنسيَّ بأنه أمسكَ بالوشاح الذي يستُرُ وجهَ زوجته، وصاح ضاحكاً: «لكنها شقراء مثل ألمانية، فاطمة. ولها عينان زرقاوان أيضاً!». ارتعشتْ فرائصُ لوسيان ومدَّ الصورة إلى أمين:

«خذها. فتلك شقيقتُكَ، وأظنُ أنك أولى بها. يمكنكَ أن تُسلِّمها إليها. افعل بها ما تشاء، فالأمر لا يعنيني».

أخذَ أمين الصورةَ وخرجَ من الاستوديو دون أن يودِّعَ لوسيان الذي أنزلَ الستارةَ وقرَّرَ أن يُقفل المحلَّ مبكِّراً.

مكتبة
t.me/t_pdf

عندما عاد إلى المزرعة، كان الليل قد نزل، وماتيلد منهمكة في الخياطة في الصالة. وقف ينظر إليها طويلاً من فتحة الباب الموارَب، دون أن تنتبه إليه. كانت تبتلع جرعاتٍ كبيرةً من لُعابها اللزج والمالح.

أبصَرَتْهُ ماتيلد فخفضتْ بصَرَها في الحال مُكِبَّةً على عملها. «تأخَّرْتَ في العودة»، قالت له، ولم تندهش لكونها لم تتلقَّ جواباً. اقتربَ منها زوجُها، ونظر إلى السترة الصوفية الممزَّقة الكُمِّ، وإلى إصبع ماتيلد الوسطى المحميَّةِ بالكُشْتِبان الفضّي. أخرجَ الصورةَ من جيب سترته الجلدية، وعندما وضعَها فوق لباس الأطفال الذي كانت تخيطُهُ، وضعتْ ماتيلد يديها على فمها. وارتطمَ الكُشْتِبانُ بأسنانها. كان وجهُها وجهَ قاتلٍ إذْ يُجابَهُ بدليلٍ مُفحم. كانت مُتَلَبِّسَةً، وسطَ الكمين.

«الأمرُ بريءٌ كلَّ البراءة، قالت مرتبكةً. كنتُ أنوي أن أحدِّثكَ عن ذلك. ذلك الولد لديه نوايا جِدِّيّةٌ، يرغبُ في المجيء إلى المزرعة، ليخطبَها، ويتزوَّجَ بها. إنه ولدٌ طيّبٌ، أؤكِّد لك».

نظر إليها بإمعان فأحسَّتْ ماتيلد كأنَّ عيني أمين تتمدّدان،

وملامحه تتغيّرُ، وفمه يصيرُ ضخماً، وانتفضتْ عندما أخذَ يصيحُ: «لكنكِ مجنونةٌ تماماً! لن تتزوَّج أختي من فرنسيٍّ أبداً!».

أمسكَ ماتيلد من الكُمِّ وانتزعَها من أريكتها. وجرَّها نحو المَمَرِّ الغارق في الظلام. «أنتِ أَهَنْتِني!» وبصقَ على وجهها، وصفعها بظاهر كَفِّهِ.

فكَّرَتْ في الطفلَين فظلَّتْ صامتةً. لم تنقضَّ على عنق زوجها، ولم تخمشه، ولم تدافع عن نفسها. لا ينبغي أن تقول شيئاً، يجب أن تنتظر سكوتَ الغضب، وأنْ تدعوَ من أجل أن يخجلَ من نفسه، وأن يدفعه الخجلُ إلى التوقُّف. تركَتْهُ يسحبُها كأنها جسدٌ ميِّتٌ، جسدٌ ازدادَ ثقلُهُ فتضاعَفَ سُعارُ أمين. كان يريد أن يُصَفِّيَ الأمرَ، وأن تدافعَ عن نفسها. أمسكَ بيده العظيمةِ الداكنةِ خصلةً من شعرها، وأجبَرَها على أن ترفع رأسَها وقرَّبَ وجهَهُ من وجهها. «لم نفرغ بعد»، قال لها وهو يَلْكُمُها. وعند الوصول إلى مدخل المَمَرِّ المؤدِّي إلى الحجرات، أطلَقَها. كانت جاثيةً أمامه، على ركبتيها، داميةَ الأنف. فكَّ أزرارَ سترته ثم أخذَ يرتعدُ. أسقطَ الخزانة الخشبيةَ الصغيرةَ حيث كانت ماتيلد تحتفظُ بكُتُبِها. تكسَّرت الخزانةُ وتبعثرت الكتبُ فوق الأرض.

وأبصرتْ ماتيلد، من فتحة الباب الموارَب، خيالَ عائشة التي كانت تراقبهما. نظرَ أمين جهةَ ابنته، فارتختْ ملامحُ وجهه، كأنّه سينخرطُ في الضحك، ويدَّعي أنَّ الأمر كلَّهُ لم يكن سوى لعبٍ مع ماما، لعبٍ لا يستطيع الأطفال أن يَفْقَهُوا معناه، وأنَّ عليها الآنَ أن تعود للنوم. غير أنه توجَّهَ نحو الحجرة بخطى غاضبة، ومجنونة.

وقع بصرُ ماتيلد على غلاف كتابٍ. **قصة سفر نيلس هولغيرسون** التي كان يقرأُها لها أبوها عندما كانت صغيرة. ركَّزَتْ كلَّ انتباهها

على رسم نيلس الصغير، جالساً فوق ظهر إوَزَّةٍ. لم ترفع عينيها إذ بلغَتْها صرخاتُ سلمى، ولم تتحرَّكْ عندما استنجدتْ بها أختُ زوجها. ثم سمعتْ صوتَ أمين يُهَدِّدُهما.

«سأقتُلُكُما معاً!».

كان يمسكُ في يده مسدَّساً يوجِّهُ فوهتَهُ إلى وجه سلمى الجميل. كان قد طلبَ، بضعةَ أسابيع قبل ذلك، رخصةً لحمل السلاح. كان يقول إنَّ ذلك من أجل حماية أسرته، فالبادية خطيرةٌ، ولا يمكن للمرء أن يعتمد إلّا على نفسه. وضعتْ ماتيلد يدَيها على عينَيها. هذا كلُّ ما استطاعتْ أن تفعله. الفكرةُ الوحيدة التي سنحَتْ لها. لم تكن تريد أن ترى ذلك، أن ترى الموتَ قادماً إليها، على يدَي زوجها، على يدَي والدِ طفلَيها. ثم فكَّرتْ في ابنتها، وفي طفلها الذي ينام في سلام، وفي سلمى التي تبكي، وأدارتْ رأسَها نحو حجرة الطفلَين.

اقتفى أمين نظرتَها فأبصرَ عائشة، تُضيءُ شعرَها هالةُ نورٍ رقيقة. كأنها شبحٌ. «سأقتلكن جميعَكُنَّ!» صاح من جديد، ولوَّحَ بفوهة المسدَّس في كلِّ الاتجاهات. لا يعرف بمن يبدأ، لكن ما أن يُقرِّرَ الأمرَ حتى يقضي عليهنَّ الواحدةَ بعد الأخرى، ببرودة وتصميم. امتزج نشيجُهُنَّ، وصراخُهُنَّ، وتوسَّلَتْ إليه ماتيلد وسلمى أن يعفو عنهما، ثم سمعَ اسمَهُ، سمع «بابا» وعَرِقَ في سترته التي ضاقَتْ عليه. سبقَ له أن أطلقَ النارَ، على رَجُلٍ، غريبٍ. سبق له أن أطلق النّارَ، ويعلمُ أنه يستطيع أن يفعل ذلك من جديد، وأنَّ الأمر سيتمُّ بسرعة كبيرة، وأنَّ الخوف سيسكُنُ، وسيتلو ذلك ارتياحٌ عظيمٌ، بل إحساسٌ بقوة عارمة. لكنه سمع «بابا» وكان النداء آتٍ من هناك، من الحجرة التي تقف عند عتبتها ابنتُهُ التي كان قميصُ نومها مُبلَّلاً،

وقدماها تخوضان وسطَ بركة صغيرة. وللحظةٍ، فكَّر في أن يُصوِّبَ الفوهةَ إلى رأسه. سيحُلُّ ذلك كلَّ شيء، لن يحتاجَ الأمرُ إلى كلام أو تفسير. وستتلطَّخُ سترتُهُ ليوم الأحد بالدماء. ألقى المسدَّسَ، ودون أن ينظر إليهنَّ، خرج من الحجرة.

وضعتْ ماتيلد سبّابَتَها على فمها. كانت تبكي في صمت، وأشارتْ إلى سلمى ألّا تتحرّك. وأسرعَتْ ماشيةً على أربع والتقطت المسدَّس. كانت عيناها غائمتين بالدموع، وأنفُها ينزفُ كثيراً، وتجد صعوبةً في التنفُّس. تخترقُ البروقُ رأسَها واضطرَّتْ إلى أن تضع يديها على صُدْغَيْها ثوانيَ معدودةً كي لا تنهار. أمسكت المسدَّسَ بيديها كلتيهما، وبدا لها جِدَّ ثقيل، وأخذتْ تدور حول نفسها كأنَّ بها مَسٌّ. نظرتْ من حولها، وبحثتْ عن شيء ما، عن وسيلةٍ لإخفائه. ألقتْ نظرةً يائسةً على ابنتها، ثم تطاولتْ واقفةً على بنان قدميها الحافيتين، وأمسكت الإناءَ الخزفيَّ الموضوعَ فوق المكتبة. أمالَتْهُ قليلاً وألقت السلاحَ بداخله. وأعادتْ الإناءَ إلى مكانه فتأرجحَ ببطء، يهمُّ بالسقوط، فظلَّت ثلاثتُهُنَّ، لثوانيَ، كأنهنَّ متحجِّراتٌ، مرعوباتٌ من أن يريْنَ الإناءَ يتهشَّمُ، فيعود أمين، ويشاهد الكارثةَ ويقتلهُنَّ.

«أنْصِتا إليَّ يا حبيبتَيّ». جذبتْ ماتيلد إليها سلمى وابنتَها وضمَّتْهُما إلى قلبها الذي كان يدقُّ بقوةٍ أفزعت الطفلةَ. وصعدتْ إلى أنفها رائحةُ البول ممزوجةً برائحة الدَّم. «لا تبوحا أبداً بمكان المسدَّس، أتسمعاني؟ وإنْ توسَّلَ إليكما، وإنْ توعَّدَكُما أو وعدَكما بشيء مقابل ذلك. لا تقولا أبداً إنه داخل الإناء». هزَّتا رأسيهما ببطء. «أريد أن أسمعكُما تقولان «نعدُكِ ألّا نفعل». هيّا قُولا ذلك!» كانت ماتيلد تبدو حينئذ غاضبةً، فانصاعت الفتاتان لأمرها بسرعة.

أخذَتْهُما ماتيلد إلى الحمّام وملأتْ حوضاً كبيراً بالماء الدافئ، وغطَسَتْ فيه عائشةَ. غسلت قميصَ النوم الصغيرَ ثم مسحتْ وجهها ووجهَ سلمى بثوب مُبلَّلٍ بالكحول والماء المثلَّج. كان أنفُها يؤلِمُها بشكل فظيع. لم تجرؤ على لَمْسِهِ لكنها أدركَتْ أنه مكسورٌ، وعلى الرغمِ من عذابها، وعلى الرغم من غضبها، لم تستطع أن تمنعَ نفسَها من أن تُفكِّرَ في أنها ستبقى مشوَّهَةً بسبب ذلك. لقد سرق منها أمين كرامتَها، وسيتركُها، بالإضافة إلى ذلك، بأنفِ مُلاكِمٍ، ووجهِ كلبٍ أجرب.

كانت عائشة تعرف أولئك النساءَ ذوات الوجوه الزرقاء. شاهدتْ مراراً أمَّهاتٍ عيونُهُنَّ نصفُ مغلقة، وخدودُهُنَّ بنفسجيّةٌ، وأمَّهاتٌ شفاهُهُنَّ مشروخةٌ. بل إنها كانت تعتقد، في تلك الفترة، أنَّ الماكياج إنما اختُرِعَ من أجل ذلك. من أجل إخفاء آثار ضرب الرجال.

في تلك الليلة، نِمْنَ في الحجرة نفسها، ثلاثتُهُنَّ، وقد تشابكتْ سيقانُهُنَّ. وقبل أن تنامَ عائشة، وظهرُها ملتصِقٌ ببطن أمِّها، تَلَتْ بصوتٍ عالٍ صلاتَها. «**بارك، يا إلهي، الراحةَ التي سأستريحُها لأُصلِحَ من قوايَ، من أجل خدمتكَ. أيتها العذراء المقدَّسةُ، أمّ ربّي، أنتِ أملي الرئيس بعدهُ، يا ملاكي الطيّب، وشفيعي الراعي، تشفَّعي لي، احميني طولَ هذه الليلة، وطولَ وقت حياتي وعندما يحينُ مماتي. ليكُنْ كذلك**».

استيقظن في الوضع نفسه، كأنهنّ متحجِّراتٌ خوفاً من أن يعود، مقتنِعاتٌ أنهنَّ ثلاثتُهُنَّ يُشَكِّلْنَ جسداً لا يُقهَرُ. كُنَّ قد تحوَّلْنَ، في أثناء نَوْمِهِنَّ المضطَرِبِ، إلى نوعٍ من الحيوان، سرطان ناسك، حيوانٍ قشريٍّ غائرٍ داخل قوقعته. ضمَّتْ ماتيلد ابنتَها إليها، وودَّتْ

لو تُخفيها وتختفي معها. نامي، نامي يا طفلتي، فما كلُّ هذا سوى حلمٍ قبيح.

*

قضى أمين الليلةَ كلَّها يتمشى في البادية. اصطدم، في الظلام، بالأشجار، وخدشت الغصونُ وجهَهُ. تمشى، وهو يلعنُ كلَّ فدّانٍ من تلك الأرض الجاحدة. وشرعَ، في ضربٍ من الجنون والهذيان، يَعُدُّ الحجارةَ واقتنع أنها تتآمرُ ضدَّهُ، بتناسلها في الظِّلِّ، وانتشارها بالآلاف في كلِّ هكتار من الأرض لتجعلها غير قابلة للحرث، وغير قابلة للإنجاب. كان يودُّ لو يطحنُ تلك الأحجارَ كلَّها تحت أصابعه، وتحت أضراسه، أن يمضغها ويبصقَ سحاباً هائلاً يُغطّي كلَّ شيء. كان الجوُّ متجمِّداً. وجلسَ تحت شجرة. كان جسدُهُ كلُّهُ يرتعشُ، فثنى كتفيه، وانطوى على نفسه، وغرقَ في ما يشبه النومَ، وقد أثقلَهُ الكحولُ والخجلُ.

لم يعد إلى البيت إلّا بعد يومَين. لم تسألْهُ ماتيلد أين كان وأمين لم يبحث عن المسدَّس. وغرقَ البيتُ مدَّةَ عدَّة أيامٍ في صمتٍ عميقٍ، ثقيلٍ، صمتٍ لم يجرؤ أحدٌ على خَرْقِهِ. كانت عائشة تتكلَّمُ بعينيها. ولم تغادر سلمى حجرتَها. قضتْ أيّامَها مُمَدَّدَةً على السرير، باكيةً فوق وسادتها، لاعنةً شقيقَها وهي تُقْسِمُ أن تنتقم لنفسها. كان أمين قرَّرَ ألّا تُكْمِلَ دراستَها في الثانوية. لم يكن يرى فائدةً من الاستمرار في تشويش تلك الفتاة بِحَشْوِ رأسها بمزيدٍ من الأفكار الحمقاء.

وكان أمين يقضي أيّامهُ في الخارج. لم يكن قادراً على تحمُّل النَّظر إلى وجه ماتيلد، إلى الهالتين البنفسجيّتين تحت عينيها، وإلى

أنفِها الذي تضاعَفَ حجْمُهُ، وشفَتِها المشروخة. ولم يكن متيَقِّناً من الأمر، لكن كان يبدو له أنها فقدتْ سِنّاً. يُغادِرُ عند الفجر ولا يعود إلا بعد أن تنام زوجتُهُ. ينامُ في مكتبه ويقضي حاجته في المرحاض الخارجيّ، على كُرْهٍ من طامو التي كانت تتأذّى من تلك المخالطة. عاشَ مدَّةَ أيّامٍ مثل جبان.

نهضَ، يومَ السبت الموالي، في الصباح الباكر. اغتَسَلَ، وحلقَ وجهه، وتعطَّرَ. ودخل إلى المطبخ حيث كانت ماتيلد تقلي البيضَ، مولِّيَةً ظهرَها الباب. شَمَّتْ رائحةَ ماء الكولونيا فعجَزَتْ عن الحركة. ظلتْ واقفةً أمام الموقد، في يدها ملعقةٌ خشبيةٌ، ودَعَت اللهَ ألّا يقول شيئاً. كان هذا الأمرَ الوحيد الذي يشغَلُها. «اللهمَّ لا تجعلْهُ غبيّاً لدرجة أن يفتح فمه بالكلام، وأن يُلقِيَ اللّومَ عليَّ، وأن يتصرَّفَ كأنَّ شيئاً لم يحدث». وعدَتْ نفسَها أن تصفعَهُ لو قال «أعتذرُ». لكنَّ الصمتَ لم يُكْسَر. تمشّى أمين بخطى صغيرةٍ خلف ماتيلد التي لم تكن تراهُ ولكن تُخَمِّنُ أنَّ زوجها يدور حول نفسه مثل حيوان مفترسٍ، وقد اتَّسَع منخراهُ، وتسارعَتْ أنفاسُهُ. استند بظهره إلى الخزانة الكبيرة الزرقاء وتأمَّلَها. مرَّرَتْ يدَها على شعرها، وسَوَّتْ حزامَ وزرتِها. وتركت البيضَ يحترقُ وسعلتْ في قبضتها بسبب الدخان.

كانت خجولة من أن تعترفَ بالأمر، غير أنَّ الصمتَ الذي سادَ بينهما كان له عليها وقعٌ غريبٌ. قالت في نفسها لو أنهما لا يُكلِّمان أبداً بعضُهما بعضاً، فسيُمكنهما أن يصيرا حيوانات من جديد، وستصير حينئذ أشياءٌ كثيرةٌ ممكنةً. ستنفتحُ أمامهما آفاقٌ جديدةٌ، وسيتعلّمان حركاتٍ جديدةً، يمكنهما أن يزأرا، ويتشاجرا، ويخمشَ أحدُهما الآخرَ إلى أن يسيل الدَّمُ. لن يتوجَّب عليهما أن يخوضا في

تلك النقاشات التي يحاول فيها كلٌّ واحد أن يُبيِّنَ للآخر أنه على صواب، ولا تنتهي إلى حَلٍّ. لم تكن لديها رغبةٌ في الانتقام. وهذا الجسدُ، هذا الجسدُ الذي خَرَّبَهُ، والذي كَسَرَهُ، أحَسَّتْ بالرغبة في أن تتنازل له عنه. لم يتبادلا كلمةً واحدةً مُدَّةَ أيّام، لكنهما مارسا الجنسَ. تَخَلَّتْ عن كلِّ حياءٍ، وعن كلِّ تحفُّظ لِتُخْجِلَهُ. ألْقتْ في وجهه شهوَتَها وجمالَ المرأة فيها، ورذيلَتَها وخَلاعَتَها. وجَّهَتْ إليه أوامرَ كانت تصدمُهُ بذاءَتُها وتُغَذِّي إثارَتَهُ. أَثْبَتَتْ له أنَّ بداخلها شيئاً لا يُضْبَطُ، شيئاً وَسِخاً لكنه ليس هو من وَسَّخَهُ. سوادٌ في ملكها هي، ولن يستطيع أبداً أن يفهمَ أيَّ شيء عنه.

ذاتَ مساء، وبينما كانت ماتيلد منشغلةً بكَيِّ الملابس، إذ ولَجَ أمين المطبخَ وقال: «هيَّا. إنه هنا».

وضعتْ ماتيلد المكواةَ. وخرجت من المطبخ ثم تراجعَتْ. انحنتْ، تحت نظر عائشة، على الصُّنبور، وبلَّلَتْ وجهها وسَوَّتْ شعرَها. خلعَتْ وزرتَها وقالتْ: «سأعودُ» وبالطبع، تبعَتْها الطفلةُ، مُتَخَفِّيَةً مثل فأرةٍ، وكانت عيناها تلمعان في المَمَرِّ المُعْتِم حيث كانت تسيرُ. جلستْ خلف الباب، وأبصرَتْ عبر فتحةٍ رجلاً قصيراً، ممتلئَ الجسم، ذا بشرة تُغَطِّيها البثورُ، ويرتدي جلباباً بُنِّيّاً، ووجهه غير حليق. كانت تحت عينيه جيوبٌ شديدةُ الانتفاخ بحيث يكفي أن تلامسها يَدٌ أو هبَّةُ ريحٍ لينبعثَ منها سائلٌ لَزِجٌ. كان جالساً على أريكة من أرائك المكتب وخلفه يقفُ شابٌّ. تظهرُ على كتف سترته الكاكية اللون، لطخةٌ صفراء كبيرة، كأنَّما تبرَّزَ عليه طائرٌ. قدَّمَ للشيخ دفتراً كبيراً غلافُهُ من جلد.

«اسمكِ؟» قال الشيخُ وهو ينظرُ ناحية ماتيلد.

أجابتْهُ، غير أنَّ العدول التفتَ حينئذ نحو أمين. وأعادَ السؤالَ، وقد عقدَ حاجبيه: «اسمها؟» فتهجَّى له أمين اسمَها. «ماتيلد.

- اسم والدها؟

- جورج»، قال أمين وانحنى على الدفتر، متضايقاً قليلاً من اضطراره للكشف عن ذلك الاسم المسيحي، ذلك الاسم الذي تتعذَّرُ كتابتُهُ.

«جووورج؟ جووورج؟» ردَّدَ العدولُ الذي أخذَ يتردَّدُ في إعمال قلمه، فأخذَ الشابُّ من خلفه يتململُ.

«سأكتُبُهُ مثلما يُسمَعُ، هكذا»، قال رجلُ القانون، ومن ورائه تنفَّسَ مساعدُهُ الصُّعداء.

رفعَ العدولُ عينيه نحو ماتيلد. أمعنَ النظرَ إليها بضعَ ثوانٍ، وتفحَّصَ وجهها ثم يديها المضمومتين. عندئذ سمعتْ عائشة صوتَ أُمِّها يعلو، وهي تتلو بالعربية: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسول الله».

«حسن جِدّاً، قال رجلُ القانون، وما هو الاسم الذي ستحملينه الآن؟».

لم تكن ماتيلد فكَّرتْ في الأمر. كان أمين حدَّثَها عن ضرورة أن تختار اسماً جديداً، اسماً مسلماً، لكنها في الأيام الأخيرة، كان قلبُها ثقيلاً، وعقلُها مشغولاً بمشاكل كثيرةٍ، بحيث إنها لم تفكِّر في اسمها الجديد.

«مريم»، قالت أخيراً، وبدا العدولُ راضياً على ذلك الاختيار.

«ليكن كذلك مريم. مرحباً بكِ في أُمَّةِ الإسلام».

اقتربَ أمين من الباب، ورأى عائشةَ فقال لها: «لا أحِبُّ طريقتكِ في التجسُّسِ كلَّ الوقت. اذهبي إلى حجرتِكِ». نهضَتْ وسارتْ عبر المَمَرِّ حيث تبعَها والدُها. واضطجعَتْ في سريرها ورأتْ أميناً يُمسكُ سلمى من كتفها، مثلما كانت الراهباتُ يمسكن

بالتلميذات عندما كُنَّ يتعرَّضْنَ للعقاب فتطلبُ الأختُ الرئيسةُ أن يُحْضَرْنَ إلى مكتبها.

كانت عائشة مستغرقةً في النوم عندما اجتمع سلمى ومراد في المكتب، وعقَدَ العدولُ قرانَهما تحت أنظار ماتيلد وأمين وعاملَين أُحْضِرا ليكونا شاهدَين.

لم تقبل سلمى أن تسمع أيَّ كلام. وعندما جاءتْ ماتيلد تطرُقُ بابَ المخزَن، حيث صارت سلمى تنامُ مع زوجها، رفضتْ هذه الأخيرة أن تفتح البابَ. ركَلت الألزاسيّةُ البابَ عدَّةَ ركلاتٍ، وطرقَتْهُ بقبضتيها، ووضعَتْ جبينَها عليه، وبعد أن صرختْ، أخذَتْ تتكلَّمُ برفق كأنها كانت تأمَلُ أنَّ سلمى سَتُصيخُ السمعَ، وأنّها ستضعُ بدورها وجهَها على إطار الباب وستُنْصِتُ لكلام زوجة أخيها، كما كانت تفعلُ في السابق. وبصوتٍ رقيق، ودون تفكير، ودون حسابٍ، طلبتْ ماتيلد العفوَ. تحدَّثَتْ عن الحرية الداخلية، وعن ضرورة تعلُّم التسليم، وعن أوهام الحُبِّ الكبير التي ترمي الفتيات في اليأس والفشل. «أنا أيضاً كنتُ شابةً صغيرةً». وتحدَّثت عن المستقبل، «ذات يومٍ ستفهمين»، «ذات يوم ستشكريننا». كانت تقول لها، ينبغي لها أن تنظر إلى الجانب الإيجابي للأمور، وألّا تسمح للحزن أن يرخي ظلامَهُ على ولادة طفلها الأول، وألّا تستمرَّ في اجترار النّدم على رَجُلٍ كان جميلاً، حقّاً، لكنه جبانٌ وطائشٌ. بيد أنَّ سلمى لم تَرُدّ. ظلّتْ بعيدةً عن الباب، مقرفصةً إلى الجدار، وقد ألصَقَتْ كفَّيْها على أذنيها. كانت أسَرَّتْ أمورَها لماتيلد، وجعَلَتْها تلمسُ نهديْها المؤلمين، وبطنَها الذي كان لا يزالُ غير منتفخ،

وماتيلد غدرتْ بها. لا، سلمى لن تُنصِتَ، وستصُبُّ في أذنيها القطرانَ إنْ لزمَ الأمرُ. لم تَصدر زوجةُ أخيها إلا عن الغيرة. كان في إمكانها أن تساعدها على الهرب، وعلى قتل هذا الجنين، وعلى الزواج من ألان كروزيير، كان عليها أن تُنْزِلَ إلى أرض المُمَارسة كلَّ تلك الخُطَبِ الجميلة حول تحرير النساء وحول الحقّ في الحبِّ. لكنها، لا. فضَّلَتْ أن تسمح لقانون الرجال أن ينتصبَ بينهما. وَشَتْ بها، ولم يجد شقيقُها غير الطُّرق القديمة لحَلِّ المشكل. «لا بدّ أنها لم تكن لتستطيع أن تتحمَّلَ فكرةَ أن أكون سعيدةً، قالت سلمى في نفسها، أن أكون أسعدَ منها وأفضل زواجاً».

وكانت سلمى، عندما لا تكون محبوسةً في حجرتها، تظلُّ دائماً قرب الأطفال أو مِّي لالَّة، حتى يستحيل أيُّ حديث حميم، فيزداد عذابُ ماتيلد، التي تحلُمُ أن تظفر منها بالصَّفْح. كانت تعدو خلف الشابة إذا ما لمحتْها وحيدةً في الحديقة. وذات مرة، أمسكَتْها من ظهر قميصها، فكادت أن تخنقها. «دعيني أشرحْ لكِ. أرجوكِ، توقَّفي عن الهرب». لكن سلمى استدارتْ بسرعة وأخذتْ تضربُ ماتيلد بكلتا يديها، وتركُلُها ركلاتٍ متتالية. سمعتْ طامو صرخات المرأتين اللتين تتشاجران مثل طفلتين، ولم تجرؤ على التدخُّل بينهما. «ستجدان طريقة لتقولا إنني أنا المذنبة»، قالت في نفسها وهي تُسْدِلُ السِّتار. كانت ماتيلد تحمي وجهَها وتتوسَّلُ إلى سلمى: «تعقَّلي قليلاً. في جميع الأحوال، فإنَّ طيَّارَكِ الجميل هربَ ما أن علمَ بأمر الطفل. ينبغي أن تكوني سعيدةً لأننا جَنَّبْناكِ الفضيحةَ».

وفي الليل، بينما كان أمين يشخر إلى جانبها، فكّرتْ ماتيلد، من جديد، في الذي قالتْهُ. أتؤمِنُ به حقّاً؟ هل صارت من ذلك

الصِّنف من النساء؟ من النساء اللواتي يدفعن الأخريات إلى التعقُّلِ، والاستسلام، تلك اللواتي يُقَدِّمْنَ الاحترامَ على السعادة؟ وفي الحقيقة، قالت في نفسها، لم يكن بيدي ما أستطيع فعله. وأعادتْ قولَ ذلك لنفسها مرّاتٍ ومرّاتٍ، ليس على سبيل الشكوى، ولكن لتُقنِعَ نفسَها بعجزها والتخفيف من مسؤوليتها. تساءلتْ عمَّا يفعلُهُ مراد وسلمى في تلك اللحظة. تخيَّلَتْ جسدَ المعاون وفَمَهُ الأدرد ملتصقاً بشفتيها. تصوَّرَتْ عناقَهما بواقعيةٍ كادتْ معها أن تصرخَ، وأن تدفع زوجَها إلى خارج السرير، وأن تبكيَ على مصير تلك الطفلة التي تخلَّتْ عنها. نهضَتْ وأخذَتْ تتمشّى في المَمَرِّ لتُهَدِّئَ أعصابَها. وفي المطبخ التهمتْ حدَّ الغثيان بقايا كعكة بالمربّى. ثم أطلَّتْ من النافذة، واثقةً من أنها لا بدَّ ستسمع أنيناً أو حشرجةً. لكنها لم تسمع شيئاً سوى صوت الفئران التي كانت تجري فوق جذع النخلة العملاقة. أدركَتْ حينئذ أنَّما يُعذِّبُها، ويغيظها، ليس الزواج في ذاته أو مدى أخلاقية الشخص الذي اختاره أمين، بل هو ذلك الجماع المعاكس للطبيعة. فكان عليها أن تعترف أنها إنما تلاحق سلمى من أجل أن تسألها عن ذلك الجماع البغيض، والشنيع، وليس من أجل أن تطلب منها الصفح والعفو. كانت تريد أن تعرف إن كانت المراهِقَةُ قد انتابها الخوفُ، وإن اشمأزَّتْ نفسُها. وإنْ كانت أغلقتْ عينيها وفكَّرَتْ في طيَّارها لتنسى قُبْحَ الجنديِّ وشيخوختَهُ.

*

ذات صباح، توقفت شاحنةُ نقلٍ صغيرةٌ وسط الفِناء وأنزلَ منها ولدان سريراً كبيراً من الخشب. لم يكن أكبرُهما جاوزَ الثامنة عشرة. يرتدي سروالاً أقصر منه ويعتمرُ قبّعةً من القماش باهتٌ لونُها من أثر

الشمس. وكان الآخرُ أصغر منه، ذا وجهٍ طفوليٍّ يتعارضُ مع جسمه الصلب والمكتنز. يقف في الخلف، منتظراً أن يتلقى الأوامر من رفيقه. أشار لهم مراد إلى المخزن الصغير، لكن الولد هَزَّ كتفيه. «لن يدخل»، قال وهو يشير إلى الباب. غضبَ مراد، الذي اشترى ذلك السرير من عند أفضل صنّاعٍ في المدينة. لا وقت لديه للجدال، فأمرهما أن يُميلا السرير ويجرّاه على الأرض. واستغرقا ساعةً كاملةً يدفعان السريرَ، ويحملانه، ويقلبانه. أتْلفا ظهريهما وأيديَهما عبثاً. كان الولدان يضحكان من عناد مراد، وقد غطّى العرقُ منهما الجبينَ واحتقنَ الوجهُ. «ينبغي أن تستسلم للعقل سيدي! إذا تعذّر الأمرُ فقد تعذَّر»، قال الأصغر بصوتٍ بذيءٍ أغاظَ رئيسَ العمّال. جلس المراهقُ فوق السرير الخشبيّ وغمزَ صاحبهُ: «السيدة هي التي لن تكون سعيدة. فهذا سرير بالغ الجمال بالنسبة إلى بيت صغير مثل هذا». حَدَجَ مراد الولدين، المتأرجحَين فوق السرير وهما يقهقهان، بنظرة حادّة. أحسَّ أنه غبيٌّ، غبيٌّ حَدَّ البكاء. عندما رأى السريرَ في متجر المدينة العتيقة، وجدَهُ رائعاً. فكَّر حينئذ في أمين، وقال في نفسه إنَّ سيِّدهُ سيكون فخوراً به. أخيراً سيحترمُهُ وسيعتبرُ أنَّ رجلاً قادراً على ابتياع سرير من ذلك الصِّنف لهو أفضلُ زوج ممكنٍ لأخته. «أبلهٌ أنا»، ردَّدَ مراد لنفسه، ولو أنَّهُ لم يضبط أعصابَهُ، لضربَ المراهِقَين وكَسَّرَ السريرَ بالبلطة، هناك، أسفل النخلة الكبيرة. غير أنه نظر إلى شاحنة النقل الصغيرة وهي تختفي في سحابة من الغبار، وقلبُهُ مُفعَمٌ بيأسٍ هادئ.

بقيَ السريرُ هناكَ يومين، ولم يسأل أحدٌ عنه. لا أمين، ولا ماتيلد، فقد أزعَجَهُما أمرُهُ وأخجلهُما فتصرَّفا كأن ذلك السرير كان في مكانه، وسطَ الفِناءِ الرّمليّ. وذات صباحٍ، طلبَ مراد أن يحصل

على عطلة ذلك اليوم، فوافق أمين. التقَطَ رئيسُ العُمّال مطرقةً كبيرةً وحطَّمَ بها جدارَ المخزن الصغير الذي ينفتح على الحقول. وأدخَلَ السريرَ من الثُّقب. وجمعَ آجراً وإسمنتاً وشرع في توسيع الحجرة التي كان يُقيمُ فيها مع سلمى. بنى طوالَ النهار وحتى وقت متأخر من الليل جداراً جديداً. كان ينوي أن يُشَيِّدَ حمّاماً من أجل زوجته، التي كانت لا تزال تغتسل في المرحاض الخارجيِّ. وقفت طامو على بنان رجليها واشرأبَّتْ من النافذة لتشاهد رئيسَ العمّال وهو يعمل. «لا تكوني فضوليةً. اهتمّي بما يعنيكِ» قالت لها الألزاسيةُ.

وعندما اكتمل البيتُ، كان مصدرَ فخرٍ لمراد، لكنه لم يُغيِّر شيئاً من عاداته، فعند نزول الليل، تركَ السريرَ الكبيرَ لسلمى، واضطجعَ، كعادته كلَّ يوم، على الأرض.

للعثور على عمر، ينبغي اقتفاء رائحة الدم. هذا ما كان يقوله أمين لنفسه، وفي ذلك الصيف من 1955 كان الدَّمُ في كل مكان. يسيلُ في المدن حيث تتكاثر عملياتُ الاغتيال في الشوارع، وحيث القنابلُ تُمَزِّقُ الأجساد. ويسيل الدَّمُ في البوادي حيث تُحْرَقُ المحاصيلُ، ويُقَتَّلُ أصحابُ المزارع حَدَّ الموت. وكان يمتزج، في تلك الاغتيالات، السياسةُ بالانتقام الشخصِيِّ. كان القتلُ باسم الدِّين، وباسم الوطن، ولمحو دَيْنٍ، وللانتقام من إهانة أو من امرأة زانية. ورداً على ذبح المعمِّرين، استشرى العنفُ العنصريُّ والتعذيبُ. وكان الرعبُ، يتنقَّلُ من معسكر إلى آخر، فانتشر في كلِّ مكان.

كلما وقع اعتداءٌ، تساءلَ أمين: أماتَ عمرُ؟ أَقَتَلَ عمرُ؟ فكَّر في ذلك عندما اغتيل رجلُ صناعة في الدار البيضاء، وعندما قُتِلَ جنديٌّ فرنسيٌّ في الرباط، وعندما مات شيخٌ مغربيٌّ في بَرْكانَ، وعندما تعرَّضَ ضابطٌ في الشؤون الحضرية، في مراكش، لهجوم. وفكَّرَ في عمر عندما، يومين بعد اغتيال رئيس الصحافة المعتدلة جاك لوميغر دوبروي على يد الإرهاب المضاد، سمعَ المقيمَ العامَ فرانسيس لاكوست يتحدَّثُ في الإذاعة. «إننا نشعر بالاشمئزاز من العنف، من

جميع أشكال العنف، فكلُّها متساويةٌ في الخِسَّة». وبضعة أيام بعد ذلك عُوِّضَ فرانسيس لاكوست بجيلبير غراندفال الذي حَلَّ بالبلاد وهي في قمة التوتُّر. في البداية، أنعش غراندفال الأملَ في انتهاء الإرهاب أخيراً، وفي العودة إلى الحوار بين الجاليات. ألغى عدداً من الأحكام، وإجراءات الإبعاد. وتحدَّى الفئات الأكثر تطرُّفاً في الجالية الفرنسية. غير أنَّ اعتداء مرس السلطان، يوم 14 يوليو، في الدار البيضاء، حطَّمَ جميعَ الآمال. رفضتْ نساءٌ بلباس الحِداد، وقد أسدلنَ خماراً أسود على وجوههنّ، أن يبسطن أيديهُنَّ للسلام على ممثل الدولة الفرنسية. «لا شيء يربطنا بالبلد الأُم، وها نحن سنخسر ما استغرقْنا أعواماً في بنائه، البلدَ الذي أنشأْنا فيه أبناءَنا». انقضَّ أوروبيون على المدينة العتيقة في المدينة البيضاء، منتزعين في طريقهم الأعلامَ ثلاثية الألوان التي كانت تُزَيِّنُ الأزقَّةَ بمناسبة العيد الوطني. وانخرطوا في أعمال النَّهْب، والإحراق، وفي جميع أشكال التنكيل، التي كانت الشرطة تُشجِّعُ عليها في بعض الأحيان. لقد صار نهرٌ من الدماء يسيلُ بين الجاليات.

في ليلة 24 من يوليو 1955، ظهر عمر من جديد. وصل إلى مكناس مختبئاً في مؤخرة سيارةٍ يقودُها شخصٌ من الدار البيضاء لا يتجاوز عمرُهُ ثمانية عشرة عاماً. ركنوا السيارةَ أسفلَ المدينة العتيقة، في دربٍ تطفو فيه رائحةُ البول، وانتظروا طلوعَ النهار وهم يدخِّنون السجائر. كان موكبُ جيلبير غراندفال يُنتظَرُ أنْ يعبرَ ساحةَ الهديم حوالي التاسعة صباحاً، وقرَّرَ عمر ورفاقُهُ أن يكونوا في استقباله. كانوا يُخفون في حقيبة السيارة أكياساً كبيرةً مملوءةً بالفضلات، ومسدّسَين، وبضعة سكاكين. طلعَ النهارُ وظهرت طلائعُ قُوّات الحامية العسكرية في الساحة، مرتدين الزّيّ الاحتفاليّ. كانوا سيؤدُّون

التحيَّةَ الشرفيّةَ عند مرور الموكب، ويرافقون المقيم العام إلى غاية باب المنصور حيث سيُقَدَّمُ له التمر والحليب. وانتصبتْ بعضُ النساء قرب الحواجز. يلوِّحْنَ، وهناً، بدُمى على شكل صليب، عليها فساتين عبارة عن قطعة قماش وباقة ورد صغيرة. تلَقَّيْنَ مقابل حضورهِنَّ بضعَ قطعِ نقديةٍ، وكنَّ يضحكن فيما بينهنَّ. وكان بيِّناً، على الرغم من مرحِهِنَّ الظاهر، أنَّ حماسهنَّ كان مصطَنَعاً، وهتافهُنَّ «عاشت فرنسا» لم يكن سوى ملهاةٍ بئيسة. بينما كان معوَّقون بُتِرَتْ منهم ذراعٌ أو ساقٌ، يحاولون أن يجدوا لهم مكاناً أقرب ما يكون إلى طريق مرور الموكب، آملين أن ينقلوا مصيرهم الحزينَ إلى فرنسا التي نسيتْهُمْ. وعندما يدفعهم رجالُ الشرطة يجهرون أمامهم بتاريخ خدمتهم. «لقد حاربْنا من أجل فرنسا ونحن الآن في البؤس».

وفي الصباح الباكر، شرعت فِرَقُ الحماية الخاصّةُ في إقامة الحواجز أمام كلِّ بابٍ من أبواب المدينة العتيقة. غير أنهم سرعان ما ألْفَوْا أنفسَهُمْ تجاوزَتْهُمُ الحشودُ الطالِعَةُ من كلِّ حدبٍ وصوب. وتوقفتْ شاحنةٌ في ساحة الهديم، فأصابَ الفزعُ رجالَ الشرطة الذين أمروا الركّابَ بالنزول من الشاحنة وأن يُلقوا على الأرض بالأعلام المغربية التي كانوا يلوِّحون بها. فرفض الرجالُ الامتثالَ، وأخذوا يضربون بأقدامهم على مؤخرة الشاحنة التي تمايَلَتْ وأثارَت ضوضاؤُها حماسَ الحشود. أولادٌ وشيوخٌ، وبدويّون انحدروا من الجبل، وبورجوازيون وتُجّارٌ، تكدَّسوا كلُّهُم على جوانب الساحة. كانوا يحملون الأعلامَ، وصورَ السلطان، ويهتفون: «بن يوسف! بن يوسف!»، ويمسكُ بعضُهم بعِصِيٍّ، وآخرون بسكاكين الجزارة. وقرب المنصة حيث كان يتعيَّنُ أن يُلقيَ المقيمُ العامُ خطبتَهُ، وقفَ أعيانٌ يعرقون، من القلق، في جلابيبهم البيضاء.

أشار عمر إلى رفاقه فقفزوا إلى خارج السيارة. مشوا إلى غاية الحشود وذابوا في ذلك السِّرب الذي ما فتئتْ عصبيَّتُهُ تَزدادُ وتنمو. ومن خلفهم، اعتلتْ نساءٌ محجّباتُ الوجوهِ فوق حوامل وهنَّ يهتفن «استقلال!». شَدَّ عمر قبضتَهُ، وشرعَ يصيحُ بدوره، وسلَّمَ الرجالَ المحيطين به الأكياسَ المملوءةَ بالفضلات. ألقوا على وجه رجال الشرطة قشورَ البرتقال، وفواكهَ متعفِّنةً، وبرازاً يابساً. وكان صوتُ عمر، الجهوريُّ والقويُّ، يزيد من حماس رفاقه. يضرب بقدمه، ويبصقُ، ويندلقُ سعارُهُ من حوله، فتنتفخُ من الشجاعة صدورُ المراهقين، وظهورُ الشيوخ المتقوّسة. أخذَ شابٌّ، لا يتجاوز عمرُهُ الخامسةَ عشرةَ، ولا يرتدي سوى قميص جلديٍّ أبيض وسروالٍ يكشفُ ربلتيه اليافعتين، أُهبَتَهُ ورمى حجارةً على حُرّاس الأمن. وقلَّدَهُ المتظاهرون الآخرون ورجموا رجالَ الشرطة. فلم يعد يُسمَعُ سوى صوت الحجارة ترتطمُ بالرصيف، وصرخاتِ رجال الشرطة، الذين كانوا يدعون، بالفرنسية، إلى الهدوء. أخذ أحدُهم ينزف دماً من حاجبيه، فامتشق بندقيتَهُ الرشاشة، وأطلق الرّصاصَ في الهواء، ثم ضغطَ فكَّيه، وامتلأت عيناهُ بالرعب، فصوَّبَ سلاحَهُ نحو الحشود وأطلقَ النار من جديد. سقط الشابُّ البيضاويُّ عند قدمي عمر. وتجمَّعَ الرِّفاقُ، على الرغم من الفوضى، والتسابقِ المذعور، ونحيبِ النساء، حول الجريح وحاول أحدُهم أن ينتشلهُ. «هناك سيارات إسعاف بدأت في الوصول. ينبغي لنا أن نلتحق بممرّات الأمان[1]». لكن عمر أوقفهُ في الحال بحركة من يده.

---

(1) إجراء أمنيٌّ يُقام عند حدوث مظاهرات يسمحُ بإجلاء الجرحى في سيارات الإسعاف. (المؤلِّفة)

«لا».

نظر الشَّبابُ، الذين اعتادوا على برودة أعصاب قائدهم، بعضُهم إلى بعض. كان وجهُ عمر يطبعُهُ الهدوءُ. ويُظهِرُ ابتسامةً راضيةً. إنَّ الأمور تسيرُ تماماً وفق ما تمنّاهُ، وما يسود من ارتباكٍ وفوضى أفضلُ ما كان يمكن أن يحدث.

«إن أخذناهُ إلى المستشفى ونجا من الموت، فسيُعَذِّبونه. سيُهَدِّدونه بإرساله إلى داركوم[1] أو إلى مكان آخر وحينئذ سيعترف. لا نريد سيارة إسعاف».

انحنى عمر، ورفعَ بذراعَيه النحيلتَين الجريحَ الذي كان يصرخُ من الألم.

«اركضوا!».

وفَقَدَ عمرُ، في خضمِّ الهلع، نظارته، وسيقول فيما بعد إنه إنما استطاع أن يعبر الحشودَ، ويُفلِتَ من الرصاص، والوصولَ إلى غاية المدينة العتيقة والتوغُّلَ داخل الأزقة، بفضل ذلك العَشَا. لم يهتمَّ بأن يعرف إن كان رفاقُهُ يسيرون خلفه، ولم يُواسِ الجريحَ الذي كان ينادي على أمِّهِ ويدعو اللهَ. ولم يَرَ كذلك، وهو يغادر الساحةَ، مئاتِ البِلاغِ[2] المُهْمَلَةَ تنتشرُ في فضاء طفولته، والطرابيشَ الملطَّخة بالدماء، والباكينَ من الرجال.

استقبلَتْهُ داخل أزقّةِ برّيمة زغاريدُ النِّساء المتجمِّعاتِ فوق الأسطح. بدا له أنهنَّ يُشَجِّعْنَهُ، ويَقُدْنَ خطاهُ إلى بيت والدته،

---

(1) جمع بَلْغَة، وتعني في الدارجة المغربية النعل التقليدي الذي ينتعلُهُ الرجال. (المترجم)

(2) مركز احتجاز. (المترجم)

فانتهى، مثل مُسَرْنَمٍ، إلى الباب القديم المُسَمَّر وطرَقَهُ. فتحَ له البابَ شيخٌ، فدفعهُ ولَجَ إلى داخل الفِناء، وما أن أُقْفِلَ البابُ من دونه حتى سأله:

«من أنتَ؟

مكتبة
t.me/t_pdf

– وأنتَ، من أنت؟ أجابه الشيخُ.

– هذا بيت أُمِّي. أين هم؟

– لقد غادروا منذ أسابيع. وأحرسُ البيتَ في غيابهم». ألقى الحارسُ نظرةً قلقةً على الجسد الذي يحملُهُ عمر فوق ظهره وأضافَ قائلاً: «لا أريدُ مشاكل».

مدَّدَ عمرُ الجريحَ فوق مقعد رطب. وقرَّبَ وجهَهُ من الشّابِّ ووضعَ أذنَهُ على فمه. كان يتنفَّسُ.

«لا تغفلْ عنه»، أمَرَهُ عمرُ الذي ارتقى السلَّمَ بسرعةٍ، مستعيناً بوضع يديه على الدرجات. لم يكن يرى سوى أشكالٍ غير واضحة، هالاتٍ من الضوء، وحركاتٍ مُقلِقة. وعندئذ شَمَّ رائحةَ الدُّخان وأدركَ أنَّ البيوت تحترق في كلِّ مكان، وأضْرِمَتْ النيرانُ في متاجر الخَوَنَةِ، وأنَّ المدينةَ كلَّها في حالة تَمَرُّدٍ. سمعَ هديرَ طائرة تُحَلِّقُ فوق المدينة العتيقة، وصوتَ طلقات الرصاص في البعيد. فابتهج وهو يفكِّرُ أنَّ الرجال في الخارج لا يزالون يقاتلون، ولا بدَّ أنَّ فرنسا، في شخص جيلبير غراندفال، ترتعدُ أمام تلك الكارثة. وعند آخر الصباح، كان الكُوم[1] بلباس رجال الدَّرك المتحرِّك، قد عزلوا المدينةَ العتيقةَ كلِّياً عن المدينة الجديدة. واتَّخذَتْ، قُرب معسكر بوبلان، ثلاثُ دبّاباتٍ مواقعَها، موجِّهَةً مَدافعَها نحو المدينة الأهلية.

---

(1) الجنود المغاربة التابعون لجيش أفريقيا الفرنسي. (المترجم)

وعندما هبطَ عمر من جديد، كان الولدُ فقدَ وعيه. وكان الحارسُ الشيخُ إلى جانبه، يشهقُ ويلطُمُ جبينَهُ. أمَرَهُ عمرُ أن يصمت، ومثلما كانت تفعل القططُ في السابق، عبرَ الشيخُ الفِناءَ وذهبَ للاختباء في حجرة مِّي لالَّة القديمة. ظلَّ عمرُ، طوالَ العشيّة، جالساً في الفناء الملتهب. يَدْلُكُ بين الحين والآخر صدغيه ويُفتِّحُ عينَيه الشبيهتَين بعين البومة، كأنه يأملُ أن يستردَّ بذلك بصرهُ. لم يكن يريد أن يغامِرَ بالخروج فيستوقفه رجالُ الشرطة الذين كانوا يجولون في أزقّة المدينة العتيقة، يطرقون أبوابَ البيوت، ويُهدِّدون السكَّانَ بأن يقتحموا عليهم بيوتَهم بالقوة ونهبِ كلٍّ ما فيها. كانت سياراتُ الجيب تطوفُ الشوارعَ من أجل إجلاء الأوروبيين الذين كانوا لا يزالون يسكنون في المدينة العتيقة ونَقْلِهِمْ إلى أرض المعارض أو إلى فندق بوردو، الذي صُودِرَ للمناسبة.

وبعد بضع ساعاتٍ، غابَ عمرُ في النوم. وشرعَ الشيخُ، الذي كان ينتفضُ عند أدنى صوت، في الصلاة. ونظر إلى عمر وقال في نفسه إنَّ المرء ينبغي له أن يكون لديه قلبٌ شديد البرودة، ومفتقراً إلى كلِّ حِسٍّ أخلاقيٍّ أو مشاعر، ليكون في مقدوره أن ينامَ في مثل تلك الأحوال. وفي أثناء الليل، اضطربَ الجريحُ. اقترب منه الحارسُ، وأمسكَ يدَهُ وحاول أن يلتقطَ ما يهمسُ به الصغيرُ. لم يكن الولدُ سوى بدويٍّ، مسكينٍ، فَرَّ من فقر الجبال ليلتحق بأحياء القصدير في الدار البيضاء. وحاول، مدَّةَ شهورٍ، أن يظفرَ بعمل في ورشٍ من تلك الورشات التي امتُدِحَتْ له عجائبُها. لم يَقْبَلوا به، فاضطرَّ إلى أن يجترَّ حبلَ العيش البئيس، مثله مثل آلاف المُعْدِمين، في المقالِعِ، في ضواحي المدينة البيضاء، غير قادرٍ، من شِدَّةِ الفقر والخجل، على التفكير في العودة إلى بلدته. هناك، وسط دُور الصفيح، في تلك

الأحياء حيث يتبرَّزُ الأطفالُ، الذين لا أَبَ لهم، فوق الأرض، ويموتون من خُناقٍ، هناك عثرَ عليه أحدُ المُجَنِّدين. لا بدَّ أنه شاهدَ في عينيه الحقدَ واليأسَ واعتبر أنه قد ظفر بمجنَّدٍ جيّد. كان الشابُّ، واقعاً فريسةَ الحمّى والألم، يطلبُ أن يُعْلِموا أُمَّهُ.

وفي الصباح الباكر، نادى عمر على الحارس.

«ستذهبُ للبحث عن طبيب. إن سألتك الشرطةُ إلى أين أنتَ ذاهبٌ، قلْ إنَّ امرأةً تضعُ مولودَها، والأمر مستعجلٌ. أسرِعْ. تذهبُ إلى هناك وتعود، أفهمتَ؟».

وأعطى ورقةً ماليةً للشيخ، الذي بادر بالخروج فرحاً بمغادرة ذلك البيت الملعون.

بعد ساعتين، دخلَ دراغان إلى البيت. لم يطرح أيَّ سؤال على الشيخ واكتفى بأنْ تبعَهُ، حاملاً في يده حقيبته الجلدية القديمة. لم يكن يتوقع أن يرى عمر وهَمَّ بالتراجع عندما انتصب أمامه جسمُ الرجل الشاب.

«عندنا جريحٌ».

تبعهُ دراغان وانحنى فوق المراهق الذي صارت أنفاسُهُ واهنةً. وخلفهُ كان شقيقُ أمين يضطربُ قلقاً. كان غيابُ النظارات يسمح بِتَبَيُّن وجهه الطفوليّ، وملامحه الدقيقة والمشدودة. وكان شعره ملتصقاً من العرق، وعنقُهُ مكسوّاً بالدم المتيبِّس. وكانت رائحته مُنْتِنَةً.

فتَّشَ دراغان في حقيبته. وطلب من الشيخ أن يساعده، فأغلى الحارسُ الماءَ ونظَّفَ الأدوات. طَهَّرَ الطبيبُ الجرحَ، وصنع نوعاً من الضمّادة حول ذراع الجريح وأعطى الشّابَّ مهدِّئاً. وكان يُكَلِّمُهُ برفقٍ وهو يعالجُهُ، ويداعبُ جبينَهُ ويُطَمْئِنُهُ.

وبينما كان دراغان منشغلاً بإعادة رتق الجرح، دخلَ رفاقُ عمر

إلى البيت. وعندما رأى الحارسُ مدى التبجيل الذي يعاملون به قائدَهم، صار فجأةً شديدَ التزلُّف. اضطربَ، وجرى نحو المطبخ وشرع يُعِدُّ الشايَ من أجل محاربي المقاومة. لعنَ الفرنسيين لعناً، ووصفَ المسيحيين بالكفّار، وعندما التقى نظرُهُ بنظرة دراغان، رفعَ هذا الأخيرُ كتفيه للدلالة على أنَّ ذلك لا يعنيه.

اقترب الطبيبُ من عمر ليُوَدِّعَهُ.

«يجب مراقبة الجرح وتنظيفه بانتظام. يمكنني أن أعود لزيارته في المساء إن أردتَ. سأجلبُ ضمّادَةً نظيفةً وأدويةً من أجل الحمّى.

- هذا لطفٌ منك، لكننا لن نكون هنا حينئذ، أجابه عمر.

- كان شقيقك شديد القلق عليك. بحث عنك في كل مكان. كانت تسري أخبار أنَّك في السجن.

- لكننا جميعاً داخل السجن. لا يمكننا أن ندَّعيَ أننا أحرارٌ ما دمنا نعيشُ في بلد مستعمَرٍ».

لم يجد دراغان جواباً يَرُدُّ به. شدَّ على يد عمر وانصرفَ. سار في أزقَّةِ المدينة العتيقة الخالية، وكان الحِدادُ والحزنُ يطبعان الوجوهَ النادرة التي صادَفها في طريقه. وارتفع صوتُ مؤذِّنٍ. شهد ذلك الصباحُ دفنَ أربعة شبّانٍ. وكان رجال الشرطة الفرنسيون أقاموا عند الفجر شريطاً أمنيّاً، وسار موكبُ الجنازة تحت حمايتهم إلى غاية المسجد، بهدوءٍ وخشوع. وكان عمر عرضَ مالاً على الطبيب، وهو يرافقُهُ إلى الباب، غير أنَّ هذا الأخير رفَضَ بحِدَّةٍ. «إنه قاسٍ»، قال دراغان في نفسه، وهو قافِلٌ إلى بيته. كان شقيقُ أمين يُذَكِّرُهُ بأولئك الرجال الذين لَقِيَهُمْ قديماً، في طريق منفاه. رجال مُفْعَمُون بالكلمات الكبيرة، رجالٌ مُتْخَمُونَ بالمُثُل، رجالٌ اسْتَنْزَفُوا في ذواتهم، من كثرة الخُطَبِ الرنّانةِ، كلَّ شكل من أشكال الإنسانية.

منحَ دراغان السائقَ إجازةً من العمل ذلك النهار. واتخذ مكانه أمام مقود السيارة وسار بها، مشرعةَ النوافذ، إلى غاية مزرعة أسرة بلحاج. كانت السماءُ، في الخارج، ذات زرقة رقيقة، والحرارةُ ثقيلة ثقلاً يبدو معه أنَّ حقلاً يمكن أن يشتعل في أيٍّ لحظة. فتح دراغان فمه واستنشق الريحَ الساخنة، الريح الخبيثة التي أسخنَت صدرهُ وأثارَت سعالَهُ. كان في الجوِّ مزيجٌ من رائحة الرّند والبَقِّ المسحوق. وكعادته في تلك اللحظات الكئيبة، فكَّرَ في أشجاره وفي برتقاله الناضج الغَضِّ الذي قد ينتقل ذات يوم ليتدحرج فوق الموائد التشيكية والهنغارية، كأنه بعثَ بقطعة شمسٍ إلى تلك الأراضي الليلية.

وعندما وصلَ إلى التَّلَّةِ، شعر تقريباً بالذَّنْب لأنه يحمل معه تلك الأنباء الحزينة. لم يكن من صنف أولئك الذين يؤمنون بأسطورة البلد الطيّب المأهول ببدويين من البربر، بسطاء ومرحين. لكنه كان يعلمُ، على الرغم من كل شيء، أن هذا المكان يسود فيه نوعٌ من السِّلم، والانسجام، يسهرُ عليه أمين وماتيلد. ولم يكن يجهل أنهما يتعمّدان أن يظلّا بعيدَين عن هياج المدينة؛ وأنهما يحتفظان بالمذياع مُطفأً ولا تصلح لديهم الجرائد إلا لتغليف البيض الطرِيِّ وصُنْعِ قبّعاتٍ أو طائراتٍ من أجل سليم. ركنَ سيّارتَهُ، وشاهدَ أميناً في البعيد وهو يُسرعُ في العودة. وفي الحديقة، كانت عائشة قد تسلَّقَتْ شجرةً وسلمى جالسةً فوق الأرجوحة التي علَّقها أمين على أغصان «اللِّيرتُقال». كان زجاج النوافذ رُشَّ بالإسمنت الملتهب وتتصاعدُ من الأرض سحابةٌ من بخار. ومن بين أوراق الأشجار يُسمَعُ صوتُ طيران العصافير، فغمرت الدموع عيني دراغان أمام لا مبالاة الطبيعة إزاء حماقة الناس. سيقتلون بعضهم بعضاً، قال في نفسه، بينما ستُواصِلُ الفراشاتُ طيرانَها.

استقبلت ماتيلد دراغان بمرحٍ زادَ من انقباض قلبه قليلاً. وأرادت أن تأخذهُ معها إلى المستوصف، وتعرضَ عليه ما أدخلَتْهُ من تطوير على تخزين الأدوات الطبية والأدوية. سألتْهُ عن أخبار كورين التي انتقلتْ للإقامة في بيتهم الصغير على ساحل البحر، والتي تشتاق إليها. واقترحتْ عليه أن يفطر معهم واعتذرت، وقد كَسَتْ بقعٌ حمراءُ خدَّيها وعنقَها، لأنها لم تُعِدَّ سوى القهوة بالحليب وشرائح الخبز. «فطور هزيل، لكنه يُعجبُ الأطفال». خشيَ دراغان أن يُسمعَ كلامُهُ فهمسَ إليها أنَّ الأمر يتعلَّقُ بقضية خطيرة، ومن الأفضل أن يجتمعوا في المكتب. جلس قبالة أمين وماتيلد وحكى، بصوت محايد، أحداث يوم أمس. كان أمين يضطربُ على كرسيِّه، وينظر إلى الخارج كأنَّ أمراً مستعجلاً في انتظاره. كان كمن يقول: «وفيمَ يعنيني هذا الأمر؟»، وعندما نطقَ دراغان اسمَ عمر، تجمَّدَ الزوجان في انتباهٍ مشترَكٍ، وتمعُّنٍ مماثلٍ. لم ينظر أحدُهما إلى الآخر ولو مرة واحدة، لكن دراغان لاحَظَ أنهما يمسكُ أحدُهما يدَ الآخر. لم يكونا، في تلك اللحظة، ينتميان إلى معسكرَين متعارضَين. لا يفرح أحدُهما لمصيبة الآخر. ولا ينتظران أن يبكيَ الواحدُ منهما أو يُهنِّئَ نفسَهُ، ليهجمَ عليه الآخرُ ويكيلَ له الاتِّهامات. لا، كانا ينتميان، في تلك اللحظة، كلاهُما، إلى معسكر غير موجود، معسكر يمتزج فيه بكيفية متساوية، ومن ثَمَّ غريبة، تسامُحٌ تجاه العنف وإشفاقٌ على القَتَلَةِ والمقتولين. تبدو لهما جميعُ المشاعر التي تعتمل داخلهما كأنها خيانة، فيُفَضِّلان إسرارَها. كانا ضحيّتَين وجلاّدَين في الوقت نفسه، رفيقَين وخصمَين، كائنَين هجينَين عاجزَين عن أن يمنحا اسماً لولائهما. كانا مثل مفصولَين من الكنيسة لا يستطيعان الصلاة في أيِّ كنيسة، وإلاهُهُما إلهٌ سريٌّ، حميمٌ، يجهلان حتى اسمه.

IX

كان العيد الكبير سيكون يوم 30 يوليو. وكان الناسُ، في المدينة والبادية على السواء، يخشون أن يصير العيدُ مناسبةً لحدوث تجاوزاتٍ، ويتحوَّل الاحتفالُ بتضحية إبراهيم إلى مجزرة. أصدرت الإقامةُ العامةُ أوامرَ صارمةً للعسكريين المقيمين في مكناس وللموظَّفين الذين أغاظهُمْ عدمُ قدرتهم على الالتحاق بالوطن الأمِّ في أثناء عطلة الصيف. وفي نواحي المزرعة، غادر الكثيرُ من المُعَمِّرين مزارعَهُم. وانتقل روجيه مارياني إلى كابو نيغرو، حيث يمتلك بيتاً.

اشترى أمين، أسبوعاً قبيل العيد، كبشاً ربطوهُ إلى صفصافة، وكان مراد يُطعِمُهُ التِّبنَ. وكانت عائشة وشقيقُها يراقبان الحيوانَ، من نافذة الصالة العالية، يتأملان صوفَهُ الأصفر، وعينَيه الحزينتَين، وقرنَيه المُهَدِّدَين. ورغب الطفلُ الصغيرُ في أن يذهبَ ليداعب الحيوانَ لكن شقيقته منَعَتْهُ. «بابا اشتراهُ من أجلنا»، ردَّدَ الطفلُ، فاستبدَّتْ بعائشةَ نوبَةُ قسوةٍ عارمَة، ووصفتْ له، بسَيْلٍ من التفاصيل، ما سيحدُثُ للحيوان. لم يُسْمَحْ للطفلين بمشاهدة الجزّار وهو يذبح الحيوانَ الذي انبجستْ دماؤه ثم انتشرت، ساخنةً، فوق عشب الحديقة. وأحضرت طامو طشتاً ونظَّفَت العشبَ الأحمرَ شاكرةً اللهَ على نِعَمِهِ.

زغردت بعضُ النساء، وقطَّعَ أحدُ العمّال الحيوانَ على الأرض. وعُلِّقَت الفروةُ على البوّابة. وأوقدت طامو وأخواتُها ناراً كبيرة في الفِناء الخلفيِّ حيث سيُشوى اللحمُ. وكان يظهرُ من نافذة المطبخ تطايُرُ الجمر، وتُسمعُ الأيادي وهي تغوصُ في أحشاء الحيوان التي تُصْدِرُ صوتَ إسفنج مُشْبَعٍ بالماء، صوتَ شفطٍ ومخاط.

وضعتْ ماتيلد القلبَ، والرئتَين، والكبدَ في حوض كبير من حديد. ونادتْ على عائشة وقرَّبَتْ وجهَ الطفلة من القلب الأرجوانيِّ. «انظري، تماماً مثلما هو موضَّحٌ في الكتاب. يَمُرُّ الدَّمُ من هنا». أدخَلَتْ ماتيلد إصبَعَها في الشريان الأبهري ثم سَمَّتْ البُطَينَين، والأُذَيْن، واستنتَجَتْ: «هذا لا أدري كيف يسمَّى، نسيتُ». ثم أمسكت الرئتَين تحت أعين الخادمتَين المصدومتين واللتين وجدتا ذلك السلوكَ غير لائق ومُدَنِّساً. وضعتْ ماتيلد الجَيْبَيْن الرماديين اللزجين تحت الصنبور ونظرت إليهما يمتلئان بالماء. صَفَّقَ سليم بيديه فقبَّلَتْ جبينَهُ. «تخيَّلي الهواءَ بدلَ الماء. أرأيتِ، حبيبتي، هكذا نتنفَّسُ».

ثلاثة أيام بعد العيد، حلَّ بالدّوّار رجالٌ من جيش التحرير، في عِزِّ الليل، وكانوا يُخفون وجوههم تحت أقنعة سوداء. أمروا يِطُّو وبّا ميلود أن يُطعِماهم ويعثرا لهم على البنزين. وانصرفوا عند الصباح، واعدين بأنَّ النصر قريبٌ وأنَّ زمن السَّلب قد ولَّى.

*

كانت ماتيلد، في تلك الفترة، تعتقد أنَّ طفليها أصغر من أن يُدْرِكا مغزى ما كان يحدث، وإذا كانت لم تشرح لهما شيئاً، فلم

يكن ذلك لا عن لا مبالاة، ولا عن مغالاة في السلطة. كانت مقتنعةً أنَّ الطفلَين يعيشان، على الرغم من كل شيء، داخل فقّاعةٍ من البراءة يعجزُ الكبارُ عن اختراقها. كانت ماتيلد تعتقد أنها تعرفُ ابنتَها أفضل من أيِّ كان، وأنها تقرأُ في روحها مثلما يُتَأَمَّلُ منظرٌ جميلٌ عبر نافذة. وكانت تُعامِلُ عائشةَ معاملة صديقة، وشريكة، تُسِرُّ لها بأمورٍ ليست من سنِّها، وكانت تُطمئنُ نفسَها قائلة: «إن لم تفهم، فلن يؤذيَها ذلك».

وفعلاً، لم تكن عائشة تفهم. كان عالمُ الكبار، في نظرها، ضبابياً، غير واضح، مثله مثل الريف عند الفجر أو عند آخر النهار، في تلك الساعات التي تختفي فيها حدودُ الأشياء. كان أبواها يتحدَّثان أمامها، فتلتقطُ فتاتاً من تلك الأحاديث التي تخفُتُ فيها الأصواتُ وهي تنطق كلمةَ قَتْل وكلمةَ اختفاء. وكانت عائشة تطرحُ على نفسها أحياناً أسئلةً صامتةً. تتساءلُ لماذا لم تعد سلمى تنامُ معها. ولماذا العاملاتُ يجرُّهُنَّ عمّالٌ، أياديهم مشقَّقَةٌ وأعناقُهم محمرةٌ من الشمس، إلى الأعشاب العالية. كانت ترتابُ في وجود أمر اسمُهُ التعاسةُ، وفي أنَّ الرجال قادرون على أن يكونوا قساةً. فكانت تبحثُ في الطبيعة المحيطة بها عن تفسير لكلِّ ذلك.

وفي ذلك الصيف، استعادتْ حياتَها الفوضويّة، حياتَها من غير توقيت ولا إكراهات. استكشفتْ عالَمَ التَّلَّةِ التي كانت بالنسبة إليها مثل جزيرة وسطَ السَّهْل. تجد بها أحياناً أطفالاً آخرين، أولاداً من سنِّها يحملون بين أذرعهم حملاناً خائفةً ومتّسخة. يعبرون الحقولَ عراةَ الصدور، بَشَراتُهم سمراءُ من الشمس، والزّغَبُ فوق رقابهم وأذرعهم قد اصفَرَّ. ويَصنَعُ سيلانُ العرق، على صدورهم المغبّرة، أخاديدَ أقلَّ قتامة. واضطربتْ عائشة عندما قصدَها أولئك الرعاةُ،

واقترحوا عليها مداعبةَ الحيوانات. لم تستطع رفعَ بصرها عن أكتافهم المفتولة العضلات، وكُعُوبِهِمْ الغليظة، وترى فيهم الرجلَ الذي سيكونون في المستقبل. كانوا، في تلك اللحظة، أطفالاً مثلها، يسبحون في حال من السعادة، غير أن عائشة كانت تُدْرِكُ، دون أن تعيَ ذلك حقيقةً، أنَّ حياة الكبار تكاد تلحَقُهُم. فالعملُ، والفقرُ كانا يدفعان تلك الأجساد إلى الشيخوخة أسرع مِمّا كان ينمو جسدُها.

كانت تتبع، كلَّ يوم، تحت الأشجار، قافلةَ العمّال الذين تحاكي حركاتهم، وتحرصُ على ألّا تُزعِجَهُمْ في عملهم. ساعَدَتْهُم في صنع فزّاعةٍ بثيابٍ قديمة لأمين وبِتِبْنٍ طَرِيٍّ. وعلّقَتْ على الأشجار المثمرة مرايا صغيرةً مُهَشَّمَةً تُفزِعُ الطيورَ. كانت تستطيع أن تظلَّ ساعاتٍ تراقبُ عشَّ بومةٍ في شجرة الأفوكادو أو جُحْرَ خُلْدٍ في أقصى الحديقة. كانت صبورةً وصموتة، وتعلَّمَت صيدَ الحرباء والسحلية التي تخبِّئها داخل علبة ترفع غطاءها بسرعة لتراقب فريستَها. وذات صباح، عثرتْ في طريقها على جنينِ طائرٍ صغيرٍ، ليس أكبر من خنصرها. فالحيوان، الذي لم يكن قد استوى حيواناً بعدُ، كان يملك منقاراً، ومخلبين، وهيكلاً عظمياً بالغ الصِّغَر فيكاد يكون غير حقيقيٍّ. اضطجَعَتْ عائشة، واضعةً خدَّها على الأرض، وشرعتْ تتأمَّلُ عملَ النَّمْل الذي يركُضُ فوق الجثّة. قالت في نفسها: «لا يمنعُهُ صِغَرُ حجمه من أن يكون قاسياً». كانت تودُّ أن تسألَ الأرضَ، أن تطلبَ منها شهادتَها عمّا رأتْهُ، عن الآخرين الذين سبقوها للعيش في ذلك المكان، وعن الذين ماتوا ولم تعرفهم قطُّ.

وبسببٍ من شعورها بالحريّة، أرادت عائشة أن تقفَ على حدود المزرعة. لم تعرف من قبل، على وجه الحقيقة، إلى أيِّ مدى

يمكنها أن تتقدَّم، أين تنتهي مزرعتُهُم وأين يبدأُ عالَمُ الآخرين. تحملُها قُواها، كلَّ يوم، أبعد قليلاً، وتتوقَّعُ أحياناً أن تعثر على سور، أو سياج، أو حافّةٍ. شيء يجعلُها تقول: «هنا النهاية. لا يمكنني الذهاب إلى أبعد من هذا». وذات مساء، تجاوزت المخزنَ حيث يوجدُ الجرّارُ. عبرتْ حقولَ السّفرجل والزيتون، واتَّخَذَتْ سبيلَها بين سيقان عبّاد الشمس الذي أحرقَتْهُ الشمسُ. ووجدتْ نفسَها فوق أرض يكسوها القُرَّاصُ الذي يطاولُها إلى الحزام، وهناك شاهدتْ سوراً صغيراً علوّهُ متر. كان مطليّاً بالجير ويُشَكِّلُ حِمى صغيراً تنتشر فيه الأعشابُ البرّيّة. سبق لها أن أَتَتْ إلى ذلك المكان. كان ذلك منذ زمن بعيد، كانت جد صغيرة، وكانت تمسكُ بيد ماتيلد التي قطفتْ وروداً يكسوها البعوضُ. وكانت أُمُّها، حينئذ، أشارتْ إلى السُّور وقالت: «هناكَ سَنُدْفَنُ أنا وأبوكِ». اقتربت عائشة من السُّور. كانت شجيراتُ الصبّار، التي يعلوها التّين الشوكيُّ، تنشرُ رائحةَ العسل، فاضطجعتْ على الأرض، في المكان الذي تخيَّلتْ أنْ سَيُوارى فيه جسدُ أمِّها. أيمكنُ أن يأتيَ يومٌ تصيرُ فيه ماتيلد عجوزاً، عجوزاً ومتغضّنةً مثل مِّي لالَّة؟ وضعَتْ مرفقَها على عينيها لتحميَ وجهَها من الشمس وتخَيَّلَتْ لوحات التشريح التي أهداها إياهم دراغان. كانت تحفظُ عن ظهر قلب أسماء بعض العظام بالهنغارية: **كومبكسون** بالنسبة إلى عظم الفخذ، و**غيرينك** للعمود الفقريِّ، و**كولكسونت** لعظم التّرقُوة.

*

ذات مساء، في أثناء العشاء، أخبرَهُمْ أمين أنهم سيذهبون لقضاء يومَين في البحر، على شاطئ مَهْدِيَّة. لم تكن الوجهةُ مفاجِئَةً؛

كان الشاطئَ الأقربَ إلى مكناس، يحتاجُ الأمرُ إلى أقلّ من ثلاث ساعاتٍ للوصول إليه بالسيّارة. غير أنَّ أميناً كان دائمَ السخرية من مظاهر الترفيه التي تحلم ماتيلد بممارستها. النزهات، والجولات في الغابة، والخرجات إلى الجبل. كان يقول عن الذين يحبّون التسليةَ إنهم كسالى، وعديمو الفائدة، ومتبطّلون. قد يكون إنما نظَّمَ تلك الرحلةَ بسبب إلحاح دراغان الذي يملكُ بيتاً صغيراً في ذلك الشاطئ، وكان يلاحظُ في عيني ماتيلد، صديقته الدائمة، انبثاقَ بُروقِ الغيرة عندما يتحدثُ عن العُطَل. لم تكن غيرةً حقودةً ولا فظَّةً، ولكن غيرة حزينة مثلها مثل طفل ينظر إلى طفل آخر يداعبُ لعبةً قد أَقَرَّ مع نفسه أنه لن يملكَ مثلها أبداً. أو ربما يكون أمين قادَتْهُ مشاعرُ أعمقُ، رغبةٌ في أن يحصل على الصفح أو في أن يُسْعِدَ تلك المرأةَ التي يراها تنطفئُ رويداً رويداً فوق التلّة، في ذلك العالم حيث لا يسودُ سوى العمل.

ركبوا السيارةَ عند الفجر. كانت السماءُ ورديَّةً، واللحظةُ وقتَ تَضَوُّعِ الورود التي غرَسَتْها ماتيلد عند مدخل المزرعة. استعجلَ أمين الطفلَين، يريد أن يغتنم برودةَ الصباح في الطريق. بقيتْ سلمى في المزرعة، ولم تستيقظ لتُوَدِّعَهُم، وقالت ماتيلد في نفسها إنَّ ذلك أفضل. لم تكن لتقدر على مواجهة نظرة الشابة. جلس سليم وعائشة في الكراسي الخلفية من السيارة. وكانت ماتيلد تعتمر قبَّعةً من الرافية، ووضعتْ في قفة كبيرة مجرفتَين صغيرتَين وسطلاً قديماً يُستخدم في الأشغال المنزلية.

وقع ازدحامٌ في السّير على بُعد بضعة كيلومترات من البحر. ومرضَ سليم، فانتشرت في السيارة رائحةُ القيء. رائحة الحليب الخاثر الممزوج بالكوكا كولا. ضلُّوا طريقَهم في أزقّةٍ تتمشى فيها

أُسَرٌ تقضي عطلتَها هناك، واستغرقوا وقتاً طويلاً ليعثروا على بيت أسرة بالوزي. كانت كورين تستمتع بالشمس في الشرفة، ودراغان محمرّ الوجه يرشح عرقاً، وقد غالى في شرب الجعة. كان مرحاً ورفعَ عائشةَ بين ذراعيه، وجعلها تُحلِّقُ في الهواء. وستظلُّ ذكرى تلك الخِفَّةِ، في تَيْنِك اليدين الهائلتين المشعرتَين، بنفس قوة ذكرى البحر تقريباً، ولا تُطاقُ مثلها تقريباً. «ماذا؟ قال الطبيبُ. ألم تشاهدي المحيطَ من قبل؟ يجبُ أن نُصلِحَ هذا الأمر». وسَحَبَ معه الطفلةَ فوق الرمل، لكنها وَدَّتْ لو أنه تصرَّفَ بتسرُّعٍ أقلّ. ودَّتْ لو بقيتْ بضعَ لحظاتٍ أخرى، مغمضة العينين، فوق تلك الشرفة، تحت الشمس، والإنصات إلى صوت البحر المثير والساحر. هذا ما أعجبها أول الأمر. هذا ما وجدَتْهُ جميلاً. ذلك الصوت الشبيه بصوت النفخ في صحيفة تُطْوى على شكل منظار طويل يُلصَقُ بأذن شخصٍ آخر. ذلك الصوت، الشبيه بصوت تنفُّسِ شخص ينامُ، سعيداً، ومليئاً بالأحلام. تلك الأمواج المتكسِّرة، ذلك الغضب اللطيف الذي تمتزج به، مُصْمَتَةً بعض الشيء، ضحكاتُ الأطفال الذين يلعبون، وتوجيهاتُ النساء -«لا تَدْنُ كثيراً، يمكن أن تغرق!»-، ونداءات بائعي اللّبِّ والفطائر الذين كانت تحترق أقدامهم فوق الرمل. تقدَّمَ دراغان نحو الماء وهو يحملها بين ذراعيه. وأنزَلَ الفتاةَ الصغيرةَ التي كانت لا تزال تحتفظ بنعليها من الجلد الفاتح اللون، وجلسَتْ على الأرض لتخلعهما. لامَسَها الماءُ، فما خافت ولو لحظةً. حاولتْ أن تُمسكَ بأناملها الرغوةَ التي تتشكَّلُ على حافة الموج. «زبد البحر»، قال لها دراغان بلهجته القويّة. وكان يبدو فخوراً بمعرفته تلك الكلمة.

تناولَ الكبارُ طعام الغداء في الشرفة. «أتى صيّادٌ هذا الصباح

يعرضُ علينا أسماكَهُ لهذا اليوم. لن تأكلا أبداً شيئاً بمثل هذه الطراوة». وكانت الخادمة التي أحضرَتْها كورين من مكناس أعدَّتْ سَلَطَةً من الطماطم والجَزَر المنقوع، وأكلوا بأصابعهم السردينَ المشويَّ ونوعاً من سمكٍ أبيض، طويل مثل الأنقليس، ذي لحمٍ صلبٍ وبلا طعم. وكانت ماتيلد لا تفتأ تغوص بأصابعها في صحن الطفلين. تُفَتِّتُ السمكَ، وتقول: «لا نحتاج إلى أن يختنقا بشوكة، فيفسُد علينا الأمرُ كلُّهُ».

كانت ماتيلد في طفولتها سبّاحةً لا تُجارى. كان رفاقُها يقولون إنها تملك جسداً مناسباً لذلك. كتفان عريضتان، وفخذان قويّتان، وبشرةٌ سميكة. سبحتْ في نهر الراين حتى في الخريف، وحتى عندما كان يتأخَّرُ فصلُ الربيع، فتطلع من الماء مزرقّة الشفتين، مجعَّدَةَ الأصابع. كانت تستطيع حبسَ أنفاسها مدةً طويلة، ولا أحبَّ إليها من أن تحتفظ برأسها تحت الماء، وأن تثملَ بذاك الذي لم يكن صمتاً، بل صفيراً صادراً من الأعماق، غياباً لاضطراب الإنسان. وفي إحدى المرّات، وكانت في الرابعة عشرة أو في الخامسة عشرة من عمرها، تركتْ نفسها تطفو فوق الماء، وقد غمسَتْ نصفَ وجهها في الماء، مثل غصن قديم، مدَّةً طويلةً جعلتْ أحدَ رفاقها يغطس في النهر لنجدتها. حسبها ماتتْ، وحضَرَتْهُ قصصٌ رومانسيةٌ لفتياتٍ غرقن في النهر بسبب كآبة الحبِّ. لكن ماتيلد رفعت رأسَها، وضحكتْ: «لقد خدعْتُكَ!» وغضب الولدُ. «وسروالي الجديد! أمي ستُوبِّخني».

ارتدتْ كورين لباسَ السباحة وتبعَتْها ماتيلد إلى الشاطئ. كانت أُسَرٌ أقامتْ خياماً كبيرةً في البعيد، فوق الرمل، يُخَيِّمون هناك شهراً كاملاً، يطبخون فوق مواقد صغيرة من الطين، ويغتسلون في

الرشّاشات العمومية. تقدَّمتْ ماتيلد، وعندما بلغ الماءُ صدرَها، شعرتْ بسعادة غامرة فكادتْ أن ترتمي على كورين لتحضنها بين ذراعيها. سبحتْ، أبعد ما استطاعتْ، وغاصتْ إلى أعمق ما سمحتْ به رئتاها. كانت تلتفتُ، أحياناً، فترى البيت الصغير يزداد صغراً، أصغر فأصغر، ويغيبُ في ذلك الصَّفّ من البيوت المتماثلة كلَّ التماثل في هندسة بنيانها. وأخذتْ، دون أن تعرف لماذا، تلوِّحُ بذراعيها، ربما لتحيّة طفليها، أو لتقول: «انظروا إلى أيِّ مدى بلغتُ».

حفرَ سليم، الذي وضعوا على رأسه قبعةَ قَشٍّ كبيرةً، حفرةً في الرمل أثارتْ فضولَ الأطفال الآخرين. «سنصنع قصراً»، قالت طفلةٌ صغيرةٌ. «لا ينبغي أن ننسى الخنادق المائية»، صاح ولدٌ تنقصُهُ ثلاثة أسنان ويلثغ في كلامه. وجلستْ عائشة معهم. كم يجعل البحرُ والرملُ الصداقات سهلةً! كانوا يمرحون معاً، نصفَ عراة، مُسمرَّةٌ بشرتُهم من أثر الشمس، ولا يفكِّرون في شيء سوى في الحَفْرِ أعمقَ ما يستطيعون، إلى أن يبلغوا الماءَ ويروا بحيرةً صغيرةً تتشكَّلُ حول قَصْرِهِم. وصار شعرُ عائشة، القصير والمتقصِّف والمتشابك في سائر الأيام، مجدولاً بشكل جميل، بفضل ماء البحر والريح، فمَرَّرَتْ يديها داخله. وفكَّرتْ في أنها يتعيَّنُ عليها أن تطلب من ماتيلد، في المزرعة، أن تَصُبَّ أكياساً كبيرةً من الملح في ماء الاستحمام.

وعند نهاية الأصيل، ساعدتْ كورين ماتيلد في غسل الطفلين. ثم استلقى الصغيران في الشرفة، وقد أعياهما اللعبُ والسباحة بعد الظهيرة. أحسَّتْ عائشة بتثاقل جفنيها، لكنَّ روعة المشهد أمامها أبقاها يقظى. تحولّت السماءُ إلى حمراء، ثم إلى وردية، ثم حَلَّتْ أخيراً هالةٌ أُرْجُوانيةٌ كَسَتِ الأفقَ، بينما كانت الشمسُ، التي بلغ

توهُّجُها غايتَهُ، تنزل نحو اليَمِّ لتغرق فيه. مَرَّ على الشاطئ بائعُ سنابل مشوية، وقبلتْ عائشة السنبلةَ التي قدَّمها لها دراغان. لم تكن جائعةً لكنها كانت ترغبُ في ألّا تقول لا لأيِّ شيء، أن تستمتع بكل ما يحملُهُ إليها ذلك اليومُ. قضمتْ من السنبلة، وعلقتْ بعضُ الحبوب بين أسنانها، آلَمها الأمرُ قليلاً وأخذتْ تسعُلُ. وقبل أن تستغرقَ في النوم، سمعتْ ضحكَ أبيها. ضحكٌ لم تسمعهُ قطُّ من قبل، متحرِّرٌ من القلق، ومن الأغراض الخفيّة.

*

عندما استيقظت عائشة في الغد، كان الكبارُ لا يزالون نائمين، وتمشَّتْ وحيدةً في الشرفة. رأتْ في تلك الليلة حلماً طويلاً بطولِ قشرة التفاحة التي تقشرها ماتيلد زامَّةً شفتيها، وهي تُقسِمُ أنها قادرة على صنع إكليلٍ طويلٍ من قشرة الفاكهة. تناول الزوجان بالوزي فطورهما بلباس السباحة، وهو الأمر الذي بدا صادماً بالنسبة إلى أمين. «نحن نعيش مثل روبنسون، شرح دراغان، الذي اكتستْ بشرتُهُ الحليبيّةُ لونَ الكرز، لا نلبس إلا الضروريَّ ولا نأكل إلا ما يُقَدِّمُهُ لنا البحرُ».

عند الظهيرة اشتدَّت الحرارةُ فتشكَّلَ سربٌ من اليعاسيب الحمراء واللامعة، فوق الماء، فكانت تغطسُ فيه رأساً قبل أن تُحلِّقَ من جديد. وكانت السماءُ بيضاء، والضوءُ باهِراً. قَرَّبَتْ ماتيلد المظلَّةَ والفُوَطَ أدنى ما يمكن من الماء، لتستمتع ببرودة البحر ولتراقب بشكل أفضل الطفلَين اللذين لا يملّان من اللعب في الأمواج، وإدخال يديهما في الرمل المبلَّل، والنظر إلى الأسماك الصغيرة وهي تلامسُ قدميهما. وجاء أمين ليجلس إلى جانب

زوجته. خلعَ قميصَهُ ثمَّ سروالَهُ الذي كان يرتدي تحته لباسَ سباحة أعارهُ إياه دراغان. وكانت بشرة بطنِهِ، وظهْرِهِ، ورَبْلَتَيْهِ، شاحبةً ويظهر أثرُ الشمس على ذراعيه العاريتين. يبدو أنه لم يُعَرِّضْ قطُّ جسدَهُ العاري لمداعبة الشمس.

لم يكن أمين يعرف السباحة، فقد كانت مِّي لالَّة تخاف دائماً من الماء، وتمنع صغارَها من الاقتراب من الواد أو حتى من البئر. كانت تقول لهم: «يمكن للماء أن يبلعكم». لكنَّ أميناً نظرَ إلى الأطِفال يرتمون في الموج، والنساءِ الضعيفات البيضاوات اللواتي يُسوِّين قبّعةَ العَوْمِ ويَسبحن وهنّ يرفعن رؤوسهنَّ فوق الماء، فقال في نفسه إنَّ الأمر لن يكون بالغ التعقيد. فليس من سببٍ يمنعُهُ من فعل ذلك، هو الذي كان يتفوّقُ في العَدْوِ على جميع رفاقه، ويركبُ من غير سرج، ويستطيع أن يتسلَّق شجرةً دون سند، معتمداً على قوة ذراعيه فحسب.

كان يتأهَّبُ للحاق بطفلَيه إذ سمع ماتيلد تصرخ. وصلت موجةٌ أكبر من الأخريات إلى الفُوَطِ وجرفَتْ معها ثيابَ أمين. وقفَ، قدماهُ في الماء، ينظرُ إلى سرواله يتلاعبُ به الموجُ. والمحيطُ، كأنه عشيقةٌ غيور، يهزأُ به ويُشير بإصبعه إلى عُرْيِهِ. أخذَ الطفلان يضحكان، وتسابقا من أجل اللِّحاق بملابس أمين والفوز بالجائزة التي بدا لهما أنها مستَحَقَّةٌ. وفي الأخير التقطَتْ ماتيلد السروال وعصَرَتْهُ بين يديها. وقال لها أمين: «لا ينبغي أن نتأخَّر. يجبُ أن نرجع إلى البيت».

وعندما ناديا على الطفلَين، رفضا الخروج من الماء. «لا، كانا يقولان، لا نريد أن ننصرف الآن». كان أمين وماتيلد ينتصبان أمامهما فوق الرمل، ويوبِّخانهما. «اخرجا الآن. هذا يكفي.

أتريدان أن نأتي لإخراجكما؟» ولم يترك لهما الطفلان الخيارَ. ارتمتْ ماتيلد في البحر بأناقة، وأما أمين فتقدَّمَ ماشياً بحذرٍ إلى أن بلغَ الماءُ إبطيه. بسطَ ذراعَهُ نحو ابنه، غاضباً وقد تجمَّدَ صوتُهُ من الغيظ، وأمسك به بعنف من شعره. أطلقَ سليم صرخةً. «لا تُفكِّرْ مرةً أخرى في عصيان والدكَ، أفهمتَ؟».

ولم تتمكَّن عائشة، في أثناء رحلة العودة، من أن تحبسَ دموعَها. ثَبَّتَتْ عينيها على الأفق ورفضت أن تَرُدَّ على أُمِّها التي كانت تحاول عبثاً أن تواسيها. وشاهدَتْ، على جانب طريقٍ، رجالاً يمشون، مقيَّدة أيديهم، عليهم أسمالٌ مرقّعةٌ، رجالاً يكسو الغبارُ شَعْرَهُمْ، وقالت في نفسها إنهم ربما أُخْرِجوا من مغارةٍ أو من حفرة. وقالت لها ماتيلد: «لا تنظري إليهم».

*

وصلوا إلى المزرعة في عِزِّ الليل. أخذتْ ماتيلد سليماً بين ذراعيها، وحمَلَ أمين عائشةَ النائمةَ إلى فراشها. وكان يَهُمُّ بإغلاق باب الحجرة، إذ ابنتُهُ تسألُهُ:

«بابا، لا يُهاجَمُ سوى الفرنسيين الأشرار، أليس كذلك؟ الأخيار، يحميهم العمّالُ، ألا تعتقد هذا؟».

بدا أمين متفاجئاً وجلسَ على السرير. فكَّر لحظاتٍ، مُطْرِقاً، وهو يَشُدُّ يديه أمام فمه.

«لا، قال بصوت قاطعٍ، هذا الأمر لا علاقة له بالخير أو بالعدل. يوجد أناسٌ أخيار احترقت مزارعُهُم، ويوجد أوغادٌ يُفْلِتون من كلِّ شيء. في الحروب، لا وجود لا لأخيار، ولا لأشرار، ولا لعدْلٍ.

- إنها الحربُ إذاً؟

- ليس تماماً»، قال أمين، وأضاف، كأنه يُحَدِّثُ نفسَهُ: «في الحقيقة، هذا أسوأ من الحرب. ذلك أنَّ أعداءنا أو من ينبغي أن يكونوا كذلك، نعيش معهم منذ زمن بعيد. بعضهم أصدقاؤنا، أو جيرانُنا، أو أفرادٌ من عائلتنا. كبروا معنا، وعندما أنظُرُ إليهم، لا أرى عدوّاً يجبُ قتلُهُ، لا، بل أرى طفلاً.

- لكن نحن، أنحن من جهة الأخيار أم من جهة الأشرار؟».

كانت عائشة اعتَدلَتْ فوق فراشها وتتطلَّعُ إليه بقلق. فكَّرَ في أنه لا يعرف كيف يحدِّثُ الأطفال، وأنها لا تفهمُ، من دون شكّ، ما كان يحاول أن يشرحه لها.

«نحن، قال لها، نحن مثلنا مثل شجرتكِ، نصفها من الليمون ونصفها الآخر من البرتقال. لسنا لا من هذه الجهة ولا من تلك.

- ونحن أيضاً سيقتلوننا؟

- لا، لن يصيبنا أيُّ سوء. أعدُكِ بهذا. يمكنكِ أن تنامي مطمئنّةً».

أمسكَ شحمتَيْ أذنَيْ ابنته بحنانٍ ليقرِّبَ وجهها من وجهه وطبعَ قبلةً على خدِّها. أغلقَ البابَ برفقٍ، وفكَّرَ حين صار في الممرِّ أنَّ الليرتُقال غير صالح للأكل. لُبُّها يابسٌ وطعمُها بالغ المرارة يبعث الدمع في العين. وقال في نفسه إنما حالُ الناس من حال النباتات. في النهاية، يتفوَّقُ صنفٌ على الآخر، وذات يوم سينتصر البرتقالُ على الليمون أو العكس، وحينئذ ستُثمِرُ الشجرةُ من جديد فواكِهَ صالحة للأكل.

*

لا، طمأنَ نفسَهُ، لن يأتيَ أحدٌ كي يقتلنا، وكان عاقِداً العزمَ على أن يَضمن ذلك. كان ينامُ، طوال شهر أغسطس، وقد وضع البندقيةَ تحت سريره وطلبَ من مراد أن يفعل كذلك. وساعدَ رئيسُ العمّال أميناً في صُنْعِ مخبأ سِرِّيٍّ داخلَ دولاب غرفة نوم الزوجين. أفرغاهُ، وفكّكا الرُّفوفَ واخترعوا نوعاً من القاع المضاعَف الخَفِيِّ. «تعالا إلى هنا»، قال ذات يوم للطفلين، فحضر سليم وعائشة أمامه.

«ادخلا هذا المكان».

وجدَ سليم اللعبةَ جِدَّ مسلِّية، فاندَسَّ داخل المخبأ وتبعَتْهُ شقيقتُهُ. وأقفلَ حينئذ أمين اللوحَ عليهما فوجدَ الطفلان نفسيهما في الظلام. كانا يسمعان، من مخبئهما، صوتَ أبيهما كأنه مخنوق، وخطواتِ الكبار الذين يدورون في الحجرة.

«إنْ حدث لنا أمرٌ، إنْ كنّا في خطر، سيكون عليكما أن تختبئا هنا».

ولَقَّنَ أمين ماتيلدَ كيفية استعمال قنبلة يدوية في حال تعرَّضَت المزرعةُ لهجوم في غيابه. أنصتتْ إليه بتركيزِ جنديّةٍ، مستعِدَّةٍ لكلِّ أمرٍ من أجل الدفاع عن حِماها. قبل ذلك اليوم بأيّام، حضرَ رجلٌ إلى المستوصف. عاملٌ مُسِنٌّ، يعمل في المزرعة منذ أول يوم وعرفَ حتى الحاج قدُّور بلحاج. وحسبتْ أنه إنما طلبَ أن يُكلِّمَها في الخارج، تحت النخلة الكبيرة، بدافع الحياء. قد يكون مريضاً ويخشى أن يَذيعَ خبرُهُ. أو ربما، مثلما يطرأ كثيراً، يرغبُ في الحصول على تسبيق من أجرته أو على عملٍ من أجل بعض أقربائه. تحدَّثَ العاملُ عن المناخ، عن ذلك الحَرِّ القاهر وتلك الريح الجافة الضَّارة بالمحاصيل. وسألَ عن أخبار الطفلين ودعا لهما بالحفظ والبركات. وعندما فرَغَ من المقدِّمات، وضعَ يدهُ على ذراع ماتيلد

وهمسَ لها: «إنْ أتيتُكِ يوماً، خصوصاً بالليل، أطلبُ مقابلتكِ، لا تفتحي. ولو كنتُ أنا، ولو قلتُ لكِ إنَّ الأمر مستعجلٌ، وإنَّ شخصاً ما مريضٌ، أو إننا بحاجة إلى المساعدة، احتفظي بباب بيتكِ مقفَلاً بإحكام. حَذِّري طفليكِ، وأخبري الخادمةَ. إن أحضُرْ فلكي أقتلكِ. لأنني سأكون قد انتهيتُ إلى تصديق أولئك الذين يزعمون أنَّ قتلَ الفرنسيين يقودُ إلى الجنة». في تلك الليلة، أخذت ماتيلد البندقيةَ المخبَّأةَ تحت السرير ومشتْ حافيةً إلى غاية النخلة الكبيرة. وأطلقت النار، في الظلام، على جذع النخلة إلى أن أفرغت الذخيرةَ كلَّها. وفي صباح اليوم الموالي، عندما استيقظَ أمين، عثر على جثث الفئران عالقةً في اللبلاب. وهَزَّتْ ماتيلد كتفيها عندما سألَها عن الأمر. «لم أتحمَّلْ ضوضاءَها. أرى الكوابيسَ في الليل من سماع صوتها وهي تتسلَّقُ الأوراقَ».

مكتبة
t.me/t_pdf

عند آخر الشهر، حلَّت الليلةُ الكبيرةُ. كانت ليلةً من ليالي أغسطس، جميلة وساكنة. يلمعُ قمرٌ أحمرُ من بين أغصان شجر السَّرو، وتمدَّدَ الطفلان فوق العشب ليشاهِدا الشُّهُبَ في السماء. كانوا اعتادوا العشاء في الحديقة، بعد نزول الليل، بسبب رياح الشّرقي. يعلقُ ذبابٌ أخضر اللون بالشمع فيموت. وتطير عشراتُ الخفافيش من شجرة إلى أخرى، فتضع عائشة يدَها على شعرها خشيةَ أنْ تصنع فيه تلك الحيواناتُ أعشاشها.

كانت النساء أول من سمع الطلقات. اعتادت آذانُهُنَّ على التقاط صرخات صغارهنَّ، وأنّات المرضى، فاعتدلنَ فوق أسِرَّتِهِنَّ، وقد ضاقتْ صدورُهُنَّ بِحَدْسٍ قبيح. أسرعتْ ماتيلد إلى حجرة الطفلَين. وحملت الجسدَين الدافئَين المرتخيَين من أثر النوم. ضمَّتْ سليماً إليها: «كلُّ شيء بخير، كلُّ شيء بخير». كلَّفَتْ طامو بإخفائهما في الدولاب، وأدركتْ عائشة، نصفَ غائبةٍ في حلمٍ، أنَّ فتحة المخبأ تُقْفَلُ عليهما وأنَّ عليها أن تُطَمْئِنَ شقيقَها. لم يكن الوقتُ وقتَ بكاء ولا عصيان، فظلّا ساكنين. فكَّرت عائشة في المصباح الكهربائي، الذي يُستعمَلُ في صيد الطيور. وتمنَّتْ لو أنَّ أباها كان فكَّر في أن يعطيها إياه.

سمعتْ، من مخبئها، صرخات طامو، تريد أن تلتحق بالدوّار للاطمئنان على والديها، وصوت أمين وهو يصيح آمراً: «لن يخرج أحدٌ!» ظلتْ الخادمةُ جالسةً في المطبخ، تنتفضُ لأدنى صوتٍ، باكيةً، وقد أخفَتْ وجهَها في مرفقها.

في البداية، عَمَّ ضوءٌ هائلٌ، انفجارٌ أرجوانيٌّ في البعيد، يصنع ما يشبه فجوةً ضوئيّةً وسط الليل. كان الحريقُ يرسُمُ أفقاً جديداً، وبدا كأنَّ النهارَ يودُّ أن يبزغَ وسط الظلام. وبعد الصَفاء الأزرق، حلَّ لونُ اللهب البرتقاليّ. ولأوّل مرة في حياتهم، شهدوا الريفَ تخترقُهُ الأضواءُ. لم يعد عالمهم سوى جحيمٍ ضخم، كرةٍ مُتَّقِدَةٍ. وصار المنظرُ، الصامتُ في العادة، طافحاً بأصوات الطلقات، والصرخات التي تصل إلى غاية بيتهم، مختلطةً بصياح الثعالب والبُومِ.

على بعد بضعة كيلومترات، بدأ احتراق الأراضي، والتهمت النيرانُ أغصانَ أشجار اللوز، والخَوْخ. كأنَّ آلاف النساء تواعدن على إعداد وجبة شيطانية، وتنشر الريحُ الرهيبةُ رائحةَ الخشب والأوراق المحروقة. وامتزجت بطقطقة اللهب صرخاتُ العمّال، الذين كانوا يركضون، فوق أراضي المعمِّرين، من البئر إلى الإسطبل، ومن البئر إلى أكوام التبن التي كانت تحترق. كان الرماد والجمر يتطايران، فيكسوان وجوهَ البدويين، ويحرقان ظهورهم، وأيديهم، لكنهم لا يشعرون بشيء ويُسرعون حاملين في أيديهم سطولَ الماء. نَفَقَتِ الحيواناتُ في الإسطبلات، من الحريق. «لن تستطيع كلُّ نوايا العالم الطيِّبة أن تُخْمِدَ هذه المجزرة، قال أمين في نفسه. لن يوقفهم شيء. وسَنَعْلَقُ نحن وسطَ الحريق. وما من سببٍ يغيِّرُ هذا الأمر».

وفي الليل، دخلت دبّابةٌ تابعةٌ للجيش الفرنسي المزرعةَ. وكان أمين ومراد تناوبا على الحراسة منذ غروب الشمس، فأبرزا للجنود هويّتهما باعتبارهما جنديَّين سابقَين. سألهما العسكريُّ إن كانا في حاجة إلى مساعدة. نظر أمين إلى الآلة الحربية العملاقة، وإلى بدلة الجنديِّ، وشعر بالحرج من وجودهما فوق أرضه. لم يكن يريد أن يراهُ العمّالُ يتحدَّثُ إلى ذلك الرجل الذي يرون فيه المحتَلَّ.

«لا، لا، كل شيء على ما يُرام كومندان. لسنا بحاجة إلى شيء. يمكنكم استئناف طريقكم». انصرفَ الجنديُّ واستراحَ مراد في وقفته.

كان سليم يبكي تحت لوح المخبأ. يتعلَّقُ بشقيقته، ويكسوها بالمخاط والدموع، وكانت تقول له: «اصمتْ أيها الأبله. سيسمعنا الأشرارُ، وسيأتون لأخذنا وسيقتلوننا». وضعتْ يدَها على فم الصغير الذي لم يتوقَّفْ عن الاضطراب. كانت تحاول أن تسمع أصواتَ البيت، خصوصاً صوت أمِّها، لأنها إنما كانت تقلقُ من أجلها. ماذا سيفعلون بماتيلد إن عثروا عليها؟ هدأَ سليم. وضعَ وجهه على صدر شقيقته مندهشاً من كون قلبها لا يدُقُّ بقوة أشدّ، فاطمأنَّ لأنها لا يبدو أنها خائفة. تَلَتْ عائشة صلاةً، وقد ألصَقَتْ شفتيها بأذن شقيقها الصغير. «**يا ملاكَ السماء، أيها الراعي الوفيّ الرحيم، اجعلني طوعَ إلهامك، وأن تستقيم خطواتي فلا أضِلَّ عن سبيل أوامر الرَّبّ. أيتها العذراء المقدَّسة، أُمّ الرَّبّ، وأمّي وراعيتي، أضعُ نفسي في حمايتك**». واستغرقا في النوم، كأنهما سكنا كلاهما لرؤية صورة ذلك الملاك الذي يحميهما.

كانت عائشة أَوَّلَ من استيقظ. وكانت تجهل كم لبَثَتْ نائمةً. لم

تعد تسمعُ شيئاً في الخارج. يبدو أنَّ إطلاق النّار قد توقَّفَ، واستتبَّ الهدوءُ من جديد، وتساءلت لِمَ لَمْ يأتِ أحدٌ لإخراجهما. «ماذا لو كنَّا وحيدَين في العالم؟ قالت في نفسها. ماذا لو كانوا قد ماتوا جميعاً؟». دفعتْ بكلتا يديها اللوحَ الذي كان يضغطُ عليهما، ولمَّا استقامتْ واقفةً، فتحتْ بابَ الدولاب. كان سليم مُمَدَّداً في القاع، وأصدرَ عندما نهضتْ أنيناً خافتاً. كانت الحجرةُ غارقةً في الظلام. ومشتْ عائشة، على مهل، في المَمَرِّ، باسطةً يديها أمامها. كانت تعرف موقع كلِّ أثاثٍ، وحرصتْ على ألّا تُبَعْثِرَ أيَّ شيء، وألّا تُثير أيَّ صوتٍ يمكن أن يدلَّ عليها. وصلتْ إلى المطبخ الذي كان خالياً بدوره، فانقبضَ قلبُها. ذبابٌ يتطايرُ حول بقايا طعام العشاء. «لقد أتَوا، قالت في نفسها، وأخذوا طامو، ووالدَيّ، وحتى سلمى». بدا لها البيتُ في تلك اللحظة متراميَ الأطراف ومُعادياً. رأتْ نفسَها أُمّاً لشقيقها، فتاةً صغيرةً مرصودةً لمصيرٍ خارقٍ. حَكَتْ لنفسها قصصاً عن دُور الأيتام والمعاناة، ففاضتْ عيناها بالدموع. حكايات أرهَبَتْها، لكنها شجَّعَتْها كذلك. ثم سمعتْ صوتَ سلمى، بعيداً، ضعيفاً. التفتتْ عائشة لكن لم يكن هناك من أحد. حسبتْ أوّلاً أنها حلمَتْ، ثم وصلَها صوتُ عمَّتِها من جديد. اقتربت الطفلةُ من النافذة، ومن ثَمَّ تبيَّنتْ صوتَ محادثةٍ بصورة أفضل. أدركَتْ «أنهم فوق السطح»، ففتحت البابَ، وقد ارتاحتْ لكونهم على قيد الحياة، وغاضبةً عليهم لأنهم نسوهما. ارتقت في الظلام السُّلَّمَ المُفْضي إلى السطح، وأبصرتْ أوَّلاً طرفيْ السيجارتَين المشتعلتَين اللتين كان يُدَخِّنُهما مراد وأمين. كان الرجلان يجلسان جنباً إلى جنب، فوق صناديق اللوز الذي يعرضُهُ العمّالُ فوق السطح لتجفيفه، بينما كانت زوجتاهما اللتان بقيتا واقفتين تُدير الواحدةُ منهما ظهرها للأخرى.

كانت ماتيلد تنظرُ نحو المدينة التي كان في الإمكان حدسُ أضوائها من ذلك المكان المرتفع، بينما كانت سلمى تتأمّلُ الحريقَ. «لن تبلغنا الحرائقُ. الحمد لله، لن تُصابَ التَّلَّةُ. لقد هدأت الرياحُ، ولن يتأخَّرَ هبوبُ العاصفة». وفتحتْ سلمى ذراعيها، مثل المسيح فوق الصليب، وأطلقتْ صرخاتٍ كبيرةً. صرخات مبحوحة لا تنتهي، تجيبُ صرخاتِ الثعالب التي أثارتْها الحرائقُ. رمى مراد سيجارتَهُ وجذبَ تنّورةَ زوجته بخشونة ليُجْلِسَها.

وقفت عائشة على إحدى درجات السُّلَّم، لا يكاد وجهُها يتعدّى حافّةَ السطح، وتردَّدَت في أن تَظهر لهم. ربّما سيُوبِّخونها. وقد يؤنِّبُها أبوها لأنها تضايقهم، وتُقحِمُ نفسَها دائماً في أمور الكبار، ولا تُحْسِنُ لزومَ مكانها الذي يناسبُها. شاهدتْ في البعيد سحابةً يُذَكِّرُها شكلُها بشكل دماغٍ، وكانت تبدو أحياناً كأنها تضيءُ، وتنتفخ بالكهرباء. كانت سلمى على حقّ. ستُمطِرُ السماءُ، وستُكتَبُ لهُمُ النجاةُ. لم تذهب صلواتُها سُدى، وكان ملاكُها عند وعده. تخطَّت الإفريزَ بحذرٍ وتقدَّمتْ برفقٍ نحو ماتيلد، التي لم تقل شيئاً عندما رأتْها. ضمَّتْ رأسَ ابنتها إلى بطنها وأدارتْ وجهها نحو الحرائق المحتضرة.

كان عالَمٌ يختفي تحت أعينهم. تحترقُ قبالتَهُم بيوتُ المعمِّرين. تلتهمُ النيرانُ فساتينَ الفتيات الصغيرات اللطيفات، ومعاطفَ الأمهات الأنيقةَ، والدواليبَ العميقةَ التي تُجمعُ داخلها، ملفوفةً في لُحُفٍ، فساتينُ ثمينةٌ لم تُلْبَسْ سوى مرة واحدة. تحوَّلت الكُتُبُ إلى رماد مثلها مثل التَّرِكات المستجْلَبَةِ من فرنسا والمعروضة بافتخار أمام عيون الأهالي. لم تكن عائشة قادرةً على نزع عينيها عن ذلك المشهد. لم تَبْدُ لها التَّلَّةُ قَطُّ بذلك الجمال. كانت تودُّ لو تصيح من

شدَّة إحساسها بالسعادة. كانت تودُّ أن تقول شيئاً، أن تشرع في الضحك أو في الرقص مثل تلك الشوّافات اللواتي حدَّثَتْها عنهنَّ جدَّتُها، واللواتي يَدُرْنَ حول أنفسهنَّ إلى أن يُغمى عليهنَّ. لكن عائشة لم تتحرّك. جلستْ إلى جانب أبيها وضمَّتْ ساقيْها إلى صدره. «فليحترقوا، قالت في نفسها. ليرحلوا. ليموتوا».

أشكر أولاً ناشري، جان-ماري لاكلافتين، الذي لولاهُ لما خرج هذا الكتاب إلى الوجود. كانت ثقته، وصداقته، وعشقُهُ للأدب داعماً لي في كلِّ صفحة. وأشكر أيضاً ماريون بوتيل، التي ساعدتني بكفاءتها ولباقتها على اختلاس الوقت من أجل الكتابة. وأتوجَّهُ بكامل امتناني إلى المؤرِّخ حسن أوريد، وإلى كريم بخاري، وإلى الأستاذَين مصطفى بنشيخ والمعطي منجب اللذين استلهمتُ أعمالهما، واللذين تفضَّلا بأن أنارا لي الحياةَ في المغرب في الخمسينيات. شكراً لجمال بادو على ما باحَ لي به من أسرار وعلى كرمه. وأخيراً، أشكُرُ من كلِّ قلبي زوجي، أنطوان، الذي يغفرُ لي غياباتي، والذي يقفُ بحنان حارساً أمام باب مكتبي، والذي يُثبِتُ لي، كلَّ يومٍ، إلى أيِّ مدى يحبُّني ويؤازرني.

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة | سُر مَن قرأ

ليلى سليماني

أرض الآخرين

زوجان، وبَلَدان، وثقافتان، وديانتان، وتربيتان مختلفتان - وحبٌّ. أمين وماتيلد عند تقاطع عالَمَين يباعد بينهما كلُّ شيء: الثقافة والعادات ونمط الحياة ونظرةُ الآخرين إليهما كدخيلَين. كيف للمرء أن يعيش ممزقاً بين معسكرَين؟ كيف يظَلُّ وفِيّاً لذاته في «أرض الآخرين»، دون أن يَصطدِمَ بثقافة الآخر ودون أن يفقد هويَّتَهُ؟

تعيشُ كلٌّ من شخصيات هذه الرواية الرائعة في «أرض الآخرين»: المستعمرون والأهالي على حدٍّ سواء، وكذلك الجنودُ، والفلاحون، والمنفيّون. وتعيش النساءُ، على وجه الخصوص، في أرض الرجال، بين خضوع لتقاليد راسخة ورغبة في الحداثة.

تحكي لنا ليلى سليماني قصة آسرة، قاسية ورقيقة في آنٍ واحد، ذات طابع إنسانيٍّ مرهف، مؤكّدة لنا أن الكاتبَ، الكاتب الحقيقيَّ، يخطف القارئ وينتقل به إلى «أرض الآخرين».

❖ ❖ ❖

ليلي سليماني كاتبة وصحافية مغربية-فرنسية، من مواليد الرباط عام 1981. فازت روايتها **أغنية هادئة** بجائزة غونكور لعام 2016 فغدت أول عربية تفوز بهذه الجائزة المرموقة. تصدّرت **أرض الآخرين**، روايتها الثالثة، قائمة الروايات الأكثر مبيعاً في فرنسا فور صدورها وتُرجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة.

telegram
@t_pdf

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com